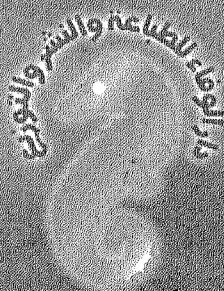


الفتوة في المفهوم الإسلامي

دراسة في الأخلاق الإسلامية

دكتور/ عبد العزيز محمد



ت / فاكس: ٥٢٥٤٤٣٨٠ (٠٢) - اسكندرية



الفتوة في المفهوم الإسلامي

دراسة في الأخلاق الإسلامية

د. عبد العزيز محمد

الفتوة في المفهوم الإسلامي

"دراسة في الأخلاق الإسلامية"

كمبيوتر : دار الوفاء (علاء)

الطباعة : دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر

العنوان : ش ملك حفنى ، قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن درباله أمام بلوك ٣

ص.ب. ٢١٤١١ فيكتوريا - اسكندرية

رقم الإيداع : ١٣٤٤٧ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى : 6- 19 - 5904 - 977

الفتوة فى المفهوم الإسلامى

دراسة فى الأخلاق الإسلامية

دكتور / عبد العزيز محمد

الناشر
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
ت : ٥٣٥٤٤٣٨ — الإسكندرية

المقدمة

الفتوة فى اللغة من الفتاء وهو الشاب، والفتى فى الأصل الشاب وقد يراد به الكامل من الشاب، فالفتوة هى القوة لأن الشاب مصدرها عادة.

ويذكر صاحب التعريفات أن الفتوة فى اللغة : السخاء والكرم، وفى إصطلاح أهل الحقيقة : هى أن تؤثر الخلق على نفسك بالدنيا والآخرة.

وهنا نجد معنى آخر للفتوة يقترب كثيراً من المعنى المعنوى إذ أن الفتوة فى هذا التعريف لا تقتصر على الشاب والقوة فقط وإنما تعدت ذلك إلى معانى أخرى أسمى وأعلى، كالسخاء والكرم، حتى وصلت إلى حد الإيثار عند الصوفية.

إلا أن المفهوم الشائع للفتوة أخذ معانى المشاغبة والغلبة والشقاوة.. واضمحت معانى الفتوة التى تدل على النبل والسماحة والسخاء والكرم وإيواء الضيف، وكظم الغيظ ومساعدة الضعيف، والعفو عند المقدرة، والإيثار....

ومن خلال الصفحات القادمة نحاول أن نوضح السمات الأخلاقية والمعنوية للفتوة فى المفهوم الإسلامى غير غافلين عن السمات المادية، ولكن بداية كان علينا أن نجيب فى الفصل الأول عن السؤال التالى : هل عرف المجتمع الجاهلى قبل الإسلام نظام الفتوة؟

وهنا لابد أن نقرر أن كثيراً من مزايا العرب قبل الإسلام قد دخلت ضمن سمات الفتوة — ولكن مع إختلاف الغاية — ومن جهة

أخرى وجدت بعض السمات الغير محمودة والتي نهى عنها الإسلام وحرمها مثل شرب الخمر، والجلوس فى الحانات، وحضور مجالس اللهو والمجون.....

وفى الفصل الثانى نعرض لمفهوم الفتوة فى الإسلام، وفى البداية نعرض لمعانى الفتوة كما وردت فى كتاب الله عز وجل، إذ وجدنا أن لفظ "فتى" قد ذكر فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع وبأكثر من معنى، كما أتى وصفاً لبعض الأنبياء.

أما عن سمات الفتوة كما أوضحها الإسلام فوجدنا أنها مجموعة من الخصال الحميدة والصفات الرشيدة، التى تكون فى مجموعها شجرة الأخلاق بفروعها وأغصانها وثمارها، والتى عبرت عنها الشريعة الغراء "بمكارم الأخلاق".

وقد تجسدت هذه الأخلاق الكريمة فى شخصية سيد الفتيان على مر العصور والأزمان، رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذى كان له أكبر الأثر على الصحابة لأنه القدوة والأسوة الحسنة، ولهذا أردنا أن نعرض فى الفصل الثالث لنماذج من فتیان المسلمين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدنا أن هؤلاء الصحابة نماذج فذة فى مكارم الأخلاق.

وإذا كان الصوفية قد استحسنا كلمة الفتوة، وماتدل عليه من معانى النبل والسماحة، وما تسعى إليه من التحلى بمكارم الأخلاق، لذلك شاع استخدامها بينهم وأدخلت ضمن مصطلحاتهم.

ولما كان من الصعب تتبع وحصر سمات الفتوة عند الصوفية — بصورة عامة — فقد اقتصرنا البحث فى الفصل الرابع على بعض من

مدارس الصوفية وهى البصرة ، والكوفة، والشام، وخراسان.. ومن خلال البحث استطعنا الإجابة على بعض التساؤلات ومنها :

— ما هو المصدر الذى استقت منه الصوفية مبادئ فتوتها؟

— ما هى سمات الفتوة التى تتحلى بها الصوفية؟

— ما هى الغاية التى تهدف إليها الصوفية من وراء فتوتها؟

واستكمالاً لعناصر البحث كان لابد أن نعرض للصلة بين الفتوة الإسلامية والفروسية الغربية، لكى نتعرف إلى أى مدى تأثرت هذه الفروسية بسمات وخصال الفتوة.

وبمناقشة هذا الموضوع فى الفصل الخامس وجدنا أن الفروسية الغربية لم تستطع أن تتحلى بما عرف من خصال حميدة يتحلى بها فتيان المسلمين، يشهد بذلك إحتكاكهم بالعرب فى المعاملات عن طريق الأندلس، وميادين القتال خلال الحروب الصليبية.

وعلى الله قصد السبيل

ط. عبد العزيز محمد

الفصل الأول مفهوم الفتوة قبل الاسلام

مفهوم الفتوة قبل الاسلام

بعد أن تعرفنا على معنى الفتوة في اللغة، واستعرضنا الفرق بينها وبين المروءة، يجدر بنا أن نعرض لمفهوم الفتوة عند العرب قبل الاسلام.

وهنا نجد إن الكلمة خاضعة للقبائل المختلفة، فتلبسها كل قبيلة ما تراه المثل الأعلى للفتى، فطرفة بن العبد — مثلاً — يرسم لنا صورة للفتى كما يتصورها هو وقبيلته فيقول:

إذا القوم قالوا من فتى خلت إنني

دعيت فلم اكسل ولم أتبذل

وهذا القول لطرفة يذكرنا بقول بشامة بن حزن النهشلي:

لو كان في الألف واحد فدعوا

من فارس؟ خالهم إياه يعنونا

فهم يدعون الفارس في الملمات والشدائد، كما يدون الفتى، فكأن الفتى هو الفارس الشجاع، وإن كان الفتى أعم معنى، ويتضح ذلك من حديث طرفة عن نفسه في وصف الفتى وعدد سجاياه في قوله:

ولست بحلال التلاع مخافة

ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فهو كريم يرفد كل من طلب رفده، وهو واسع الرحب قرى الضيف كما هو واسع النجدة في قتال الأعداء.

وإن تبغنى فى حلقة القوم تلقني

وإن تقتنصني فى الحوانيت تصطد

وهنا نجد طرفة يصف الفتى بأنه جاد هازل، أى أنه من ذوى
الرأى والمشورة يدلى برأيه بين عظماء القوم عندما يجد الجد. كما
أنه يطلب اللذة والاستمتاع بشرب الخمر فى الحوانيت، ليسقى فيه
كرما (١).

فالفئة هنا فى نظر طرفه — وامثاله — شجاعة وكرم وهذه
الصفات وإن كانت محدودة. فقد اقترنت بصفات أخرى غير محدودة
كاللهو واللذة والاستمتاع بشرب الخمر فى الحوانيت، معتقداً أن الحياة
هى هذه الحياة ولاشئ وراءها. فليلتذ ما أمكن، وليس هذا من الإسلام
فى شئ.

كذلك كان من دواعي فخر العرب فى الجاهلية أن يكون الفتى
كريما وكثيرا مالا مهم نساؤهم على إسرافهم فى الكرم، وبيتهم فى
حاجة الى ما يبذلونه للضيوف ولقد أفصح هؤلاء الأسخياء عن الغاية
من وراء هذا الكرم بأن هلاك المال فى سبيل الضيف — وإن هلك
العينال — مفخرة تخلص الأسان. أما البخل والشح فعار أى عار، وليس
المال بمخلد صاحبه إذا هو شح به :

ألا بكرت مي على تلومني

تقول: ألا أهلك من أنت عائله

نريني فان البخل لا يخلد الفتى

ولا يهلك المعروف من هو فاعله (٢)

وإذا ما انتقلنا الى مفهوم آخر من مفاهيم الفتوة عند العرب قبل الاسلام لوجدنا أن العرب قوم رحل ليس لهم حكومة منظمة، ولا قوانين مرسومة، ولا قوة منفذة ولا محاكم للفصل بين المنازعات. ولذلك كانت كلمة الشرف. والوعد الصادق هي القانون الذى يقده كل عربي ويحرص على احترامه والخضوع له، حرصا على مصلحته الخاصة، وعلى العدالة العامة فى المجتمع، وفى ذلك يقول هيرودت: ليس ثمة قوم يحافظون على أيمانهم مثل العرب (٣).

وأحيانا تبلغ كلمة الشرف، والوعد الصادق الذى يلزم به المرء نفسه الى ذروة الوفاء. وفى هذا الصدد يقول السموأل — الذى يضرب به المثل فى الوفاء :

وفيت بأدراع الكندي أني

إذا ما ذم أقوام وفيت (٤)

ومن مفاهيم الفتوة قبل الاسلام نجد الصدق وحفظ السر، ويتضح ذلك فى قول مسكين ألد ارمى

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم

على سر بعض غير أنى جماعها

لكل أمرى شعب من القلب فارغ

وموضع نجوى لا يرام إطلاعها

يظنون شتى فى البلاد وسرهم

الى صخرة أعياد الرجال إنصداعها (٥)

مما سبق نجد أن مفهوم الفتوة قبل الإسلام يختلف باختلاف نظر الأشخاص، فبعضهم يراه فى الشجاعة والكرم، وبعضهم يراه فى

التلذذ بالحياة ما أسعفته، وبعضهم يراه في الوفاء بالوعد، والبعض الآخر يراه في الصدق وحفظ السر. وكأننا أمام جماعة من السوفسطائيين كل منهم يرى في نفسه المثل الأعلى في تصرفه.

ولذلك لا نستطيع أن ندعى أنه في بادئ الأمر كان في الجاهلية جماعة يسمون الفتيان واحدهم فتى، إنما كل مافى الأمر أن الكلمة تطلق على بعض الأفراد في كل قبيلة جمعوا مع الشباب والقوة والشجاعة صفة بينه من الصفات قد تكون الكرم، أو النجدة، وقد تكون الوفاء بالوعد والالتزام بالعهد، وقد تكون الصدق وحفظ السر ... أو غير ذلك من الفضائل والصفات المحمودة. وربما تكون بعض هذه الصفات والسمات غير محمودة — فألغاهما الإسلام نهى عنها كشراب الخمر، وحضور مجالس اللهو والانغماس في اللذات.

ويخيل الى أنه كان في الجاهلية طبقتان مختلفتان، وإن تلاقا في بعض الخصال، الفتيان وهم أولاد الأغنياء من الشبان، والذين ييغنون من وراء فتوتهم السؤدد والرياسة. ويقابلهم أولاد الفقراء ويسمون الصعاليك. فالصعلكة كما وردت في كتب اللغة تساوى الفقر. ففي القاموس المحيط صعلكه .. أفقره .. والصعلوك الفقير، وتصلعت الإبل خرجت أوبارها وعروة الصعاليك هو ابن الورد لانه كان يجمع الفقراء (الصعاليك) في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه (٦).

وفي هذا نرى أن المعنى المباشر للصعلكة هو الفقر، وأنها في استعمالها الأخرى تدور أيضا حول الفقر، بمعناه المباشر وهو التجرد، فإن الفقر في الإنسان هو التجرد من الغنى، وكذلك التصعلك

فى الإبل بالتجرد من أوبارها. وفى لسان العرب الصعلوك الفقير الذى لا مال له، وزاد الأزهرى ولا اعتماد، وتصلك الرجل اذا كان كذلك. وفى هذا التعريف للصعلكة نجد أن صاحب اللسان تقدم عن المعنى اللغوي للصعلكة خطوة نحو المعنى العرفى لها بقوله: وزاد الأزهرى واعتماد فان قوله ولا اعتماد، يعبر عن معنى دقيق فى مفهوم الصعلكة بالمعنى المعروف لها، وإذا كان الفقر من أهم الدوافع الى الصعلكة فان ما يميز الصعاليك عن غيرهم من الفقراء، إنهم رفضوا أن يعيشوا عالة على غيرهم أو أن يجعلوا أحدا من الناس عمادا لهم، فى حين رضى بعض الفقراء لا أنفسهم الذل والاستكانة (٧).

وإذا ما تساءلنا عن وسيلة عيش هؤلاء الصعاليك لوجدنا أنهم كانوا يعيشون وينفقون من الإغارة على الأغنياء والسطو على أموالهم، وحببتهم فى ذلك أنهم يغيرون على الأغنياء البخلاء الأشحاء أما الأغنياء الكرام فيتركوهم وشأنهم بل ويحافظوا على أموالهم (٨). ويعبر أحد الصعاليك - وهو بكر بن النطاح عن هذا المعنى فيقول :

ومن يفتقر منا يعيش بحسامه

ومن يفتقر من سائر الناس يسأل (٩)

وجدير بالذكر أن هذا الخلق يتعارض مع سمات الفتوة - وخاصة الإسلامية - إذ أن الفتوة تقوم على مجموعة من الخصال الحميدة ولا تقوم على السلب والنهب والصوصية. وهنا يمكن القول أن كلمة صعلوك إذا كانت تعنى فى مدلولها اللغوى الفقير فقد وجدنا أنها تعنى فى مدلولها العرفى اللص، وذلك لأن هذا الفقير الصعلوك يعتمد فى معيشته على السطو والإغارة والصوصية.

وهنا نجد سؤالاً يطرح نفسه، هل إقتصرت الصلابة على أساليب اللصوصية وحدها، وما تتطلبه من سرعة العدو والقوة والمنعة والفتك بالأعداء.... أم تعدت ذلك إلى صفات أخرى أرفع وأسمى؟ حقيقة الأمر أنه لكي نجيب على هذا السؤال لابد لنا أن نتعرف على شخصية من شخصيات الصعاليك حتى نرى ما كان يتحلى به من صفات وخصال. ولتكن هذه الشخصية عروة بن الورد العبسي، الملقب بعروة الصعاليك.

فقد إمتاز عروة بأنه أضفى على الصلابة كثيراً من الاحترام والتقدير، وذلك راجع إلى ما تحلى به، عروة من خلق فريد في السخاء، والعطف الشديد على الفقراء ويتضح ذلك في قوله (١٠).
اقسم جسمي في جسوم كثيرة

واحسوا قراح الماء والماء بارد

ومعنى تفريق أو تقسيم جسمه في جسوم كثيرة، إنه يقسم غذاءه الذي يكون جسمه على أجسام كثيرة ليكونهم بينما يكتفى هو بالماء. ولذلك لقب "بعروة الصعاليك" ويقصدون بالصعاليك هنا الفقراء والسبب في هذا اللقب أن عروة كان كثيراً ما يجمع الفقراء ليعولهم ويعطف عليهم (١١).

وهكذا يمكن القول أن الصلابة تلتقي مع الفتوة في بعض الخصال، فهي لم تقف عند حد اللصوصية وإلا غارة على الأغنياء، بل تعدت ذلك إلى بعض الخصال الحميدة التي اشتهر بها المجتمع العربي الجاهلي مثل، العطف والكرم والنجدة... وقد أجمع أبي المنثم كثيراً من هذه الخصال في رثاء صخر الغي إذا يقول :

أبى الهزيمة آت بالعظيمة متـ
 سلاف الكريمة لا سقط ولا وانسى
 حامى الحقيقة نسال الوديقة معـ
 تاق الوسيقة جلد غير ثنيـــــان
 هباط أودية شهاد أنديـــــة
 حمال ألوية سرحان فتنيـــــان
 يحمى الصحاب إذا جد الضراب ويكـ
 فى القائلين إذا ما كبل العانـــــى
 يعطيك مالا تكاد النفس تسلمـــــه

من التلاد وهوب غير منـــــان (١٢)

وإذا ما أردنا أن نتعرف على تلك العلاقة بين الصعلكة والفتوة،
 يمكن القول أنهما وإن اشتركا معاً فى بعض الخصال أو الصفات
 كالشجاعة والاقدام الكرم وإيواء الضيف... إلا أنه يمكن القول ان
 شجاعة الصعاليك كان يشوبها كثيراً من الحذر واليقظة نظراً لأن
 حياتهم يسودها الرهبة والقسوة والخطورة فليست فى حياتهم ساعة تخلو
 من الخطورة أو الخوف أو توقع المكروه.

ويوضح الشنفرى سبب هذه اليقظة والحذر، فهو بالإضافة إلى
 أنه طالب صيد به فهو أيضاً طريد جنایات كثيرة جناها، جعلت له
 أعداء كثيرين يتربصون به، إن نام هو، فعيونهم يقظى متعجلة الظفر
 به. فيقول :

طريد جنایات تياسرن لحمه

عقيرته لأيهاحـــــم أول

تنام إذا ما نام يقضى عيونها

حنا إلى مكروهه تتعجل (١٣)

فهذه الحياة التى كان يحياها الصعاليك تختلف عن تلك الحياة التى عرفها الفتيان فى الجاهلية من لهو وإستمتاع. ويحدثنا قيس بن الحداية، والذى كان يعتبر قبل خلعه من فتيان قومه والفرسان المعدودين، فيقول عن إنتقاله من حياة الدعة والهدوء — أى حياة الفتيان الفوارس. إلى صراع الحروب — أى حياة الصعاليك والخلعاء وأصبحت بعد الأئس لابس جبة

أساقى الكماة الدارعين العوالي (١٤)

بالإضافة إلى ما سبق نجد فرقاً آخر بين الصعلكة والفتوة، وهو أن الفتيان يعطون ما يعطون وهم مترفعون، بينما الصعاليك يعطون ما يعطون وهم يعتقدون أنهم مع زملائهم الفقراء متساوون. وإن شئت قلت : أن الفتيان يعطون ما يعطون عطفاً وتفضلاً والصعاليك يعطون أداء لما يروونه واجباً.

وهكذا يتضح لنا أن هناك خلافاً حول مفهوم الفتوة قبل الاسلام، وذلك راجع إلى ما تضيفه البيئة على معنى الكلمة وإلى فهم كل شخص أو بالأحرى كل فتى لمعنى الفتوة، فتارة تعنى الشجاعة والكرم... إلى جانب باقى الخصال الحميدة وتارة أخرى تعنى اللهو والمجون وشرب الخمر... إلى غير ذلك من الخصال الغير محمودة ويبقى أمامنا الآن التعرف على بعض مظاهر الفتوة قبل الاسلام ومن خلالها نصل إلى الغاية التى يسعى إليها الفتيان.

القوى المادية للفتوة

الشجاعة

إذا ما نظرنا إلى الشجاعة عند فتیان العرب لوجدنا أن الفتى العربى لا يهاب الموت ويجود بالنفس فى سبيل ما يدافع عنه :
نجد بالنفس إن ضنى البخیل بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود. (١٥)
ومما هو جدير بالذكر أن العرب قد إعتبروا القوة والبطش ملازمة للشجاعة إذ أن دواعى الخلاف بين القبائل كثيراً ما تنتهى بالاحتكام للسيف، وهذا الأمر يقتضى يداً قوية وجسماً مفتولاً لا مترهلاً ولا هزياً. لذلك أصبح من دواعى فخارهم أن يكون الفتى (١٦)
فتى قد قد السيف لا متضائل

ولا رهل لباته وأباجله

إذا جد عند الجد أرضاك جده

وذو باطل إن شئت أرضاك باطله

يسرك مظلوما ويرضيك ظالما

وكل الذى حملته فهو فاعله

والشجاعة تقتضى من الفتى أن يفضل الموت على العيشة الذليلة والرضا بالضميم. بل أدى الأمر ببعض الفتیان إلى حد الاستهانة بالموت مقارنة بموقف آخر أسوأ من الموت ذاته كالمقارنة بين الفرار فى الحرب والموت. حين يرى الفتى إن الموت خير من عار الفرار أحياناً، وكالمقارنة بين الموت وعار التخلّى عن الزود عن

العرض والشرف، وحين يرى الزائد حينئذ أن الموت خير له من ذلك العار (١٧).

فها هو قيس بن منقذ (المعروف بابن الحدادية) يفضل الموت عن الوقوع في الأسر من ذل وهوان. إذ حاصره جمع المغيرين للغنيمة فطلبوا من قيس أن يستأسر ليتخذوه غنيمة، فأبى قائلاً: نفسي أكرم على من الأسر، وأثر أن يقاتلهم حتى قتل وهو يرتجز مستهيناً بالموت:

أنا إذا الموت ينال غاليه

مختلط أسفله بعاليه

قد يعلم الفتيان أنى صاله

إذا الحديد رفعت عواليه (١٨)

ومما هو جدير بالذكر أن الاستهانة بالموت وإقتحام المهالك كان يصاحبها دائماً الحيطه والحذر، فالفتى الشجاع فى ميدان القتال مهما بلغ من البسالة والإقدام والحرص على مواجهة الموت لا يغنيه ذلك عن أن يتخذ لنفسه كل حيطه وحذر. وهذا الحذر جعل الفتى — فى ميدان القتال — لا يستسلم لسلطان الخفة، حتى إنه إذا نام ظل قلبه حارساً يقظاً محاذر ينبهه إلى أى خطر يحيط به:

إذا خاطر عينيه كرى النوم لم يزل

له كالى من قلب شيحان فاتك

ويجعل عينيه ربيئه قابله

إلى سلة من جد أخضر باتك (١٩)

وهذا دليل على أن الفتى مهما أوتى من شجاعة، يجب أن يأخذ كل حيلة وحذر حتى لا يؤخذ على غرة.

ومراتب الشجاعة والشجعان كما يراها ابن القيم هي :
أولاً الهمام : وسمى بذلك لهمته وعزمه. وجاء على بناء فعال كشجاع.

ثانياً المقدام : وسمى بذلك من الإقدام وهو ضد الاحجام. وجاء على أوزان المبالغة، كمعطاء، كثير العطاء.

ثالثاً الباسل : وهو اسم الفاعل من بسل يبسل، كشرف يشرف والبسالة الشجاعة والشدّة.

رابعاً البطل : وجمعه أبطال، وهو بمعنى فاعل لفظاً ومعنى، لأنه الذى يبطل شجاعة غيره فيجعلها بمنزلة العدم، فهو بطل بمعنى مبطل.

خامساً الصنديد : بكسر الصاد، والعامّة تلحن فيقولون صنديد بفتحها والصنديد الذى لا يقوم له شئ (٢٠)

ولما كانت الشجاعة خلقاً كريماً يتحلّى بها الفتیان، فأنها تتطلب الاقدام فى موضع الاقدام، والاحجام فى موضع الاحجام، والثبات فى موضع الثبات، والزوال فى موضع الزوال.

و ضد ذلك مغل بالشجاعة وهو إما جبن وإما تهور، وإما خفة، وطيش. وعلى هذا يمكن القول أن الشجاعة وسطاً بين الجبن والتهور، وإن كانت إلى التهور أقرب منها إلى الجبن، فالفتى الشجاع لا يعرف الجبن أو التخاذل إلى قلبه سبيلاً، وإنما تراه مقدماً يخوض فى قوة وبسالة.

وإذا ما تساعلنا عن العوامل التي ساعدت على إظهار شجاعة
فتيان العرب لأمكن القول : ان الحياة البدوية التي يعيشونها فى صحراء
شبه شحيحة مجدية وتوحشهم فى الضواحي، وبعدهم عن الحامية،
وانتباذهم، عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها
إلى سواهم، ولا يتقون فيها بغيرهم (٢١).

هذه الحياة البدوية فضلاً عن طبيعة الصحراء وما تكسبه للجسم
من القوة البدنية، جعلت فتيان العرب دائماً يحملون السلاح بيد قوية
وقلب ثابت لا تعرف جنوبهم الراحة والدعة، ينفردون فى الصحراء
مدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم، حتى صار لهم البأس خلقاً والشجاعة
سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو إستفزه صارخ (٢٢).

والآن نريد أن نتساءل ما هى الغاية التى يسعى إليها فتيان
العرب الشجعان؟ إننا إذا ما نظرنا إلى الغاية من الشجاعة عند فتيان
العرب نجد أن الفتى العربى كان يقتحم الخطوب والمعارك بقلب ثابت
ويد قوية وشجاعة بالغة المدى، واثقاً من شجاعته وبأسه وحنكته فى
ساحات القتال. وذلك لأنه ييغى من إقتحام المكاره الحمى والصيت،
والبقاء فى عزة وحرية له ولقبيلته فيخشى بأسها الأعداء، ولا يطمعون
فيها. ولا عجب إذا سمعنا شاعرهم يقول :

ما تعترينى من خطوب ملمة

إلا تشرفنى وتعظم شأنى (٢٣)

من هذا يتضح لنا أن شجاعة الفتى تلبسه المجد والشرف وتعظم
من شأنه فى القبيلة وتوصله إلى أعلى مراتب السيادة والرئاسة. وهذا
هو غاية ما يطمح إليه الفتى العربى.

بالإضافة إلى ما سبق نجد أن كثرة الشجعان بين العرب، نتيجة إمتداح الرأى العام للشجاع القوى الذى يلبى النداء إذا دعى للنجدة، أو كانت قبيلته أو عشيرته أو حلفاؤه فى محنة. ولا جدال أن للرأى العام فى نفوس البعض سلطان قوى يتأثر به الفرد، وتتأثر به الجماعة، والعرب كانوا يمتدحون القوى الشجاع، ويهزءون بالجبان الهيابة الذى يفر من ساحات القتال ولا يلبى النداء.

الخيل والإبل

لقد إعتنى فتيان العرب بأجسامهم، فاكتملت قوتهم وعظم إحتماهم للخطوب والشدائد وتعودوا خوض المعارك والمحن، واستهانوا بالموت.

كل هذا جعل الشجاعة سمة مميزة لفتيان العرب، مما أدى بهم إلى أن يعنوا عناية خاصة بأدوات الظفر والقتال، وأول هذه الأدوات — بعد القوة الجسمية — جواد أصيل، مدرب على أن يكون هادئاً وسط المعركة، يكر بصاحبه، ولا يفر أو يرتد عن المعركة إلا إذا كان هناك ضرورة لذلك.

ولا جدال أن المطايا من لوازم العربى — بصفة عامة — فى حياته البدوية لأن معاشه غير مستقر، ومورد رزقه غير ثابت كما يألف أهل المدن أو أصحاب المهن الزراعية، وإنما هو شخص متنقل دائم السعى وراء موارد الماء بحثاً عن الكلاء. ولذلك لم يكن الشخص الذى يملك ناقة، أو فرساً يعد غنياً أو خارجاً عن نطاق الفقراء والمحتاجين، لأن الناقة الواحدة أو الفرس ليست ثروة بالمعنى

المفهوم، وإنما هي أداة تنقل وسعى للرزق، وكأنها جزء من حياته في المجتمع العربي القديم. (٢٤)

ولما كانت الابل تستخدم في التنقل والترحال، فإن الخيل كثر إستخدامها في الحروب والمعارك، لذلك نجد أن فتيان العرب إعتزوا بالخيل وعرفوا لها منزلتها، وعدوها بمنزلة أولادهم، وكان يهنئ بعضهم بعضا إذا ولدت فرس ويحتفلون بمقدم المهر المولود إحتفالاً يدل على عظيم مكانتها في قلوبهم.

ليس هذا فحسب بل فضلها بعضهم على أولاده، يجوعون ولا تجوع ولا بدع فهي التي تحمي الأسرة، وتجلب الرزق، وبها يدافع رب الأسرة عن عياله. (٢٥)

لهذا نجد الشعر العربي زاخرا بوصف الخيل، ومدحها، والتغنى بقوتها وسرعتها في العدو والجرى، سواء أكان هذا الأمر أثناء الصيد أو في ساحة القتال. وفي هذا الصدد يقول شاعرهم :

رما الصيد فرادينا بـهـ

أو أبد الوحش فأجرى وإكتسب
مجزم الجرب يبارى ظله

ويعرق الاحقب في شوط الخيب
إذا تظنينا به صدقـا

وإن تظنى فوته العير كذب
لا يبلغ الجهد به راكبـه

و يبلغ الريح به حيث طلب (٢٦)

وأبو خراش الهزلى مع ما عرف به من سرعة العدو، حتى قيل عنه أنه أسرع من الخيل، إذ تراهن مع الوليد بن المغيرة على فرسين كان الوليد يعدهما للسباق، فسبقهما — أبو خراش — وفاز بهما (٢٩). نجده على الرغم من ذلك يصف خيلاً مغيرة، وصفا قلما يتاح لشاعر، وذلك فى قصة رجل من قومه بنى هزيل — قتل جارا له من بنى تميم، فأنكر أبو خراش ذلك إنكاراً شديداً.

فصور أبو خراش فى هذا الشعر أن الغلام التميمى حين أحس الغدر والموت دعا قومه، ولكن بينه وبين قومه ودياناً وأنهاراً، ولو سمعوا دعاءه لأقبلوا إليه على خيلهم فى أقص عجلة وسرعة متصورة، يلهبون خيلهم بالسياط والركل بالاقدام. وفى هذا السياق يصف أبو خراش الخيل بوصفين يصوران أقصى ما يتاح لشاعر أن يصوره من خيل فى مثل تلك الحالة وهما : إن الناظر إلى الخيل حينئذ يراها فاغرة أفواهها، ويرى أحداق أعينها فى وضع غير عادى كأنه الحول فيقول :

دعا قومه لما إستحل حرامه

ومن دونهم عرض الاعقة فالرمل

ولو سمعوا منهم دعاء يروعهم

إذا لأتته الخيل أعينها قبل

شواحي يمرهين بالقوم والقتا

قروع السياط والأعنة والركل (٣٠)

وهكذا يتضح لنا أن ركوب الخيل يعد من أفضل وأهم خصال

الفتوة بمعناها المادى، وذلك لعدة أسباب نذكر منها :

أولاً: أن ركوب الخيل أصل الفتوة — المادية — وقاعدتها
 ثانياً : أن ركوب الخيل يعلم الكر، والفر، والظفر بالخصم
 ثالثاً : ان الحاجة إلى المبارزة بالسيف، أو الرمي بالرمح
 والقوس يحتاجها الفتى في ساعة، وأما ركوب الخيل فالحاجة إليه من
 أول ما يخرج الفتى إلى القتال إلى أن يرجع (٣١)
 وإذا كانت الخيل هي المطية التي تستخدم في ساحات المعارك
 والقتال بالإضافة إلى استخدامها — أيضاً — في القنص والصيد. فإن
 الابل هي الاداة الطبيعية للسير في الصحراء بما هيأها الله لذلك. ولهذا
 كثير إستخدامها في التنقل والترحال وسفر القوافل التجارية من بلد إلى
 آخر.

ولذلك وصفت الابل بالسرعة، والقوة، والصبر، فنجد، عبدة بن
 الطيب يصف ناقته بأز: طرف خفها يترك في الأرض أثراً كأنه الازميل
 يقطع الجلد وهذا دليل على القوة، والضخامة، وأنها مع سرعتها تجد لها
 نقداً وترجيحاً كأنه الدلال، وأن الحصى يتطاير حول خفيها كأنها
 غربالان ينقيان الوغل الرديء. يقول :

عيهمة ينتحى في الأرض منسمها
 كما إنتحى في أديم الصرف أزميل
 تخذى به قدما طورا وترجعـه
 فحده من ولاف القبض مقلول
 ترى الحص مشفراً عن مناسمها
 كما تجلجل بالوغل الغرابيل (٣٢)

ولأهمية الأبل ومكانتها في حياة العرب لا نستطيع أن نخفل موقف عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما إستولى أبرهة على مائتي بعير له، وهو في طريقه إلى مكة عندما سولت له نفسه محاولة هدم الكعبة، فرفض عبد المطلب أن يترك الأبل في حوزة أبرهة، وذهب إلى مقابلته لاستردادها. ولما وصل عبد المطلب إلى معسكر أبرهة، أكرمه وسأله عن حاجته. فقال : حاجتي أن ترد علي مائتي بعير أصبتها لي. فقال أبرهة : أتكلمني عن مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟ قال له عبد المطلب : إني أنا رب الأبل، وإن للبيت ربا سيمنعه ويحميه، فرد أبرهة على عبد المطلب الأبل(٣٣).

وهكذا نكون قد ألقينا بصيصا من الضوء على أهمية الخيل والأبل في حياة فتيان العرب، بصفة خاصة، والمجتمع العربي بصفة عامة.

وقد رأينا مدى الأهمية والمكانة التي تحتلها هذه المطايا في نفس العربي، إذ هي وسيلته إلى الحياة وطلب الرزق، وذلك إذا ما استخدمت في الصيد والقنص، أو استخدمت في التنقل والترحال وحمل تجارة القوافل.

كذلك هي وسيلة فتيان العرب إلى المجد والبطولة، والوصول إلى مراتب السيادة والشرف في القبيلة، إذا ما استخدمت في ساحات القتال ونجدة الملهوف ومعاونة المحتاج. إلا أن الخيل أو الأبل وحدها لا تكفي لخوض الحروب والمعارك، إنما لابد من السلاح الذي يستخدم في القتال.

السلام

إذا كان حمل السلاح شيمة العربى، يرى سلاحه جزءا منه لا يفارقه فى سلم أو غيره، فهو ملازم له فى كل أوقاته. فمن باب أولى أن يعتنى فتيانهم بحمل السلاح، الذى يعتبر عدة الغلبة والظفر بعد شجاعته وقوته الجسمية ومرانه على إحتمال الشدائد، وبعد جواده الأصيل المدرب على خوض المعارك.

ويحدثنا زهير بن جناب عن الأسلحة التى يستخدمها الفتى فى المعركة. يقول :

سيوف وإرماع بأيدي اعزة

وموضونة مما أفاد محرق (٣٤)

وإذا كان زهير بن جناب جعل سلاحه وعدة الحرب التى يستخدمها تتمثل فى السيوف والرماع تقبض عليها أيد قوية لا تضعف ولا تلين. فإن الشنفرى قد زاد إلى ذلك القوس والسهم. إذ يقول :

وأبيض من ماء الحديد مهند

مجد لأطراف السواعد مقطف

وصفراء من نبع أبى ظهيرة

ترن كارنان الشجى وتهتف

إذا طال فيها النزع تأبى بعجسها

وترمى بذرونها بهن فتقذف

كان حفيف النبل من فوق عجسها

عواذب نحل اخطأ الغار مطنف (٣٥)

وفى حديث الشنفرى عن القوس نجد معنيين سيطرا على حديثه أحدهما : اللون، فنجد أنه يصفها بصفرة اللون، وهو اللون الأصيل فى القوس والمعنى الآخر : الصوت الذى تحدثه القوس حين ينطلق عنها السهم، أو صوتها مع صوت السهم فى إنطلاقه وإندفاعه الشديد فى الفضاء(٣٦)

والشنفرى حينما أراد أن يصور لنا هذه الصورة شبه الصوت الذى تحدثه القوس بصوت النحل حين يخطئ غارة وخلاياها فتنتابه نوبة من الدوى القوى العميق.

أما صخر الغى فيرى لقوسه رنيناً خاصاً مغرداً فى بحة ودوى كأنه صوت العدائين حين يطلبون شيئاً فيتجاوب صدى تناديههم. يقول :
وسمحة من قس زارة صفراء

هتوف عدادها فـرد

كان أرناثها إذا ردمت

هزم بغاة فى أثر ما فقدوا(٣٧)

وإذا كان السيف والقوس من عدة القتال فإن الرمح — أيضاً — يعد من الأسلحة التى يغلب استخدامها فى الحروب. يقول تأبط شرا :
فقلدت سوار بن عمرو بن مالك

بأسمر جسر القذتين طميل

فخر كأن الفيل القى جرانه

عليه بريان القواء أسيل(٣٨)

أى أنه القى على سوار بن عمرو، رمحا ضخماً عريض النصل فأوقعه لا حراك فيه، كأن الفيل انحى عليه بعنقه فوق الأرض، وإن

هذه الأرض فقراء ملساء مخضلة بالماء، وكل هذه الصفات مما يزيد التصاقه بالأرض، بل غوصه فيها نتيجة قوة الضربة بهذا الرمح الأسمر الضخم العريض.

بالإضافة إلى استخدام الرمح في الحروب فإنه يستعمل أيضا في القنص والصيد، وجدير بالذكر أن الصيد من الضروريات في حياة العرب لطعامهم ومعاشهم، ولذلك نجد صخر الغي يصف الرمح في سباق صيد حمارى وحشى فيقول :

فشامت في صد ورهما رماحا

من الخطى أشربت السماما (٣٩)

وإذا كان الفتى العربى يحتاج إلى السلاح فإنه بالتالى محتاج إلى وسائل الحماية والوقاية في الحرب، ويعتبر الدرع من أهم هذه الوسائل.

فاستلاموا وتلببوا

إن التلبب للمغير (٤٠)

أى أن الفتيان لبسوا اللامات وهى الدروع، وتحزموا وإستعدوا للإغارة على أعدائهم. والدروع تعطى الحماية والوقاية للفتى من ضربات السيوف أثناء المعركة وكان فتیان العرب يفضلونها عن الترس، وذلك لأن الدروع تجعل الفتى أسرع حركة فى ميدان القتال. وهكذا نجد أن العرب عامة، وفتيانهم خاصة، يعنون بالسلاح ويحبون اقتنائه، ولا عجب فإنهم فى بيئة تقدر السلاح ومنفعته فضلا عن أنه عدتهم فى الحروب، فإنه جد ضرورى لهم فى الصيد.

وللصيد فى جزيرة العرب منزلته. فكثيرا ما يحتاجون إليه
لغذائهم، بل أن منهم من يعتمد عليه فى معيشته، يصطادون الطباء
وحمر الوحش، والوعول البرية وبقر الوحش وغيرها.
ولكن جمهرة فتيان العرب يؤثرون السيوف على ما سواها،
ويعدونها أفضل أسلحتهم، بل منهم من يجعل السيف هو كل ما يملك :
وكيف ينام الليل من جل ماله

حسام كلون الملح أبيض صارم
صموت إذا عض الكريهة لا يدع
لها طمعا طوع اليمين ملازم
فقدت به ألفا وسامحت دونـه

على النقد إذ لا تستطاع الدراهم (٤١)

وهنا نجد أن الفتى يذكر أن كل ما يملك من حطام الدنيا ما هو
إلا سيفه الأبيض الصارم، وإن هذا السيف صامتا لا يتكلم، وعندما
يخوض به الحروب والمعارك يجده طوع يمينه ملازما له. ويتفاخر
الفتى بأنه دفع ألف درهم ثمنا لهذا السيف عن سماحة نفس فى وقت
قلت فيه الدراهم.

ومما يدل على محبة فتيان العرب للسيف كثرة الأسماء الدالة
عليه حتى قاربت المائة إسم، وكانت هذه الأسماء صفات، والصفات
تكثر للشئ حين تزيد العناية به، والتغنى بمحامده وآثاره (٤٢).

وإذا ما تحدثنا عن صفات السيف لوجدنا أنها تنحصر فى
معنيين: أحدهما اللون والمعنى الآخر، مدى فاعلية السيف عند الاستخدام
فى الحروب والمعارك.

وفى هذا الصدد يقول الشنفرى :

وابيض من ماء الحديد مهند

مجد لأطراف السواعد مقطف (٤٣)

وفى موضع آخر يقول :

حسام كلون الملح صاف حديده

جراز من اقطار الحديد المنعت (٤٤)

وهنا يصف الشنفرى سيفه بأن لونه أبيض كلون الملح، وبأنه صنع من ذوب الحديد الصلب. وأن هذا السيف بتار يقطف به سواعد الأعداء إذا ما لزم الأمر عند القتال.

ولقد بالغ فتيان العرب فى إمتداح سيوفهم، فوصفوها بالحدة، وقوة المضاء والقطع فقال النابغة :

فهم يتساقون المنية بينهم

بأيديهم بيض رقاق المضارب

يطير فضاضا بينها كل قونس

ويتبعها منهم فراش الحواجب (٤٥)

فالسيف فى حدثها وقوة ضرباتهم بها تطير العظام الرقيقة للجمجمة، وليس ذلك فحسب بل أنها تقطع الدروع المضاعفة النسيج، لتتفد من بدن العدو حتى تصل إلى الأرض فتقذح الشرور من الحجارة.

ومن الغريب أن السيوف إذا لمعت وبرقت فى المعركة فإنها

تذكرهم بابتسامة الحبيبة كما قال عنتره :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل

منى وبيض المهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها

لمعت كبارق ثغرك المتبسّم (٤٦)

وهكذا نكون قد إنتهينا إلى أن القوى المادية للفتوة عند فتیان العرب، تمثلت فى الشجاعة بمعناها المادى المتمثل فى القوة البدنية وسرعة البطش بالأعداء، وما تتطلب هذه الشجاعة من فرس أصيل مدرب على الكر والفر فى ساحات القتال، بالإضافة إلى عدة حربية متمثلة فى سيف مهند بتار، ورمح أسمر طويل عريض النصل، وقوس بلونها الأصفر الاصيل تصدر صوتا محببا للفتى حين ينطلق عنها السهم مندفعاً بشدة فى الفضاء.

إلا أن الفتوة لم تقف عند حد المعنى المادى أو بالأحرى القوى المادية فحسب، وإنما للفتوة معنى آخر، وهو القوى المعنوية للفتوة، الذى يتمثل فى الكرم، والنجدة، والوفاء، وإيواء الضيف.... إلى غير ذلك من الخصال الحميدة.

القوى المعنوية للفتوة

الكرم

إذا أردنا أن نعرف الكرم لأمكن القول : إن الكرم يعنى الإنفاق عن رضا، فيما يعظم نفعه وخطره، أو بذل المال فى سبيل من سبيل الخير والبر(٤٧).

ولكن هل لنا أن نعتبر هذا التعريف للكرم جامعا شاملا — على حد قول المنطقة حقيقة الأمر إن هذا التعريف قد حصر الكرم فى معنى الإنفاق، أو بذل المال إلا أنه قد غفل عن الدافع إلى الكرم، أو بالأحرى، لم يذكر التعريف، ما هى العوامل التى ساعدت على أن يشتهر العرب بالكرم دون غيرهم؟ كذلك نريد أن نتسائل ما هى الغاية التى يسعى إليها الفتى العربى، وتجعله سخي كريم يجود بماله لمنفعة الآخرين؟

لا جدال على أن الكرم يعد من أبرز الصفات التى يتحلى بها الفتى، بل إن كثيرا ممن عرفوا الفتى عند العرب قالوا : إنه الشاب السخي الكريم، والفتوة هى الشباب والكرم(٤٨).

وإذا ما نظرنا إلى الدافع الذى دفع فتيان العرب إلى الجود والكرم، نجد أن هذا الدافع يتمثل فى طبيعة الحياة التى كان يحياها العرب فى الصحراء. إذ أنهم كانوا يعيشون فى صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا ماء — اللهم إلا ما ندر — وإزاء هذا كان العربى مضطر دوما إلى الارتحال من مكان إلى آخر بحثا عن منابع الماء ومصادر الكلاء، بسبب الجذب والجفاف، ليحفظوا حياتهم من الموت والهلاك، ومن هنا

كانت حياتهم ترحالاً، وتجوّالاً في هذه البادية الشحيحة المجبدة، وكان كل واحد منهم معرضاً لأن ينفذ زاده وشرابه أثناء الترحال.

وهذا هو الذي ولد لديهم الشعور بالحاجة إلى واجب مقدس، هو واجب الضيافة والكرم، وكان هذا الخلق شيئاً عاماً ولدته الطبيعة. وصار الإخلال به فضيحة وعار ونوعاً من الجريمة الأخلاقية، التي تتنافى مع الخلق العربي الأصيل (٤٩).

ويعتبر الكرم من الصفات التي ترشح صاحبها للسيادة والرئاسة وذلك لأن طبيعة الحياة في الصحراء - كما ذكرنا - فيها قسوة بالغة على قاطنيها، فكثيراً ما تشح السماء، وتجذب الأرض، ويلوح شبح الفاقة والجوع في بعض أنحاء الجزيرة العربية، فإن لم يتقدم من عنده فضل من غنى أو زاد لإنقاذ حياة سكان تلك البقاع المجبدة هلكوا جوعاً. فكان العرب بتعظيمهم الكريم وتقديمهم للاسخياء للرئاسة إنما يعملون بذلك على حفظ حياتهم في فناء محقق.

مما سبق يمكن القول إن الغاية من الكرم عند العرب إنما هي السيادة والرئاسة، وأن يكون الكريم محمود السيرة في قومه ويذكر بذلك.

فقد قال عدى بن حاتم الطائي للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أباي كان يطعم المساكين، ويعتق الرقاب، ويصل الرحم فهل له من ذلك أجر؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن أباك رام أمراً فأدركه". (٥٠) [يعني الذكر والشهرة والسيادة في قومه].

وتأكيداً لهذه الغاية التي كان يسعى إليها كرام العرب، وفتيانهم، فقد ذكر إن أول ما ظهر من جود حاتم الطائي، أن أباه خلفه في إبله وهو غلام، فمر به جماعة في طريقهم إلى النعمان، فقالوا لحاتم: هل من قرى؟ فقال :

تسألوني القرى وقد رأيتم الأبل، انزلوا، فنزلوا فنحر لهم وأطعمهم وأكرمهم وجاء أبوه فقال له : ما فعلت؟ قال : طوقتك مجد الدهر تطويق الحمامة، وأخبره بخبر ضيوفه وإكرامهم فقال أبوه : إذاً لا أبالي (٥١).

وهكذا يتضح لنا من هذا الموقف أن الغاية التي سعى إليها حاتم الطائي من إطعام ضيوفه، وإكرام وفادتهم، إنما مجد أبوه وشهرته ورياسته لقومه وهذا المجد يعود عليه هو الآخر، بل يعود على القبيلة بأسرها إذ تفتخر القبائل بأن فيها فتيان كرام.

وإذا كان الكرم قد أصبح عادة تأصلت في نفس العربي، فقد كان المحرك الأول، والدافع الأساسي لهذا الكرم، هو غريزة التغلب على الحياة ومقاومة قسوتها، ومد يد العون للمحتاجين ومساعدتهم.

فها هي أم عتب بنت عفيف (أم حاتم الطائي) تمد يد العون لأصحاب الحاجات فقد كانت موسرة ذات مال وثرء، لا تمسك شيئاً، وكان أخواتها يمنعونها فتأبى فحجروا عليها سنة يطعمونها، لعلها تكف عما تصنع، ثم مكنوها من صرمة من إبلها. وقالوا : إستمعى بها. فأنتها امرأة من هوازن فسألتها. فقالت : دونك الصرمة، فقد والله ذقت من الفقر ما ألئت أن لا أمنع سائلاً أبداً. وأنشدت تقول : (٥٢)

لعمرك قد ماعضنى الجوع عضه

فأليت ألا أمنع الدهر جائعا

فقلوا لهذا اللامى اليوم أعفنى

وإن أنت لم تفعل فعض الأصبع

ثم إن الكرم دليل الحرية الخلقية، والحرية الخلقية هى إرادة
الفتى الذى وجود بماله فى سبيل إسعاد غيره من الناس، كما فعل النمر
بن تولى، عندما ذهب إلى صديق له فى ناس من قومه يسألونه فى دية
إحتملوها فلما رأهم قال : إن لى نفسا تأمرتى أن أعطيكم، ونفسا
تأمرنى ألا أفعل فقال النمر بن تولى :

أمال خليلى فأنى غير معجله

حتى يؤامر نفسه كما زعم

نفس له من نفوس الناس صالحة

تعطى الجزيل ونفس ترضح الغنما

ثم قال - النمر - لأحابه - لا تسألوا أحدا ، فالدية كلها
على. (٥٣)

بالإضافة إلى هذا يذكر صاحب الأغاني مثلا من كرم النمر بن
تولى، فيقول : خرج النمر بن تولى بعد ما كبر فى إبله، فسأله سائل،
فأعطاه فحل إبله، فلما رجعت الإبل إذا فحلها ليس فيها، فهتفت به
إمرأته، ولا مته على ذلك فقال لها :

بكرت باللوم تلحانا

فى بغير ضل أو حانا

علقت لوا تكررهما

إن لوا ذلك أعيانا (٥٤)

ومن أمثلة الكرم النادرة في الجاهلية الجود بالمال في سبيل إنقاذ البنات من الميراث. فها هو صعصعة* وكان يلقب بعصصعة محي المؤودات.

وذلك لأنه مر برجل من قومه، وهو يحفر بئرا، وإمرأته تبكي، فقل لها صعصعة: ما يبكيك؟ قالت: يريد أن يئد إبنتي هذه. فقال له: ما حملك على هذا؟ قال الرجل: الفقر. قال صعصعة: فأني أشتريها منك بناقتين يتبعهما أولادهما يعيشون بألبانها، ولا تئد الصبية. قال: قد فعلت. فأعطاه صعصعة الناقتين، وجملا كان تحته فحلا، وقال في نفسه: إن هذا لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب، فجعل على نفسه ألا يسمع بمؤودة إلا فداها (٥).

وقد فخر بذلك الفرزدق في عدة قصائد منش عره، ومنها قصيدته التي أولها:

أبى أحد الغيثين صعصعة الذي

متى تخلف الجوزاء والدلو يطر

أجار بنات الوائدتين ومن يجر

على الفقر يعلم أنه غير مخفر (٥٦)

وفي هذه الأبيات إشارة بكرم صعصعة، فيذكر الفرزدق أن هناك غيثا في السماء، وغيثا في الأرض، فغيث السماء مطر، وغيث الأرض جده - أبوه - "صعصعة"، وأن جده خير الغيثين، فإنه لا يخلف إذا خلفت بروج السماء، وأنه غير ناقض للعهد كريم اليد يفتدي بماله - على الرغم من قلته - المؤودات.

وهكذا نجد أن الكرم عند فتيان العرب لم يكن سفها، أو إسرافا، أو تبذيرا وإنما هو البذل والعطاء والجود فى الوقت الملائم، للشخص المحتاج إليه، فى الظرف المناسب (٥٧) بل يمكن القول أنه ليس المال فى ذاته غرضا يهدفون إليه إذا لم يعين صاحبه على الكرم، وإغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج وكسب الحمد والثناء، وإتقاء المذمة، وحماية للفتى من أن يصفه الناس بالبخل والشح. وفى هذا الصدد يقول زهير بن السكب مشيدا بالفتيان الكرام :

ونعم الحماة الكفاة العظيم

إذا غائظ الأمر لم يحلل

هم سبقوا يوم جرى الكرام

ذوى السبق فى الزمن الأول

وساقوا إلى المجد أهل الفعال

فطالوا بفعلهم الا طول (٥٨)

وبلغ من شدة كرم فتيان العرب، ان بعضهم كان ينصب الجفان الواسعة فى عرض الطريق، ويملؤها طعاما طيبا ليأكل منها الناس، وكان عبد الله بن جدعان التيمى يفعل ذلك. وكان لعبد الله جفنة واسعة يأكل منها القائم والراكب لعظمها، بل كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير، وسقط فيها يوما صبى فغرق ومات. (٥٩)

ومما لا ريب فيه أنه يطول بنا المقام إذا ما أردنا الاستشهاد بكل الأمثلة الدالة على الكرم عند العرب ذلك لأن كتب الأدب زاخرة بالأخبار والأشعار التى تدل على الكرم والعطاء، رغم الحاجة الشديدة. فقصه حاتم الطائي وذبح فرسه رغم حاجته، وحاجة أولاده الجياع.

وكذلك موقف الحطيئة — وهو ما هو من الجفوة والقسوة — حينما هم بذبح إبنه إكراما لضيوفه، وإمتثال الابن بل والاشارة على أبيه بذلك. وعروة بن الورد الذى كان يضرب به المثل فى الجود والكرم بكل ما عنده حتى أنه يفرق طعامه على الآخرين ويكتفى هو بالماء، كل هذا يدل على كرم العرب وفتوتهم.

ذلك الكرم الذى يعد بمثابة قانون فرضته عليهم طبيعة الصحراء القاسية المجربة ولكنه أصبح فضيلة من الفضائل السامية التى تصل بأصحابها إلى الفتوة الكاملة. ولم لا وهذا الكرم ليس سفها أو إسرافا أو تذبذبا، وإنما هو بذل وعطاء فى الوقت الملائم، للشخص المحتاج إليه. وقد كان هؤلاء المحتاجون يسجلون هذا الكرم الذى يخلد أصحابه ويرفعهم إلى مرتبة السيادة والرئاسة، ويعلى منزلتهم. كذلك لم يسلم البخيل من المذمة، لأنه خرج على القانون الفطرى الذى فيه نجاتهم وحياتهم من قسوة الحياة، فإذا شح الأغنياء فمن يكون للفقراء من الأرامل واليتامى والمساكين الذين عضهم الدهر بأنيابهم؟!

النجدة

إذا كان الكرم يعد سمة أساسية من سمات الفتوة عند العرب، وهذا الكرم قد فرضته الحياة فى الصحراء بقسوتها، ووحشتها، وجذبها.

فإنه مما لا ريب فيه هناك سمات أخرى، وخصال حميدة تحلى بها فتيان العرب إلى جانب الكرم، أهمها النجدة، التى تتمثل فى إغاثة الملهوف، وبذل العون، وحماية الضعيف وتلبية دعوة المكروبين. وإذا

بحثنا عن الدافع أو المحرك وراء هذه السمات أو الفضائل. لأمكن القول : أن غريزة البقاء، ومقاومة قسوة الحياة الصحراوية بجذبها، ووحشتها هي العامل الأول والمحرك الأساسي وراء هذه الفضائل. فالنجدة فضيلة تتطلب من الفتى أن يتصف بخصال أو صفات أخرى حميدة من صفات الفتوة الأخرى، كالشجاعة، والكرم، والوفاء.... والنجدة سمة ترقى بالإنسان إلى أعلى مراتب الإنسانية الحقّة، والفتوة الكاملة.

ذلك لأن من يتعرض لنصرة المظلوم وإنصافه ضد الظالم، وإغاثة الملهوف والمكروب، والانتقام من القوى للضعيف، ومد يد المساعدة للحق المفترى عليه، ينصب نفسه، بطلاً أو بالأحرى ترفعه نجلته - للغير - إلى منزلة البطولة وتجعله بطلاً من أبطال الخير ضد الشر، وفي هذا كرم وسخاء دونه كل كرم، وكل سخاء ونكران للذات دونه كل نكران (٦٠)

وكثيراً ما شبت الحروب والمعارك بين القبائل لأن جار القبيلة قد أهين أو أعتدى عليه، وخير مثال أمامنا في هذا الصدد، حرب البسوس.

فقد كان لجساس بن مرة بن ذهل، خالة من بنى سعد تسمى البسوس جاورت بنى مرة، فنزلت على ابن أختها جساس، فصارت في جواره وحمايته ومعها ابن لها، ولها ناقة. فدخلت الناقة ترعى مع إبل كليب الوائلي، الذي بغى وطغى وتجبر، وقد بلغ من سطوته وجبروته ألا يجبر أحد من بكر وتغلب إلا بأذنه فلما رأى كليب الناقة وسط إبله، أنكرها، فسأل عنها فأخبروه بأنها للبسوس جارة جساس فقال

كليب : أوقد بلغ من أمر إبن السعدية أن يجبر على بغير إذننى وأمر
بقتل الناقة.

فلما نظرت إليها البسوس ووجدتها قد قتلت صرخت ويدها على
رأسها وهى تصيح "واذلاه". فلما سمع حساس الخبر ثار وغضب لأن
جارته وخالته اذلت، وقتل كليبا وكان هذا الأمر سببا فى حرب طاحنة
ظالت مشتعلة أمدا طويلا، وقتل فيها خلق كثير (٦١).

وقد أعز العرب حلفاءهم والداخلين فى جوارهم، وكان حلف
الفضول أكرم حلف وأشرفه فى العرب، وإن أول من تكلم به ودعا إليه
"الزبير بن عبد المطلب" وكان سبب هذا الحلف أن رجلا من زبيد قدم
مكة ببضاعة، فاشتراها منه، "العاصى بن وائل"، وكان ذا قدر بمكة
وشرف، فحبس عنه حقه فاستعدى عليه الزبيرى القبائل : عبد الدار،
ومخزوما، وعدى بن كعب.... فأبوا أن يعينوه على العاصى بن وائل،
وإنتهروه، فلما رأى الزبيرى الشر قد أحاط به، صعد على جبل "ابى
قيس" وقريش فى انديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته:
يا آل فهر لمظلوم بضاعته

ببطن مكة نائى الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقضى عمرته

يالرجل وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمت كرامته

ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب، ودعا القبائل من قريش إلى
حلف فأجتمعوا له فى دار عبد الله بن جدعان، فتعاقدوا وتعاهدوا، على

أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلّمته، ثم مشوا إلى العاصي بن وائل، فأنزعوا منه سلعة الزبيرى فدفعوها إليه. (٦٢)
وروى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : "لقد شهدت فى دار — عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت فى الاسلام لأجبت، تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها" (٦٣).

بالإضافة إلى ما سبق فقد بلغ من منزلة الجار الحليف لدى بعض القبائل أنه كان يعد من الأهل، وكانوا يذهبون بالجوار إلى ما بعد الموت. كما فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين إستجار به، فقال له : أتجيرتى من الأنس والجن؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية. قال : الآن علمت أنك قد أجزتتى من الموت (٦٤).

ومن مظاهر النجدة، وحماية الضعيف، وتلبية المكروبين دون تردد أو سؤال، فكانوا إذا سمعوا الاستغاثة نهضوا للنجدة لساعتهم. وما استحق عنثرة هذه المكانة المرموقة التى وصل إليها، إلا بهذه الفضيلة "النجدة" فهو يلبى دعوة من يناديه فى الحرب، ويجيب صرخة المستغيث ويدفع عنه الأعداء برمح الأسمر الطويل، وسيفه الأبيض البتار.

ومكروب كشفت الكرب عنه

بضربه فيصل لما دعانى

فكأن إجابتى إياه أنى

عطفت عليه خوار العنان

بأسمر من رماح الخطر لان

وابيض صارم ذكر يمان (٦٥)

ومن حماية الضعيف، فك العانى، الذى أسر فى الحرب، وقد يكون ذلك عن طريق المغامرة فى سبيل إنقاذه عنوة، أو عن طريق الفداء. فهذا هو أبو خراش الهزلى يترك ابنه رهينة فى سبيل إنقاذ أخاه عروة من الأسر.

فقد روى صاحب الأغاني أن عروة بن مرة، أخا أبى خراش وقع فى الأسر فلما دخلت الأشهر الحرم، مضى أبو خراش إلى القبيلة التى أسرت عروة، ومعه ابنه خراش، فنزل بسيد من ساداتهم، ولم يعرفه نفسه، ولكنه استضافه فأنزله وأحسن ضيافته وإكرامه.

فلما إطمئن إليه وأنس به، أخبره خبر أخيه، وسأله معاونته حتى يشتريه منهم، فوعده بذلك، وذهب إلى القوم مع ذلك السيد الكريم فسألهم فى الأسير فقال لهم : أشتريه منكم. فقالوا : أما هذا فنعم. فلم يزل يساومهم حتى رضوا بما بذله لهم، فدفع أبو خراش إليهم ابنه خراشا رهينة وأطلق أخاه عروة ومضيا، حتى أخذ أبو خراش فكاك أخيه، وعاد به إلى القوم حتى أعطاهم إياه وأخذ ابنه (٦٦).

ومن مظاهر النجدة وحماية الضعيف، الدفاع عن المرأة، وهذا أول شروط الرجولة الحقّة والفتوة التامة والدفاع عن المرأة - فضلا عن أنه دفاع عن مخلوق ضعيف - دفاع عن العرض والشرف، وهو أعظم ما يهتم به العربى.

إذ يروى أن من الأسباب التى أدت إلى حرب الفجار، أن شبابا من قريش وبنى كنانة، كانوا ذوى غرام، فرأوا امرأة من بنى عامر، وهى جالسة بسوق عكاظ عليها برقع لها، وقد إلتف حولها شباب من العرب وهى تحدثهم فجاء الشباب من قريش وبنى كنانة، فأطافوا بها

وسألوها أن تسفر عن وجهها فأبّت، فقام أحدهم، فجلس خلفها، وحل طرف ردائها وشده إلى فوق وهي لا تعلم.... فلما قامت سقط عنها ردائها، فضحكوا وسخروا منها.... فنادت : يا آل عامر فثاروا وحملوا السلاح، وحملته كنانة، وإقتتلوا قتالا شديدا، ووقعت بينهم دماء، فتواسط حرب بن أمية وإحتمل دماء القوم، وأرض بنى عامر نتيجة لما حدث لصاحبتهم من سخرية وإستهزاء بها(٦٧)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الذى يدافع عن النساء والأعراض يسمى "حامى الذمار" وحماية الذمار خير ما يفخر به الفتى العربى ليصون عرضه ويحمى عقيلته(٦٨) إلا أن الحماية الحقيقية للمرأة، إنما تتبع من عفتها ومنعتها وفى هذا الصدد يقول علقمة بن عبدة بن النعمان، يصور هذه الخصال العظيمة :

ممنعة ما استطاع كلامها

على بابها من أن تزار رقيب

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره

وترض إياب البعل حين يؤوب(٦٩)

فهى امرأة ممنعة عفيفة لا سبيل حتى إلى محادثتها، وليس ذلك لأن على بابها رقيب وإنما لأن العفة طبيعة فيها، وهى أيضا كريمة أصيلة لا تبوح بسر زوجها الغائب.

ولم تكن هذه أخلاق النساء دون الرجال، وإنما كان الرجال كذلك، صحيح أن العرب لم يكونوا كلهم على هذا النمط، وإنما الغالبية العظمى أو بالأحرى الطبيعة العربية فى فتوتها كانت هكذا تتحلى بالطهر والنقاء وما عداها فشاذ.

وفى هذا الصدد يقول حاتم الطائي مفتخرا بعفته وإحترامه لحرمان
جاره :

وما ضر جاراً يا إبنة القوم فاعلمى
يجاورنى ألا يكون له ستر
يعنى عن جارات قومي غفلة
وفى السمع منى عن حديثهم وقر (٧٠)

وهى هذا المعنى يقول عنثرة :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى

حتى يوارى جارتى مأواها

وهكذا نجد أن العفة أكبر دليل على ما تتمتع به نفوس هؤلاء
الفتيان من مناعة طبيعية، وقهر للنفس، وإخضاع الغرائز لحكمة
العقل، وفى ذلك فتوة ما بعدها فتوة، لأن ذلك يتطلب من الفتى شجاعة،
وصلابة وقوة إرادة، وتضحية بنزوات، ورغبات فيها لذات عاجلة
وسمو بهذه الغرائز إلى المجد والسؤدد والشرف.

ويبقى أمامنا أن نذكر إن النجدة وحدها على الرغم من كونها
صفة طيبة، وخصلة حميدة، يتحلى بها فتیان العرب إلا أنه لابد من
إكتمالها وذلك بالالتزام بالوعد والوفاء بالعهد.

الوفاء بالوعد

إذا كان الكرم والنجدة وإغاثة الملهوف، وتلبية نداء المحتاج...
كل هذه وغيرها تعد من الصفات الحميدة للفتيان، فإنه من أجمل ما
يتحلى به الفتى العربى من صفات الوفاء بالوعد ذلك لأن الوفاء بالوعد

ليس قائما بذاته إنما هو يتصل إتصالا وثيقا بصفات عديدة أخرى مثل الكرم، والشجاعة، والنجدة.... إلى غير ذلك مما سبق لنا أن أوضحناه من سمات الفتيان.

وكثيرا ما يكون في الوفاء بالوعد ما يناقض مصلحة المرء الخاصة، أو منفعة الشخصية، فليس من الفضيلة أن يفي المرء بشيء فيه منفعة له، وفي إنجازهِ فائدة تعود عليه، بل أن الوفاء بالوعد يتطلب عادة أن يضحي المرء بوجهة نظره الخاصة، أو بمصلحته الذاتية، في سبيل ما سواه، بل قد يكلفه الوفاء بالوعد حياته نفسها.

ومن أغرب ما روى عن الإلتزام بكلمة الشرف، إلى حد يفوق الوفاء بالوعد تلك القصة التي رويت عن المنذر بن ماء السماء حينما مر به رجل من طيء يسمى "حنظلة" يوم يؤسه فأراد قتله، فاستشفعه الرجل أن يطلق سراحه فقال له : لا بد من ذلك — أى القتل — فاسأل حاجة اقضيها لك.

فقال : تؤجلنى سنة أرجع فيها إلى أهلى، وأحكم من أمرهم ما أريد، ثم أصير إليك، فأنفذ فى حكمك.

فقال المنذر : ومن يكفل بك حتى تعود؟ فنظر الرجل فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو، فأنشد يقول :

يا شريك يا بن عمرو

ما من الموت محاله

يا شريك يا بن عمرو

يا أخا من لا أخا له

يا أخا شيبان فك اليوم

رهننا قد أتى له (٧١)

فوثب شريك بن عمرو وقال : أبييت النعن، يدي بيده ودمي بدمه،
إن لم يعد إلى أجله. : طلقه المنذر.... فلما كان من العام التالي جلس
في مجلسه يوم يؤسه ينتظر مجئ حنظلة، فأبطى عليه، فأمر بشريك
بن عمرو فقرب ليقتله.

فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم، فتأملوه، فإذا هو حنظلة، قد
وفى بوعده وحضر إليهم، فلما رآه المنذر تعجب من وفائهما وكرمهما
فأطلقهما وأبطل تلك العادة السيئة (٧٢)

وفى هذه القصة نتساءل من أكثر وفاء وإلتزاما بالوعد، هل هو
شريك بن عمرو أم حنظلة الطائي؟

لا جدال أننا لا نستطيع أن نفاضل بينهما، إذ من يستطيع أن
يتحمل دم شخص آخر ويطلق سراحه، وهو يعلم علم اليقين، أنه إذا لم
يرجع سيلقى حتفه ويقتل بدلا منه.

ومن بعد أن يطلق سراحه، ويصبح حرا بعيدا عن الخطر
والهلاك، يلتزم بوعده الذي قطعه على نفسه، ويوفى بوعده، ويعود
ليقدم نفسه للقتل حتى لا يعرض من كفله للموت والهلاك.

إلا أننا نستخلص من هذه القصة درس من الوفاء، وكلمة
الشرف يجب علينا أن نلزم به أنفسنا في زمان يتصل فيه المرء من
ذويه، ولا يلتزم إلا بما يعود عليه بالمنفعة الشخصية والمصلحة الذاتية.
وإذا أعطى المرء وعدا، وكان رجلا جزلا كاملا الرجولة، كما
كان فتيان العرب فليس له أن يرجع فيه، أو يحيد عنه، أو يناقشه مرة
أخرى، بل إن صح القول قانون الفتوة يحكم عليه أن يمضى في
إنجازه، ولو ناقض فائدته وعاد عليه بالضرر (٧٣) كما هو الأمر في

موقف عبد الله بن جدعان من أسلحة هوازن. والقصة كما يرويها صاحب الأغاني تقول :

كانت العرب إذا قدمت عكاظ دفعت أسلحتها إلى ابن جدعان، حتى يفرغوا من سوقهم وحجهم، ثم يرد عليهم بعد ذلك. فجاء القوم وأخبروه خبر البراضى وقتله عروة الرجال الكلبى وأخبروا حرب بن أمية — إذ أن البراضى كان حليفا لحرب بن أمية وفى جواره — فذهب حرب إلى عبد الله بن جدعان وقال له :

إحتبس قبلك سلاح هوازن. فقال له ابن جدعان : أبأ لغير تأمرنى يا حرب؟ والله لو أعلم أنه لا يبقى منها سيف إلا ضربت به ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها شيئا، ولكن لكم مائه درع، ومائة رمح، ومائة سيف فى مالى تستعينون بها، ثم نادى ابن جدعان فى الناس : من كان له قبلى سلاح فليأت، وليأخذه، فأخذ الناس أسلحتهم (٧٤).

وإذا كان هذا موقف ابن جدعان بأبى الغدر ويلتزم بالوعد ويوفى بالعهد، فإنه قد بلغ من كراهية العرب لهؤلاء الذين يغدرون، وينتقضون المواثيق، ويوفون بالعهد أن يشهروا بهم. يقول الشاعر :

غدرت بأمر أنت كنت اجتذبتنا

عليه وشر الشيمة الغدر بالعهد

فقد يترك الغدر الفتى وطعامه

إذا هو أمسى حلبة من دم الغصص (٧٥)

وأحيانا تبلغ كلمة الشرف، والوعد الصادق الذى يلزم به المرء نفسه إلى ذروة الوفاء، مثلما حدث مع السموأل بن عريض بن عاديأ،

الذى يضرب به المثل فى الوفاء وأمرئ القيس الكندى، الذى استودعه
 دروعا له ثم مات، فأراد ملك كنده أن سيتولى على هذه الأدرع — فأبى
 السموأل أن يسلمها إلا إلى ورثة أمرئ القيس، فغزاه الملك وحاصره
 فتحصن منه السموأل ولكن الملك استطاع أن يأسر ابن السموأل، ثم
 طلب الملك السموأل فأشرف عليه من الحصن. ثم قال للسموأل :
 أتعرف هذا؟ قال : نعم، هذا إبنى. قال : أفتسلم ما قبلك أم أقتله؟ قال :
 شأنك به، فلست أخفر ذمتى ولا أسلم مال جارى، فضرب الملك وسط
 الغلام، فقتله وإنصرف عنه، فقال السموأل فى ذلك :

وفيت بأدرع الكندى إنسى

إذا ما ذم أقوام وفيت

وأوصى عاديا يوما بألا

تهدم يا سموأل ما بنيت

بنى لى عاديا حصنا حصينا

وماء كلما شئت استقيت (٧٦).

وهكذا نصل إلى أن الفتوة قبل الإسلام تمثلت، فيها بعض
 الصفات الحميدة كالكرم والنجدة، والوفاء بالوعد... وسائر الخصال
 الطيبة التى تعكس الرجولة العربية.

هذه الخصال أو الصفات التى كان مصدرها غريزة البقاء،
 ومقاومة قسوة الحياة الصحراوية بوحشتها وجديها، فالعرب يعيشون فى
 صحراء قاحلة يندر فيها الزرع والماء وكل منهم معرض للهلاك إذا
 هو ضل الطريق فى سفر أو ترحال لذلك كان لابد من توافر مثل هذه
 الخصال.

وكان العرب يهدفون من وراء فتوتهم إلى أهواء ذاتية ومصالح شخصية كالسيادة والرياسة في القبيلة، وقد تمتد هذه الغاية لتشمل القبيلة كلها إذ كثيرا ما يعود تصرف الفتى بالفخر والسيادة للقبيلة نفسها على سائر القبائل.

هذا بالإضافة إلى أن الفتوة قبل الإسلام إلى جانب هذه الخصال الحميدة قد احتوت على الكثير من الخصال الغير محمودة والتي ألغاهها الإسلام كشراب الخمر، وعقد مجالس اللهو والغناء.

ولهذا يجدر بنا أن نلقى نظرة على الفتوة في الإسلام لنرى كيف هذب الإسلام هذه الفتوة الجاهلية وصبها في قالب جديد يقوم على الإيمان ومكارم الأخلاق، والإعراض عن اللهو والمجون والإقبال على الطاعة والزهد والإخلاص.

هوامش الفصل الأول

- (١) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ١٤، ١٥
- (٢) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٦٣، ٦٤
- (٣) المرجع السابق : ص ١١٦
- (٤) الأصفهاني : الأغاني ج ٢٢ ص ١١٩
- (٥) أحمد أمين : الصعلكة والفتوة في الإسلام ص ١٤
- (٦) القاموس المحيط (مادة صعلك).
- (٧) د. عبد الحليم حنفي : شعر الصعاليك ص ١٨
- (٨) أحمد أمين : الصعلكة والفتوة في الإسلام ص ١٩
- (٩) أبي تمام : ديوان الحماسة ج ٢ ص ٩٣
- (١٠) د. عبد الحليم حنفي : شعر الصعاليك ص ١١٥
- (١١) د. عبد الحليم حنفي : شعر الصعاليك ص ١١٥، ١١٦
- (١٢) الأصفهاني : الأغاني ج ٢٢ ص ٣٤٩
- (١٣) د. عبد الحليم حنفي : شعر الصعاليك ص ٢٧٦
- (١٤) الأصفهاني : الأغاني ج ١٤ ص ١٥٤
- (١٥) ابن القيم الجوزية : الفروسية ص ١٧٥ دار التراث العربي
- (١٦) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٩ دار نهضة مصر ٦٦
- (١٧) د. عبد الحليم حنفي : شعر الصعاليك ص ٢٦٧ الهيئة ١٩٨٧
- (١٨) الأصفهاني : الأغاني ج ١٤ ص ١٤٤
- (١٩) د. عبد الحليم حنفي : شعر الصعاليك ص ٢٧٥ الهيئة ١٩٨٧

- (٢٠) ابن القيم : الفروسية ص١٧٧، ١٧٨ دار التراث العربى
- (٢١) ابن خلدون : المقدمة ص١١١ دار التحرير ١٩٦٦
- (٢٢) المرجع السابق : ص١١٢
- (٢٣) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص٣٦ دار النهضة ١٩٦٦
- (٢٤) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٤٨ الهيئة ١٩٨٧
- (٢٥) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص٤١ دار النهضة ٦٦
- (٢٦) الاصفهاني : الأغاني ج٢٠ ص١٧
- (٢٧) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٥١ الهيئة سنة ١٩٨٧
- (٢٨) مجلة كلية الآداب : ص٢٩ المجلد الخامس والثلاثون ١٩٨٧
- (٢٩) الاصفهاني : الأغاني ج٢١ ص٢٠٨
- (٣٠) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٥٢ الهيئة ١٩٨٧
- (٣١) ابن القيم : الفروسية ص١٧ دار التراث العربى
- (٣٢) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٥٦ الهيئة ١٩٨٧
- (٣٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج١ ص٤٤
- (٣٤) الاصفهاني : الأغاني ج١٩ ص٢٦
- (٣٥) الاصفهاني : الأغاني ج٢١ ص١٩٠
- (٣٦) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٢٦
- (٣٧) الاصفهاني : الأغاني ج٢٢ ص٣٤٥
- (٣٨) الاصفهاني : الاغانى ج٢١ ص١٥٤
- (٣٩) د. عبد الحليم حنفى : شعر الصعاليك ص٢٢٨
- (٤٠) الاصفهاني : الأغاني ج٢١ ص٦
- (٤١) الاصفهاني : الاغانى ج٢١ ص١٧٥، ١٧٦

- (٤٢) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٥٠
- (٤٣) الاصفهاني : الأغاني ج ٢١ ص ٦٩٠
- (٤٤) المرجع السابق ص ١٨٨
- (٤٥) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٥٠
- (٤٦) المرجع السابق ص ٤٩
- (٤٧) د. أحمد محمد الحوفي : من أخلاق النبي ص ٩٥
- (٤٨) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٥٩
- (٤٩) د. محمد محمد الكومي : المروءة في الشعر الجاهلي ص ٩٥
- (٥٠) جمال الدين محمد بن نباتة المصري : سرح العيون شرح رسالة
ابن زيدون ص ٧٣
- (٥١) المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤
- (٥٢) ابن نباتة المصري : سرح العيون شرح رساله ابن زيدون
ص ٧٥
- (٥٣) الأصفهاني : الأغاني ج ٢٢ ص ٢٨١ ، ٢٢٨
- (٥٤) المرجع السابق ص ٢٧٥
- (٥٥) الأصفهاني : الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧
- (٥٦) المرجع السابق ص ٢٧٨
- (٥٧) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٦٢
- (٥٨) الاصفهاني : الأغاني ج ٢٢ ص ٢٧١
- (٥٩) الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ج ١ ص ٨٩
- تحقيق محمد بهجت الأثيري مطبعة مصر ١٣٤٢هـ
- (٦٠) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ١٢٠ ، ١٢١

- (٦١) ابن نباته المصري : شرح العيون شرح رسالة ابن خلدون
ص ٥٩ ، ٦٠ الطبعة الرابعة سنة ١٣٢١هـ .
- (٦٢) ابن هشام السيرة النبوية ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ مكتبة الكليات الأزهرية
١٩٧٤ .
- (٦٣) المرجع السابق ص ١٢٢
- (٦٤) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ١٢٤
- (٦٥) محمد سيد كيلاني : مختار الشعر الجاهلي ص ٤٠ مطبعة الباب الحلبي
بمصر سنة ١٩٥٩
- (٦٦) الاصفهاني : الأغاني ج ٢١ ص ٢١٢
- (٦٧) الاصفهاني : الأغاني ص ٢٢ ص ٥٥ ، ٥٦
- (٦٨) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ١٢٩
- (٦٩) د. محمد محمد الكومي : المروءة في الشعر الجاهلي ص ١٢٨ طبعة ٨٣
- (٧٠) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ١٣٠ دار النهضة ١٩٦٦
- (٧١) الاصفهاني : الأغاني ج ٢٢ ص ٨٩ ، ٩٠
- (٧٢) الاصفهاني : الأغاني ج ٢٢ ص ٩٠
- (٧٣) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ١١٥ — دار النهضة ١٩٦٦
- (٧٤) الاصفهاني : الأغاني ج ٢٢ ص ٥٩ ، ٦٠
- (٧٥) المرجع السابق ص ١٩٠
- (٧٦) المرجع السابق ص ١١٩

الفصل الثانى الفتوة فى الإسلام

الفتوة فى كتاب الله

إذا ما تأملنا كتاب الله عز وجل، نجد أن لفظ الفتوة قد ورد فى أكثر من موضع كما أنه جاء وصفاً لبعض أنبياء الله. قال تعالى :
"قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم"(١).

أى، قال الذين سمعوا إبراهيم — عليه السلام — يعيب الأصنام وعبادتها، ويدعو إلى الله الواحد الأحد : إنا سمعنا فتى يذكر أللهتنا بسوء، وإسم هذا الفتى إبراهيم، فلم يذكر أحد أللهتنا بسوء غيره، ولم يستهزئ بها وينكر أللهيتها سواء، فيغلب على ظننا أن يكون هو الذى فعل بها ما نرى من تحطيم وتكسير(٢).

وفى هذه الآية الكريمة نجد أن الحق تبارك وتعالى أطلق على السنة عبدة الأصنام، فتوة إبراهيم، وتتجلى هذه الفتوة فى أن إبراهيم — عليه السلام — قام فى الله حق القيام، وأنه باع نفسه فى حق أحدية خالقه، لا فى حق خالقه لأن الشريك ما ينفى وجود الخالق، وإنما يتوجه إلى نفى الأحدية.(٣)

وإذا قلنا أن إيواء الضيف وإكرامه من سمات الفتوة، فقد كان خليل الله كريماً مضياًفاً لا يتغدى ولا يتعش إلا مع ضيف، وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفاً. وقد شهد له الحق تعالى بهذه الصفة — الكرم — فى قوله تعالى : "هل أتاك حديث إبراهيم المكرمين، إذ

دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين". (٤)

ومعنى قوله : المكرمين، قيل لقيام إبراهيم — عليه السلام — بخدومتهم. وقيل : إكرام الضيف بطلاقة الوجه، والإستبشار بوفودهم. وقيل : لم إبراهيم لهم، وما إعتذر إليهم — وهذا هو إكرام الضيف — حتى لا تكون من المضيف عليه منة فيحتاج الضيف إلى تحملها. ويقال : سماهم المكرمين لأن غير المدعو عند الكرام كريم. ويقال ضيف الكرام لا يكون إلا كريماً.

ويقال : المكرمين عند الله. (٥)

ومعنى قوله : فراغ، كذلك يكون روغان الكرام، خفية حتى لا يسبب لأيافه الحرج (٦).

كذلك كان إبراهيم — عليه السلام — معلماً للخير، وكان جماع خير أمة بأكملها في العبادة، والفضائل، والآداب، قانتاً لله حنيفاً. وكان عليه السلام — عطوفاً رؤوفاً باراً بوالده مع قسوته عليه. وقد شهد له الحق تعالى بالوفاء : فقال تعالى : "وإبراهيم الذي وفى" (٧)

وإذا قلنا أن إمتلاك النفس عند الغضب والسيطرة عليها وكبح جماحها، تعد من صفات الفتى، فقد تحلى إبراهيم — عليه السلام — بذلك بالإضافة إلى خصال أخرى حميدة كانت هى الأساس الذى إستقى منه الفتیان فتوتهم، منها : البكاء وكثرة التأوه عند ذكر الذنوب، والإقبال على الله بقلبه وكل جوارحه حتى يكون دوماً فى طاعته سبحانه. وفى هذا المعنى يقول عز وجل : "إن إبراهيم لحليم أواه منيب". (٨)

وتتجلى فتوة إبراهيم — عليه السلام — فى إيمثاله لأوامر الله عز وجل وتبليغ رسالته، وتحمل الأهوال والصعاب فى سبيل إعلاء كلمة الله. إلى الحد الذى دفع أعداء الله إلى أن يقذفوه فى النار، ولم يحاول إبراهيم أن يهرب من أعداء الله، وانقأ أن الحق تبارك وتعالى الذى بعثه برسالته لن يخذله فكانت النار برداً وسلاماً عليه. قال تعالى : "قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم" (٩).

وإذا ما إنتقلنا إلى موضع آخر من كتاب الله ذكر فيه لفظ الفتى نجد ذلك فى قوله تعالى : "وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين" (١٠)

وتتضح فتوة يوسف — عليه السلام — فى أنه أثر لحوق المشقة فى الله تعالى على لذة نفسه، وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى : "قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين" (١١)

وهنا يمكن القول : أن يوسف — عليه السلام — لو تمنى العافية، بدل ما كان يدعى إليه لعله كان يعافى، ولكنه لما قال : "السجن أحب إلى مما يدوننى إليه" طوالب بصدق ما قال. هذا وقد أيقن يوسف أن ما هو فيه إنما ابتلاء لا يصرفه عنه إلا الله تعالى، لذلك نطق من عين التوحيد حيث قال : "وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن". فقد علم عليه السلام — إن نجاته فى أن يصرف سبحانه البلاء عنه. (١٢)

وإذا ما نظرنا إلى الخصال الحميدة التى تحلى بها يوسف — عليه السلام — نجد أنها ثمار خير قد أينعت من شجرة الأخلاق النبوية المباركة، فكانت دليلاً على فتوته.

وأول ما يقابلنا من هذه الصفات الطيبة، والخصال الحميدة، التي يجب على الفتى أن يتحلى بها نجد، العفة والأمانة، فقد كان يوسف شاب، فى ريعان شبابه محفوف بالمغريات، وعلى الرغم من ذلك فقد إستمسك بدينه، لأنه نشأ على تقوى الله، وحسن الخلق (١٣).

وتتمثل هذه العفة والأمانة عند يوسف أن امرأة العزيز عندما هاج غرامها إعترمت على قضاء ما فى نفسها من الصبابة، فدعته إلى نفسها وغلقت الأبواب، نجد أن يوسف — عليه السلام — تمسك بعفته وأمانته، ورفض ما تدعوه إليه — امرأة العزيز — وقال لها : إن ربي — زوجك العزيز — أحسن مثواى، فلا يصح لى أن أخونه فى زوجته وأندس فراشه، وإنه أكرمنى وإئتمنى على بيته، فإن خنته فى أهله، فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون. وقال تعالى : إخبارا عن هذه الحادثة: "ورأودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت، هيت لك قال : معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون" (١٤).

كذلك يعتبر الصبر من أبرز الصفات فى فتوة نبي الله يوسف. وإن من صبر يوسف ما يأتى :

أولاً : صبر على إيذاء أخوته له، وتجريده من ثوبه، والقائه فى الجب بقصد إهلاكه. وقد أخبرنا الحق تعالى بهذا الموقف من جانب إخوة يوسف فى قوله تعالى : "اقتلوا يوسف أو أطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين. قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيبت الجب" (١٥)

ثانياً : صبر على استرقاقه وبيعه فى السوق. قال تعالى :
 "وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين". (١٦)
 ثالثاً: صبر على الشهوة، وقد هيئت له فى طائفة من المغريات
 تحف به من كل جانب إلا أنه تغلب بعون الله وقدرته على كل هذه
 المغريات، مفضلاً دخول السجن حتى لا يستجيب إلى الشهوة ويكون
 من الجاهلين.

رابعاً : الصبر على الحبس والسجن، عندما أحاطت المغريات
 بيوسف من كل جانب، أثر دخول السجن خوفاً من هذه الاغراءات، إذ
 أن السجن فى هذه الحالة أحب إلى يوسف مما يدعونه إليه. ليس هذا
 فحسب، إنما رفض يوسف الخروج من السجن بعد تأويل رؤيا الملك ما
 لم تظهر الحقيقة، ويعلم الملك حقيقة موقفه من امرأة العزيز، وأنه دخل
 السجن ظلماً وكيداً من جانبها.

قال تعالى : "وقال الملك أئتوني به فلما جاءه الرسول قال :
 ارجع إلى ربك فاسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي
 بكيدهن عليم". (١٧)

أمر آخر فى رفض يوسف الخروج من السجن، وذلك ليثبت
 براءته، فلا تصح للملك المنة على يوسف فى إخراجه من السجن، بل
 المنة لله وحده، فقص يوسف بذلك براءة ساحته، إذ لو بقى الاحتمال
 لقدح فى عدالته، وهو رسول من عند الله عز وجل، فلا بد لأمتة —
 المؤمنين بدعوته — فى طريق إنقيادهم له من ثبوت عدالته وبراعته
 عندهم.

أمر آخر إن يوسف — عليه السلام — طلب أن تكون البراءة في غيبته لكونها أكثر تنزيها له، لأنه لو حضر، ربما قيل : ما ذكوه إلا حياء منه، ومن كمال الرجولة (الفتوة) أن يقف مع ما تمسك عليه في كل ما لم يؤمر بفعله حتى يأتيه أمر الله فهناك يكون بحسب ما يؤمر به (١٨).

وإذا كان العفو — وخاصة عند المقدرة — يعد من السمات أو الخصال الحميدة التي يتحلى بها الفتى فإننا نجد هذه السمة واضحة متميزة في موقف نبي الله يوسف — عليه السلام — مع إخوته، فحينما خرج من السجن ومكن الله له في أرض مصر، وجعله على خزائنهما، جاء إخوته إلى مصر يكتالون بعد ما حل بهم الجذب والقحط. نجد أن يوسف — عليه السلام — لم يعاملهم مثلما عاملوه، ولم يقابل شرهم بشر مثله، وإنما دعا لهم بالمغفرة والرحمة. وقد أخبر الحق سبحانه عن هذا الموقف في قوله تعالى : "قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين". (١٩)

كذلك ورد لفظ الفتى في كتاب الله عز وجل وصفاً لأهل الكهف. وذلك في قوله تعالى : "نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى". (٢٠)

وفي قوله تعالى : "إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهئ لنا من أمرنا رشدا". (٢١)

وإذا ما نظرنا إلى الآية الأولى نجد أن الله سبحانه وتعالى وصف الفتية بالإيمان في قوله تعالى : "إنهم فتية آمنوا بربهم" ويفسر القشيري هذه الآية بقوله : يقال : انهم فتية لأنهم آمنوا — على الوهلة

— بربهم، أمنوا من غير مهلة، لما أتتهم دواعى الوصلة. ويقال : فتية، لأنهم قاموا لله، ما إستقروا حتى وصلوا إلى الله.(٢٢)

ويقال : أن أهل التوحيد صفتهم ما قال الحق سبحانه فى صفة أصحاب الكهف: "وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود".(٢٣) فهم بشواهد الفرق فى ظاهرهم، ولكنهم بعين الجمع بما كوشفوا به فى سرائرهم، يجرى عليهم أحوالهم وهم غير متكلفين، بل هم يثبتون — وهم خمود عما هم به — ان تصرفاتهم القائم بها عنهم سواهم وكذلك فى نطقهم.(٢٤)

وإذا ما إنتقلنا إلى الآية الثانية نجد أن الحق تبارك وتعالى أوى الفتية إلى الكهف بظاهرهم، وهم فى الباطن فهو مقلبيهم فى ظل أقباله وعنايته ثم أخذهم عنهم، وقام عنهم فأجرى عليهم الاحوال وهم غائبون عن شواهدهم.

هذا وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن إبتداء أمرهم أنهم دعوا الله أن يأتيهم من لدنه رحمة، وأن يهيئ لهم من أمرهم رشداً. أى أنهم أخذوا فى التبرى من حولهم وقوتهم، ورجعوا إلى الله بصدق فاستجاب لهم، وبوأهم فى كنف الإيواء مكانا حسنا.(٢٥)

بالإضافة إلى هذا فقد ورد لفظ الفتى فى كتاب الله عز وجل بمعنى التابع قال تعالى : "وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح مجمع البحرين أو أمضى حقبا".(٢٦) وفى قوله تعالى : "، فلما جاوزا قال لفتاه أتنا غداً لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا".(٢٧)

كذلك ورد لفظ الفتى فى سورة يوسف بنفس المعنى — التابع — فى قول الله عز وجل : "وقال لفتياناه إجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا إنقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون"(٢٨).

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الله تعالى لم يرضى أن يسمى التابع، أو الرقيق المملوك عبد فلان، وكره العبودية تضاف لغيره سبحانه فأختار للتابع الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً لفظاً كريماً يدل على مجموع صفات حميدة "وهو الفتى". وكذلك الأمر بالنسبة للأمة المملوكة.

إذ جاء فى الحديث أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : "لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولكن ليقل فتاى وفتاتى". فكان الحق سبحانه وتعالى إختار خير الألفاظ الدالة على الحرية والصفات الحميدة فدل بها على الرق طلباً لحسن معاملة الرقيق.

سيد الفتيان

قد يكون وصفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيد الفتيان تطاولاً على مقام النبوة الكريم، إلا أن حجتنا فى وصفه — صلى الله عليه وسلم — بذلك ما وجدناه فى كتاب الله عز وجل من وصف لبعض الأنبياء بلفظ "فتى" كما هو الحال مع إبراهيم ويوسف عليهما السلام. كذلك كان رسول الله قبل أن يبعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، مثلاً كاملاً للرجولة الحقّة، والفتوة الكاملة وتمثّل فى شخصته — صلى الله عليه وسلم — الخصال الحميدة، والصفات العظيمة فكانت فى مجموعها الأخلاق النبيلة.

هذا وقد أجمعت لنا السيدة خديجة هذه الصفات، والخصال الحميدة، التى هى بحق صفات الفتيان عندما جاءها مخبراً بنزول الوحي عليه إذ قالت : "أبشر يا ابن العم وأثبت، فوالذى نفس خديجة

بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق". (٢٩)

وإذا ما نظرنا إلى وصف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما وصفه على بن أبي طالب نجد وصفه من الناحية الخلقية بالقوة وذلك في قوله : جليل المشاش والكند.... ششن الكفين والقدمين..... أى أن عظام رؤس المفاصل وخاصة ما بين الكتفين فيهم جلال وقوة، غليظ الكفين والقدمين دليلاً على قوتهما. ووصفه من الناحية الخلقية بما تتضمنه الفتوة المعنوية من صفات وذلك في قوله : "أجود الناس كفاً وأجراً الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه" (٣٠) صلى الله عليه وسلم.

وإذا ما تحدثنا عن فتوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نجد أن فتوته ما هي إلا جهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة — لا إله إلا الله محمد رسول الله في مجتمع ساد فيه الكفر، والفسق، والفجور.... وما أصدق ما وصف جعفر بن أبي طالب لأحوال قومه قبل بعثة رسول الله، عندما سأله النجاشي عن السبب الذي دعاهم إلى الدخول في الإسلام إذ قال : "أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف... فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه.... فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق

الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات". (٣١)

وهنا نجد أن هذه الفقرة تضمنت وصفاً لرسول الله — صلى الله عليه وسلم بصفات حميدة أهمها، الصدق، والأمانة، والعفة. كما أن هذه الفقرة أوضحت أن الدعوة الإسلامية في حقيقتها إنما هي تدعو إلى مكارم الأخلاق.

وقد تطلبت هذه الدعوة جهاداً طويلاً بالحجة تارة، وبالقوة تارة أخرى، مع هؤلاء الذين أرادوا القضاء عليها في مهدها، فاستعمال القوة لم يكن لنشر الدعوة بالعنف، ولكن لاختضاع الكفار، وكف أذاهم عن الدين الجديد. (٣٢)

وإذا قلنا أن الفتوة بمعناها المادى تتمثل في القوة، والغلبة، والبطش وما تتطلبه هذه القوة من غدة وعداد مثل الخيل والسلاح. وتتمثل الفتوة في معناها المعنوى في مجموعة الخصال الحميدة التي تكون في مجموعها شجرة الأخلاق بفروعها وثمارها، مثل الكرم، والوفاء، والعفة، والأمانة، والرحمة، والزهد.... فمما لا ريب فيه أنه قد اكتملت هذه الفتوة سواء في جانبها المادى أو الجانب المعنوى في شخصية رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

أولاً: القوى المادية للفتوة :

لا جدال أن الدين الاسلامى دعا إلى القوة فى كثير من آيات الله مثل قوله تعالى : "وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم". (٣٣)

وإذا كانت الفتوة فى كثير من الأحيان مقترنة بالشجاعة ومكملة لها لذا نريد هنا أن نتعرف على شجاعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من حيث مصادرها ومظاهرها والغاية منها.

الشجاعة :

لقد نشأ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى بيئة صحراوية تشيد بالشجاع الصنديد، وتتدد بالجبن والجبناء، فكانت هذه النشأة الأولى مصبراً من مصادر شجاعته، صلى الله عليه وسلم. فضلاً عن أن كثيراً من آيات كتاب الله تدعو إلى الشجاعة، وتحض عليها، وتبشر الفتيان الشجعان بالخير الكثير، والمغفرة والرحمة، والفوز العظيم.

وهكذا نجد أن المصدر الأساسى لشجاعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إنما يتمثل فى تنفيذ أوامر الله عز وجل. قال تعالى : "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون". (٣٤)

وقال تعالى : "إن الله يشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقا فى

التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله؟ فأستبشروا ببيعكم
الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم". (٣٥)

وإذا كان الإسلام قد أشاد بالشجاعة، وحض عليها، فإنه بالتالى
قد نهى عن الجبن والفرار من المعركة أمام الأعداء. قال تعالى: "يا
أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن
يوليهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب
من الله ومأواه جهنم وبئس المصير". (٣٦)

أما عن مظاهر شجاعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
فإنها كثيرة متعددة يطول بنا المقام إذا أردنا أن نعددها ونحصيها، ولكننا
نكتفى بأن نستقى منها بعض الأمثلة الدالة على شجاعة الرأى وشجاعة
الحرب.

لاريب أن شجاعة الرأى تعد دليلاً على عقيدة راسخة، وإيمان
قوى لا يلين أو يلتوى أمام المغريات. فها هو عتبة بن ربيعة — وكان
سيداً فى قومه — يحاور رسول الله — صلى الله عليه وسلم — محاولاً
أن يبعده عن دعوته قائلاً: يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من
الشرف فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر
عظيم مزقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم
ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فأسمع منى أعرض عليك
أموراً تتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله — صلى
الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد. أسمع. قال: إن كنت إنما تريد به شرفاً
سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك
علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك،

طالبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.... حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال : نعم. قال : فأسمع مني. قال : افعل، فقال : "بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعملون. بشيراً ونبيراً. فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه". (٣٧).... ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ عليه، وعتبة منصت، ثم إنتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السجدة منها، فسجد....

ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك. (٣٨)

ما أروعها من شجاعة في الرأي، تلك التي مصدرها كلمات الحق تبارك وتعالى في وجه طواغيت الكفر والفساد. وإذا ما إنتقلنا إلى موقف آخر من شجاعة الرأي عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لوجدنا ذلك واضحاً في موقفه مع عمه أبو طالب عندما ضاقت قريش بدعوته إلى الاسلام وتسفيه أحلامها، وعيب الهتها، فأرسلت وفداً إلى أبي طالب يتوعده بأن يكف رسول الله عن دعوته أو تكون حرباً بينهما حتى يهلك أحد الفريقين. فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله لهم ولا خذلانه. فبعث إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال له : يابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا، وكذا، الذي كانوا قالوا له.... فأبقى على وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وسلم — يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته.... ثم استعبر رسول الله، فبكى ثم قام.

وعندما ما رأى أبو طالب هذه الشجاعة في الرأي من جانب رسول الله، وثباته على عقيدته دفاعاً عن المبدأ الذي أمن به، ناداه، فقال : أقبل يا ابن أخي..... فأقبل عليه رسول الله..... فقال : إذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً. (٣٩)

أما شجاعته — صلى الله عليه وسلم — الحربية في ميدان القتال، فقد تجلت منذ مطلع شبابه إذ تروى كتب السيرة، أنه عندما هاجت حرب الفجار شهد رسول الله بعض وقائعها إذ أخرجه أعمامه معهم وفي هذا الصدد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أنبل على أعمامي "أى أرد عنهم نبل عدوهم، إذا رموهم بها". (٤٠)

ثم أنه بعد النبوة كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يشارك في المواقع ويقدم إقدام الأبطال، ويمارس ما يمارسه القائد الشجاع، ويتعرض لما يتعرض له جنوده، على حين أنه كان يستطيع أن يعفى نفسه من هذه المشاركة العملية إعتماً على أنه النبي، فيتوارى أو يتحصن أو يتخذ مكانه في مؤخرة الجيش ولو أنه — عليه الصلاة والسلام — فعل ذلك لكان له مندوحة لا يرقى إليها تثريب. أو ملام، ولو أنه أثر هذا المسلك لرضى المسلمين به مرضاة خالصة، فقد كانوا يؤثرون رسول الله على أنفسهم، ويشترون سلامته بازواحهم. (٤١)

^١ يذكر ابن اسحاق أنه عندما هاجت حرب الفجار كان رسول الله — ابن عشرين سنة

وعن هذه الشجاعة يحدثنا على بن أبي طالب قائلاً : إذا إشتد
البأس، وأحمرت الحق، إتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى
العدو منه ولقد رأيتني يوم بدر، ونحن برسول الله، وهو أقربنا إلى
العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً. (٤٢)

وفى غزوة أحد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يؤثر
البقاء في المدينة دون الخروج منها، فأشار على أصحابه قائلاً: "إن
رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر
مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان البعض يوافق رسول الله
على ذلك، يرى رأيه في ألا يخرج إليهم وكان رسول الله يكره
الخروج. ولكن جماعة من الصحابة، ممن كان فاتته بدر، أثروا
الخروج وقالوا لرسول الله : أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أننا جنبنا
عنهم وضعفنا.... فلم يزالوا برسول الله — صلى الله عليه وسلم —
يطلبون منه الخروج..... حتى دخل بيته، ولبس لأمته، وتقلد سيفه، ثم
خرج عليهم..... وقد ندم الناس، وقالوا لرسول الله : إستكرهناك، ولم
يكن لنا ذلك. فإن شئت فاقعد صلى الله عليك. فقال رسول الله : ما
ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل : فخرج رسول الله في
ألف من أصحابه. (٤٣)

وهنا تتجلى شجاعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في
رفضه أن يستجيب لدعوة البقاء، بعد أن أعد عدته، ولبس لأمته،
وإصراره على ألا يضعها حتى يقاتل أعداء الله، فإنه بهذا الإصرار
أذكى شجاعة الصحابة جميعاً من كانوا يؤثرون الخروج، ومن كانوا
يؤثرون البقاء، وخرج بهم يقودهم إلى لقاء الأعداء.

وتأكيداً لقول على بن أبي طالب " ونحن نلوذ برسول الله، وهو أقربنا إلى العدو..." نجد أنه في غزوة أحد كسرت ربايعيته — عليه الصلاة والسلام — وشج في وجهه وجرحت شفته، وسال دمه على وجهه فكان يمسح الدم وهو يقول : "كيف يفلح قوم، خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم". (٤٤)

بالإضافة إلى هذا وقع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في حفرة من الحفر التي حفرها أعداء الله ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون، فأخذ على بن أبي طالب بيد رسول الله، ورفع طلحة بن عبيد الله، حتى استوى قائماً. (٤٥)

وفي سنة ثمان بعد الفتح خرج رسول الله للقاء هوازن وتقيف وغيرهم في غزوة حنين. فلما إقتربوا من وادي حنين انحدروا في متسع منحدر، وفي عماية الصبح كان القوم قد سبقوهم إلى الوادي، فكمنا في شعبه ومضايقه فشدوا على المسلمين، فأنهزموا راجعين إلا قليلاً منهم لا يلوى أحد على أحد.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم — إنحاز ذات اليمين وكان على بغلته البيضاء، وكان النبي ينادي : "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله"... ولكنهم شغلوا باضطرابهم، وحملت الأبل بعضها على بعض، فأنطلق الناس إلا نفرًا من الصحابة (المهاجرين والانصار) ثبتوا مع رسول الله، فقال الرسوا : يا عباس، اصرخ يا معشر الانصار: يا معشر أصحاب السمرة. فأجابوا : لبيك، لبيك حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا الناس، فأقتتلوا، وكانوا صبراً عند الحرب فأشرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ركائبه. فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون، فقال : الآن حمى الوطيس. (٤٦)

وهنا تتجلى شجاعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ثباته أثناء المعركة عندما دارت الدائرة على المسلمين، وتفرقوا إلا أنه بشجاعته وحكمته — عليه الصلاة والسلام — استطاع أن ينظم صفوف المسلمين مرة أخرى، ويكر على العدو فى معركة حامية الوطيس انتهت بانتصار المسلمين.

وهكذا نكون قد إستعرضنا بعض النماذج الدالة على شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم — سواء كانت شجاعة الرأى أو شجاعة الحرب، إلا أنه إحقاقاً للحق نقول : إن ما أخذناه من شجاعته — صلى الله عليه وسلم — إنما كما يأخذ المخيط من المحيط.

وإذا ما تساعلنا عن الغاية من شجاعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأمكن القول : أنه لم تكن الشجاعة التى إتصف بها رسول الله، والتى حرص عليها وأقرها وإمتدحها، شجاعة القوى المقدام، المدل بقوته، المفاخر بها بين الناس، ولا شجاعة الثائر المهتاج الذى أشعله الغضب لغير الحق، بل كانت شجاعته — صلى الله عليه وسلم — الشجاعة المتلى التى لا تتوخى غير إعزاز دين الله. وإعلاء كلمته، والزود عن محارمه، والدفاع عن الحقوق التى صانتها الشريعة وحمتها. (٤٧)

فقد كانت الغاية من شجاعته — صلى الله عليه وسلم — إنما هى أنبل غاية وأشرف غاية، وأسمى غاية، إذ أن شجاعة رسول الله كان الهدف منها أن تكون كلمة الله هى العليا، والدفاع عن التوحيد الخالص، وحماية الاسلام والمسلمين من عدوان المشركين، وتحرير الناس من أغلال الوثنية، ومفاسد الأخلاق، لتحل محلها أسمى عقيدة، وأصلح نظام يهدف إلى خدمة الإنسانية جمعاء فى مختلف نواحي الحياة.

السلام:

إذا قلنا أن شجاعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تمثلت في شجاعة الرأي وشجاعة الحرب، ووجدنا أن شجاعة الرأي عبر عنها بالحكمة والموعظة الحسنة، من خلال كلمات الله عز وجل التي أنزلت على رسوله الكريم ليثبت فؤاده.

فإن شجاعة الحرب لها متطلبات أخرى تعبر عنها، مثل استخدام السلاح، وركوب الخيل وقد ثبت لدينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخدم كافة أنواع الأسلحة - المتعارف عليها - مثل الحربة والسيف، والرمح، الرمي بالنبال..... كما أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يلبس الدرع والترس أثناء المعارك والغزوات.

وإذا ما نظرنا إلى استخدام الرسول - صلى الله عليه وسلم - للحربة - وهي رمح قصير - وطعنه بها، فتروى لنا كتب السيرة، مثل : مغازي موسى بن عقبة، وإبن اسحاق، والأموي، وإبن هشام... وغيرها، أنه لما كان يوم أحد وأسند رسول الله إلى الجبل أدركه أبي بن خلف، وهو يقول : أين محمد؟ لانجوت إن نجا وكان أبي بن خلف يلقي رسول الله بمكة فيقول : يا محمد، إن عندي العود - فرسالة - أعلفه كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليها. فيرد عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائلاً : بل أنا أقتلك إن شاء الله.

فلما أدرك أبي بن خلف رسول الله إعترض له رجال من الصحابة فأمرهم رسول الله فخلوا طريقه وإستقبله، فطعنه بحربته فوق أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم فكسر ضلعاً من أضلاعه، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً كبير فأحتقن الدم. فقال

: قتلنى والله محمد. قالوا له : ذهب والله فؤادك، إنه ما كان بك من بأس. قال : أنه قد كان قال لى بمكة : أنا أقتلك فوالله لو بصق على لقتلنى. وبالفعل مات عدو الله وهم راجعون إلى مكة.(٧٨)

وجدير بالذكر أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يطلق على أسلحته وعدده الحربية أسماء تميزها، وألقاب تدل عليها، لأنه يشعر نحوها بعطف ومودة وإعزاز كأنما هى أناس من جنوده الأوفياء، وأعوانه الأصدقاء فحربته إسمها النبعة، وله أخرى يقال لها البيضاء، وثالثة صغيرة تشبه العكاز يقال لها العنزة.(٤٩)

أما عن استخدام رسول الله صلى الله عليه وسلم — للسيف، فيذكر ابن إسحاق أنه بعد أن إنتهت المعركة فى غزوة أحد،ولما إنتهى رسول الله إلى أهله، ناول سيفه إبنته فاطمة، فقال : أغسلى عن هذا دمه يا بنية فوالله لقد صدقنى اليوم، وكان يقال لسيف رسول الله الذى لم يفارقه فى غزوة من الغزوات ذو الفقار.(٥٠) بالإضافة إلى هذا فقد كان لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — سيوف أخرى هى، المخزم، والرسوب، والقضيب، القلعى، والبتار، والحتف، والعضب، والصمصامة.(٥١)

وهذه الأسماء للسيف التى كان يستخدمها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نجد أنه يغلب عليها صفات القوة، وهذا أمر مطلوب لمن يستخدم السيف، إذ لابد للسيف أن يكون قوياً شديداً القطع بتار. فالمخزم، والقضيب تعنى القاطع والحتف يعنى الهلاك، والصمصامة أى السيف الذى لا ينثنى.(٥٢)

وكذلك أتت بعض الأسماء تشبيهاً لمتن السيف، أو وصفاً لشكله مثل ذو الفقار، ذلك لأن هذا السيف كان فى وسطه مثل فقرات الظهر.

والرمى بالسهم يعتبر من أنواع السلاح التى أشاد بها رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — ففى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم — يقول : "وأعدوا لهم ما
استطعتم من قوة. ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة
الرمى".

وفى السنن عن عقبة — أيضا — قال : رسول الله — صلى الله
عليه وسلم : أن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة. صانعه
المحتسب فى عمله الخير، والرامى به، والممد به، وفى رواية :
ومنبلة فأرموا، واركبوا وإن ترموا أحب إلى أن تركبوا كل لهُو باطل.
ليس من اللهُو محمود، إلا ثلاثة تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله،
ورميه بقوسه ونبله. فأنهم من الحق ومن ترك الرمى بعدما علمه
رغبة فإنها نعمة تركها" (٥٣).

وفى صحيح البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : خرج رسول
الله صلى الله عليه وسلم بنفر يتتفلون، فقال : "إرموا بنى إسماعيل فإن
أباكُم كان راميا، إرموا وأنا مع بنى فلان، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم،
فقال : مالكم لا ترمون؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم؟ فقال : إرموا
وأنا معكم كلكم. (٥٤)

وقد قيل فى هذا الصدد :

الرمى أفضل ما أوصى الرسول به

وأشجع الناس من بالرمى يفتخر (٥٥)

ولما كانت السهام لابد لها من كنانه توضع فيها،
فإننا نجد كنانه سهام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إسمها الجمع
أى العظيمة أو المتقلة أو المستورة. (٥٦)

السباق

لا جدال أن السباق سواء كان على الأقدام، أو كان على ظهور الخيل أو الأبل إنما يكسب المتسابق قوة وجدية وشجاعة ومهارة على الكر والفر وعلى هذا لنا أن نعتبر السباق من ضمن القوة المادية الدالة على فتوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أما مسابقته بالأقدام : ففي مسند الامام أحمد وسند أبي داود من حديث عائشة قالت : "سابقني النبي — صلى الله عليه وسلم — فسبقته، فلبثنا حتى إذا أرهقني اللحم سبقني فقال : هذه بتلك". وفي رواية أخرى، أنهم كانوا في سفر فقال النبي لأصحابه : "تقدموا فتقدموا ثم قال لعائشه : "سابقيني، فسابقها فسبقته ثم سافرت معه مرة أخرى فقال لأصحابه : "تقدموا ثم قال : سابقني، وسبقني، فقال : هذه بتلك". (٥٧)

كذلك تسابق الصحابة على الأقدام بين يديه — صلى الله عليه وسلم — ففي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع قال : بينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يسبق أبداً، فجعل يقول : ألا مسابق إلي المدينة، هل من مسابق فقلت له : أما تكرم كريماً وتهاب شريفاً؟ فقال : لا. إلا أن يكون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ذرني أسابق الرجل. فقال : إن شئت فسبقت إلي المدينة. (٥٨)

وإذا جاز لنا أن نعتبر المصارعة نوعاً من أنواع السباق، فقد ثبت عن رسول الله، أنه صارع ركانة المطلبى وصرعه.

قال ابن اسحاق : كان ركانة بن عبد العزيز بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشد قريش فخلاً يوماً برسول الله — صلى الله

عليه وسلم — فى بعض شعاب مكة فقال له رسول الله : يا ركانه، ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه؟

قال : إني لو أعلم أن الذى تقول حق لإتبعتك، فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أفرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقول حق؟ قال : نعم، قال : فقم حتى أصارحك. فقام إليه ركانه يصارعه، فلما بطش به رسول الله أضجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئاً، ثم قال: عد يا محمد، فعاد فصرعه. (٥٩)

وإذا كان ركوب الخيل يعد من متطلبات الفتوة، فقد ثبت عن رسول الله أنه ركب الخيل مسرجة، ومعراه — ففى الصحيحين من حديث ثابت، عن أنس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليله، فركب فرساً لأبى طلحة، عرباً فخرج الناس، فإذا هم برسول الله صلى الله عليه وسلم — قد سبقهم إلى الصوت، وقد إستبرأ الخبر. وهو يقول: "لن تراعوا". (٦٠)

ولأهمية الخيل فى حياة رسول الله، فقد خلع بعض الأسماء والألقاب على أفراسه مثل السكب، وكان قد إشتراه من إعرابى، وكان اسمه عند صاحبه الضرس، أى الصعب السئ الخلق، فشبهه رسول الله — بسكب الماء وانصبابه لشدة جريه. ومن أفراسه أيضاً : اللزاز واللخيف أو اللخيف، والورد، والطرف وسبحة. (٦١)

كذلك كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحذب على خيله ويعزها، حتى أنه مسح وجه فرسه ومنخريه وعينييه بكم قمصه، فقيل له : يا رسول الله تمسح بكم قميصك؟ فقال : أن جبريل عاتبنى فى

الخيـل. وذكر أن رسول الله فى غزوة تبوك قام إلى فرسه الطرف، فعلق عليه شعيره وجعل يمسح ظهره بردائه، فقيل له : يا رسول الله تمسح ظهره بردائك؟ فقال : نعم، وما يدريك لعل جبريل أمرنى بذلك. وقال : الخيل معقود بنواصيها الخير.(٦٢)

وهكذا نجد أنه قد إكتملت القوى المادية لفتوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تلك الفتوة التى مصدرها كلمات الله عز وجل، تحث المؤمنين على الأخذ بالقوة المادية إستناداً إلى قوله تعالى : "وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم".(٦٣)

وأقوال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الكثيرة التى تشيد بالمؤمن القوى وأنه خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف إلا أن هذه القوة ليست لمصلحة فردية، أو لغاية دنيوية، أو أنها تهدف إلى السيادة والرئاسة والمجد الدنيوى وإنما هذه القوة ما هى إلا وسيلة — وسيلة شريفة ونبيلة — إلى غاية أسمى منها وأعلى، ألا وهى الجهاد فى سبيل الله لإعلان كلمة الحق فى وجه طواغيت الكفر والفسق، والفساد وأن تكون كلمة الله هى العليا.

وتأكيداً لهذا فقد جاء رجل إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : "الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليرى مكانه.... فمن فى سبيل الله؟ قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — "من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله".(٦٤)

وحقيقة الأمر إن فتوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإن كان ظاهرها القوة والشدة، إلا أن باطنها الرحمة، والصفح، والمغفرة،

والعفو، والإحساس ذلك لأن المؤمنين كما وصفهم الحق تعالى : "أشداء
على الكفار رحماء بينهم" (٦٥) وهنا نجد أنفسنا أمام بعض نقاط القوى
المعنوية لفتوته — عليه الصلاة والسلام — والتي نود أن نلقى عليها
الضوء حتى تكون نبراساً لنا في ظلمة الحياة، تهدينا إلى طريق الحق
والخير والصواب.

ثانياً: القوى المعنوية للفتوة :

إن صح هذا القول : أن القوى المعنوية للفتوة تكون فى مجموعها شجرة الاخلاق بفروعها وأغصانها وثمارها . وبناء عليه إذا ما تعرفنا على خلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نكون بذلك قد تعرفنا على كثير من جوانب القوى المعنوية لفتوته .

هذا وقد عبرت السيدة عائشة — رضوان الله عليهما — خير تعبير واجمعه واشمله حينما سئلت عن خلق رسول الله . فقالت : "كان خلقه القرآن".

فالقرآن كان يظل مبادئ يعتقد الناس أنها مجرد مبادئ نظرية يستحيل تحقيقها فى الخارج، لو لم تطبق فعلاً، ولو لم تتحقق واقعياً، لابد من أن تتحقق بالفعل، وكان لابد من صورة حية تتمثل فيها هذه المبادئ. (٦٦)

ولقد تحققت هذه الصورة للأخلاق فى شخص رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حققها فى ذاته، وحققها فى مجتمعه، وحققها سلوكاً، وحققها واقعياً، ولقد تحققت الاخلاق القرآنية فى حدها الأسمى فى رسول الله، وكان ذلك بنص القرآن إذ قال تعالى مشيداً بأخلاق رسوله الكريم : "وانك لعلى خلق عظيم". (٦٧)

وكان من خلقه صلوات الله وسلامه عليه : الحياء، والسخاء، والتوكل، والرضاء، والذكر، والشكر، والطم، والصبر، والعفو، والصفح، والرأفة، والرحمة، والنصيحة، والسكينة، والوقار، والتواضع، والافتقار، والجود، والسماحة، والخضوع، والقوة، والشجاعة، والرفق، والاخلاص، والصدق، والزهد، والقناعة، والخشوع، والخشية،

والتعظيم، والهيبة، والدعاء، والبكاء، والخوف، والرجاء، واللياقة،
واللجأ، والتهجد، والعبادة، والجهاد، والمجاهدة (٦٨) وإذا كانت هذه
بعض من خلقه - عليه الصلاة والسلام - وقلنا أن هذه الاخلاق هي
في حقيقتها مجموعة صفات حميدة وخصال رشيدة، وهي بمثابة
القوى المعنوية للفتوة فإنه يطول بناء المقام إذا ما أردنا أن نشرح هذه
الخصال ونوضحها كل على حدة، ولكن سنكتفى بأن نأخذ بعض منها
داعيين الله أن يوفقنا إلى أن نقفدى بها فى حياتنا.

الجود والكرم:

لقد مر بنا شغف العرب — فى الجاهلية — بالشجاعة والكرم، وكان شعراؤهم يشيدون بفعالهم ويختصون هاتين الفضلتين بالتتويه، محقين حيناً، ومبطلين حيناً ومبالغين أحياناً.

ولم ينفر العرب فى الجاهلية من نقائص نفورهم من الجبن والبخل، ولم يعير خصم خصمه ويهجوه بأقبح من هاتين الرذيلتين. ولقد عرفنا — من خلال البحث — أن الغاية العظمى التى يهدف إليها الفتى العربى من شجاعته وكرمه، المجد والسيادة، والرئاسة، وكسب الحمد والثناء.

لكن كرم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان لوناً آخر خلاف ذلك، فلم يكن جوده وكرمه لكسب محمده، أو إبقاء منقصه، ولم يكن للمباهاة، أو الإستغلال أو لإجتذاب المادحين.

كذلك لم يكن الكرم عند رسول الله أريحة إن شاء أعطى، وإن شاء منع، بل كان كرمه — عليه الصلاة والسلام — تنفيذاً لأمر الله عز وجل، وفى سبيل الله وإيتغاء مرضاته سبحانه وتعالى. (٦٩)

لقد كان كرمه — صلى الله عليه وسلم — فى حماية الدين، وكان الانفاق على الفقراء من المسلمين، وكان فى رعاية اليتامى والأرامل، وكان فى تحرير الأرقاء الذين كاتبوا مالكيهم على مال، وكان فى إجتذاب من يرى تألف قلوبهم.

هذا وقد وصف على بن أبى طالب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قائلاً: "كان أجود الناس كماً، وأوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة، وإلينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من رآه

بديهية هابه ومن خالطه معرفة أحبه، وما سئل بشئ قط على الإسلام إلا أعطاه" (٧٠)

وإذا ما نظرنا إلى مظاهر كرم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نجد أنه أتاه رجل فسأله، فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين. فرجع الرجل إلى قومه وقال : اسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة. (٧١)

وحمل إليه تسعون ألف درهم، فوضعها على حصيرة ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى شجرة، فخطفت رداءه. فوقف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : "أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمتها بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذاباً، ولا جباناً. (٧٢)

وحدث جابر بن عبد الله قال : "خرجت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على جمل لي ضعيف. فلما عدنا جعلت الرفاق تمضي وجعت اتخلف، حتى أدركني رسول الله، فقال "مالك يا جابر؟ قلت : يا رسول الله أبطأ بي جملی هذا. قال :أنخه، فأنخته، وأناخ رسول الله ناقته، ثم قال : أعطني هذه العصا من يدك، ففعلت، فأخذها فنحنى الجمل بها نخات، ثم قال : اركب، فركبت، فصار جملی يسابق ناقه الرسول.

ويستطرد جابر قائلاً : وتحدثت مع رسول الله، فقال لي : "أتبينني جملك هذا يا جابر؟ قلت : يا رسول الله، بل أهبه لك، وقال :

لا، ولكن بعنيهِ، فأخذ رسول الله يرفع في ثمنه حتى بلغ الأوقية. فقلت: افقد رضىيت يا رسول الله؟ قال نعم : قلت : فهو لك، قال : قد أخذته. ثم أصبحت فأنخت الجمل على باب رسول الله، وجلست فى المسجد قريباً منه فخرج فرأى الجمل، فقال "ما هذا؟ قالوا هذا جمل جاء به جابر، قال : فأين جابر؟ فدعيت له، فقال : يا ابن أخى، خذ جملك فهو لك، ودعا بلالاً فقال له : أعط جابراً أوقية، فذهبت معه، فأعطاني ما أمر به رسول الله — صلى الله عليه وسلم (٧٣).

وإذا كانت هذه بعض الأمثلة الدالة على مظاهر الكرم فى حياة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإننا نجد أن كثيراً من أقواله — عليه الصلاة والسلام إشادة بالكرم، ولطالما حض على الكرم، بمعناه الذى يرتضيه الاسلام — من بذل فى تقوية الجيش، أو فى الدفاع عن الدعوة، أو فى البر بالفقراء.

ومن أقواله، صلى الله عليه وسلم — فى هذا الصدد "السقاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ بعض منها، قاده ذلك الغصن إلى الجنة". (٧٤)

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — "أن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفافها". (٧٥)

وقال عليه الصلاة والسلام "إن السخى قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد عن النار، وأن البخل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار". (٧٦)

كذلك ذكر رسول الله، أن من ضمن — السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله سبحانه : "رجلاً تصدق فأخفى، حتى لا تعلم

شماله ما تتفق يمينه. (٧٧) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 :إياكم والشح، فأنما أهلك من كان قبلكم الشح، أمرهم بالكذب، فكذبوا،
 وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا". (٧٨)
 وجدير بالذكر أن هذه الأقوال لرسول الله — صلى الله عليه
 وسلم — وإرشادته بالكرم، وحضه عليه، وذمه للبخل، والنهي عنه،
 إنما ذلك إمتثالاً لما أمر به الله تعالى في كتابه العزيز، إذ قال تعالى
 : "ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو
 شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة". (٧٩)
 وقال تعالى : "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون". (٨٠)

الأمانة :

للأمانة معنيان خاص وعام :

المعنى الخاص : هو أن يرد الشخص المال، أو المتاع، أو غيرهما إلى من إئتمنه عليه، لأنه حفيظ على هذا الشيء، راع له، ليس من حقه أن يتصرف فيه، فإذا ما إسترده صاحبه سارع برده إليه.

أما المعنى العام : فيتسع لأكثر من هذا، فيشمل كتمان السر، وإخلاص المشورة للمستشير، وصدق التبليغ فيما كلف الشخص أن يبلغه. (٨١)

فالذى يستودعك سراً واثق بك، مطمئن إلى كتمانك، فأنت على سره أمين. والذى يستشيرك، يفضى إليك بما فى نفسه، ويتوقع أن تبدي له رأياً صريحاً وإن خالفه، فإن فعلت فأنت أمين. والذى يكلفك تبليغ خبر إلى آخر قد إختارك للتبليغ عنه، فإذا ما أدت الرسالة صحيحة فأنت أمين.

وهكذا يكون سبب إختيارنا لهذه الصفة الحميدة وإدخالها ضمن القوى المعنوية لفتوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذ وجدنا أنها ترتبط فى معناها الخاص والعام بعده فضائل أخرى، كالصدق، والصبر، والاخلاص، العفة، والوفاء، والعدل..... هذا وقد أمر الله تعالى برد الأمانة وامتدحها، وذلك فى قوله تعالى : " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعماً يعظكم به، إن الله سمياً بصيراً (٨٢) وقال تعالى : "وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة، فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى أؤتمن أمانته، وليتق الله ربه". (٨٣)

وجعل الله تعالى الأمانة صفة من صفات المؤمنين إذ قال تعالى:
 "والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون". (٨٤)

كذلك ورد لفظ الأمين في كتاب الله وصفاً لموسى — عليه
 السلام — وذلك في قوله تعالى: "قالت احدهما يا أبتِ استأجره إن خير
 من استأجرت القوي الأمين" (٨٥)

وإذا ما نظرنا إلى مظاهر الأمانة عند رسول الله — صلى الله
 عليه وسلم — نجدها كسائر فضائله، كلها شاملة متعددة المظاهر تضيق
 بها الصفحات إذا ما أردنا حصرها.

ومما لا ريب فيه أن مظهرها العظيم يتمثل في نهوضه — عليه
 الصلاة والسلام — تبليغ الرسالة التي إئتمنه الله عليها وكلفه أن يقوم
 بها، فبلغها للناس أعظم ما يكون التبليغ وقام بأدائها أعظم ما يكون
 القيام، وإحتمل في سبيلها أشق ما يحتمله البشر. (٨٦)

والأمانة صفة ملازمة لرسول الله حتى قبل أن يبعثه الله هادياً
 ومبشراً، ونذيراً، وقد عرف العرب هذه الصفة في محمد بن عبد الله —
 عليه الصلاة والسلام — فكانوا يسمونه الأمين، ولهذا رحبوا بتحكيمة
 فيما كان بينهم من نزاع، وإرتضوا ما قضى به. وذلك عندما أعادت
 القبائل من قريش بناء الكعبة، حتى بلغ البنيان موضع (الحجر الأسود)
 فاختلفوا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى
 تحاوروا وتحالفوا، ووصل الأمر بهم إلى حد الاستعداد للقتال، لنيل
 شرف رفع الحجر إلى موضعه، إلا أن أبا أمية بن المغيرة حسماً
 للخلاف، ومنعاً لإراقة الدماء والقتال، أشار عليهم قائلاً: يا معشر

قريش إجعلوا بينكم — فيما تختلفون فيه — أول من يدخل من هـذا الباب يقضى بينكم، فقبلوا رأيـه.

فكان أول من دخل عليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما إنتهى إليهم، وأخبروه الخبر، قال — صلى الله عليه وسلم — : هلم إلى ثوباً، فأتى به، فأخذ الحجر فوضعه بيده، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناصية من الثوب، ثم إرفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه رسول الله بيده الكريمة ثم بنى عليه.(٨٧)

وبهذا الرأي الصائب، والعمل الشريف، أَرْضَى رسول الله القبائل كلها وحسم نزاعها، وأشركها في الشرف الذى كانت تتنافس عليه. ولما كان الوفاء بالوعد يدخل ضمن الأمانة، فمن أوفى وعداً من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد روى أن رسول الله كان وعد أبا الهيثم بن النبهان خادماً، فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحد، فأنت فاطمة — رضى الله عنها — تطلب منه خدماً، وتقول : ألا ترى أثر الرحي بيدي؟ فذكر رسول الله موعدة لأبى الهيثم، فجعل يقول: "كيف بموعدى لأبى الهيثم" فأثره به على فاطمة — لما كان قد سبق من وعده له — مع إنها إنتته، وكانت تدير الرحي بيدها الضعيفة.(٨٨)

ولما كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — معلماً للإنسانية، وهادياً للبشرية، فقد غرس فى نفوس المسلمين حب الأمانى، وعدم الغش، وذلك عندما مر رسول الله فى السوق على كومة من الطعام فإدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال " ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله. فقال "أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس من غشنا فليس منا.

بالإضافة إلى هذا ففي الكثير من أقوال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إشادة بالأمانة وحض المسلمين عليها ، نذكر على سبيل المثال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — " لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنم والصدقة مغرماً". وقال عليه الصلاة والسلام : "أد الأمانة إلى من إئتمنك ولا تخن من خانك". وفي الصحيحين عن أبي هريرة، أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : "أيه المنافق ثلاثة إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان". (٨٩)

أى إذا إئتمنه أحد بكلمة خانه بإفشائها للناس، أو بوديعة خانه بإنكارها وعدم حفظها، أو إستعمالها بغير إذنه، فحفظ الأمانة صفة الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين، وشيمة الأبرار المتقين. ولعظم الأمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وذلك فى قوله تعالى : "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها". (٩٠) وعلى الرغم من إختلاف العلماء فى ماهية هذه الأمانة، إلا أن رأى الأعم فى هذا الصدد أن معنى الأمانة فى هذه الآية الطاعة والفرائض التى يتعلّق بأدائها الثواب والعقاب، قال القرطبي : الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال. (٩١)

والذى نريد إيضاحه فى هذا المقام، مدى المسؤولية التى ستلقى على السماوات أو الأرض، أو الجبال، إذا ما قبلت أى منهم الأمانة، لذلك إمتنع عن قبولها خوفاً من الخيانة، أو عدم أداء هذه الأمانة. والإنسان هو الذى تحمل هذه الأمانة وذلك فى قوله تعالى : "وحملها الإنسان أنه كان ظلوماً جهولاً". (٩٢)

وجدير بالذكر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أوصى في خطبة الوداع بالأمانة وذلك أن رسول الله عندما حج بالناس، أراهم مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب فيهم خطبته التي بين فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "أيها الناس، اسمعوا قولي، فأني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وأنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها....(٩٣)

الرحمة :

رحمة — من باب فرح — رحماً ورحمة ومرحمة : أى رق قنبه له وعطف عليه، فهو راحم إسم فاعل. والرحمة مشتقة من الرحم،... وهى تطلق على الأقارب مجازاً (أولو الأرحام) واصلها جميعاً الرحم، وهو مكان الجنين فى بطن أمه.(٩٤)

قال تعالى: "ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن".(٩٥)

ولما كانت الرحمة تشتمل على كثير من الصفات الحميدة، مثل: العفو والعطف، والحنان، والرفق، والشفقة، والمغفرة.... لذلك أثرناها دون غيرها من هذه الخصال حتى ندخلها ضمن القوى المعنوية لفتوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والرحمة من صفات الخالق سبحانه وتعالى، فهو القائل : "إن رحمة الله قريب من المسلمين". (٩٦) وقال تعالى : "وربك الغفور ذو الرحمة"(٩٧) وقال تعالى : "قلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين"(٩٨)

والرحمة من أخص الصفات التى وصف بها الحق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد تردد وصف سول الله بالرحمة فى كتاب الله فى أكثر من موضع نذكر منها : قوله تعالى : "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".(٩٩) وقال تعالى : "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم"(١٠٠)

وإذا ما نظرنا إلى مظاهر رحمته — عليه الصلاة والسلام — نجد أنها تعددت وتتنوعت، فوسعت المسلمين، وغير المسلمين، واتسعت

للأصدقاء والأعداء، وشملت الأحرار والأرقاء، وإمتدت إلى الكبار والصغار، وإستوعبت الطير والحيوان.

ففى غزوة حنين ساق المسلمین الشیماء بنت الحارث - أخت الرسول من الرضاعة - إلى رسول الله، فعنفوا عليها فى السیاق، فقالت لهم : إعلموا أنى أخت صاحبكم من الرضاعة، فلم یصدقوها، حتى أتو بها إلى رسول الله، فقالت : یا رسول الله، أنى أختك من الرضاعة. قال : وما علامة ذلك؟ قالت : عضه منك فى ظهري، فعرف رسول الله - صلى الله علیه وسلم - العلامة، فبسط لها رداءه، فأجلسها علیه وخبرها، وقال : إن أحببت فعندى محبة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك، وترجعى إلى قومك فعلت. فقالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومى. (١٠١)

وأصدق مثال على رحمة رسول الله - صلى الله علیه وسلم - موقفه من قريش يوم فتح مكة فلا يخفى على أحد ما لاقاه رسول الله من إيذاء قريش له ولأصحابه، إلا أن موقفه - صلى الله علیه وسلم - لم يكن مقابلة الإساءة بمثلها إنما كان موقفاً يدل على رجولة كاملة وفتوة تامة، موقفاً يدل على الرحمة، والعفو عند المقدرة، والمغفرة والإحسان إلى صاحب الإساءة والإيذاء.

فعندما دخل رسول الله مكة قام على باب الكعبة، فقال "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.... يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، ما ترون أنى فاعل فيكم؟ قالوا : خيراً أخ كريم، وإبن أخ كريم، قال : إذهبوا فأنتم الطلقاء". (١٠٢)

ثم جلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المسجد، فقام إليه على بن ابي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال : يا رسول الله، إجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله : "أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء.(١٠٣)

ومن مظاهر رحمته - صلى الله عليه وسلم - بالأطفال، أنه كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة، وليسميه، فيأخذه فيضعه في حجره.... فربما بال الصبي، فيصيح به بعض من يراه، فيقول النبي: لا ترموا (لا تقطعوا) الصبي بوله فيدعه حتى يقضى بوله، ثم يفرغ من دعائه له وتسميته، ويسر أهله به، لئلا يروا أنه تأذى ببوله، فإذا إنصرفوا غسل رسول الله ثوبه بيده.(١٠٤)

رأى الأقرع بن حابس رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وهو يقبل ولده (الحسن أو الحسين) فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم فقال عليه الصلاة والسلام : "إن من لا يرحم لا يُرحم".(١٠٥)

وقال عبد الله بن شداد : بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي بالناس إذ جاءه الحسين، فركب عنقه وهو ساجد، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر، فلما قضى صلاته قالوا : قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمراً فقال عليه الصلاة والسلام : "إن إني قد إرتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته".(١٠٦)

كذلك من مظاهر رحمة رسول الله بالأطفال، أنه في يوم تعثر الحسن — ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — على منبره — فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى : "إنما أموالكم وأولادكم فتنة". (١٠٧)

وإذا كانت رحمة رسول الله وسعت المسلمين وغير المسلمين، الأصدقاء والأعداء، وإمتدت للكبار والصغار، فإنها — أيضاً — قد شملت الأحرار والأرقاء فقد أوصى رسول الله بالأرقاء خيراً، إذ قال : "إنقوا الله فيما ملكت أيماكم أطعموهم مما تاكلون، وأكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتهم فأمسكوا، وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم، ولو شاء لملكهم إياكم". (١٠٨)

بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنس بن مالك، لقضاء حاجة، فأبطأ عليه فتبعه فوجده في فتية يلعبون، فما أذاه أو عنفه أو قال له قولاً يغضبه، وإنما قال — عليه الصلاة والسلام : "يا أنس اذهب إلى حيث أمرتك".

وأمام هذه الأخلاق الكريمة والرحمة التي إتسعت إلى حد أنها شملت الأرقاء قال أنس بن مالك : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحسن الناس خلقاً فقد خدمته مدة عشر سنين في السفر والحضر، والله ما قال لي شيء صنعت له لم صنعت هذا هكذا؟ ولا شيء لم أصنعه، لم لم تصنع هذا هكذا؟.

وقال عبد الله بن عمر : جاء رجل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله كم نغفو عن الخادم؟ فصمت عنه رسول الله.... ثم قال : "أعف عنه في كل يوم سبعين مرة" (١١٠)

ما أروع عفو رسول الله، وما أصدق رحمته — صلى الله عليه وسلم — بالأرقاء الذين لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، فلم يقل لصاحب السؤال كلما أخطأ أعف عنه إنما قال: "أعف عنه في كل يوم سبعين مرة" وذلك حتى يكون العفو مستمراً، والرحمة دائمة في كل وقت من الأوقات، وليس في وقت بعينه.

كذلك نجد أن رحمته — صلى الله عليه وسلم — "امتدت إلى الطير والحيوان وكثيراً ما كان يدعو إلى رحمته. فمن مظاهر هذه الرحمة قوله عليه الصلاة والسلام: "عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، فلا هي أطعمتها وسقته، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض". (١١١)

وقال صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل يمشى في الطريق فأشعث العطش فوجد بئراً فنزل بها وشرب ثم طلع... فإذا كلب يلهث من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فملاً خفه ماء... ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله تعالى. فغفر له. فقال بعض الصحابة: يا رسول الله وأن لنا في البهائم أجراً؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "في كل ذات كبد رطبة أجر". (١١٢)

رأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جزاراً قد أضجع شاة للذبح وأخذ يعد شفرته أمامها فقال له: "أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تفجعها.

ورأى جزاراً — آخر — يجر شاة من رجلها ليذبحها وقد إنقلبت على جنبها. فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويلك قدها إلى الموت قوداً جميلاً". (١١٣)

إذا كانت هذه بعض مظاهر رحمة رسول الله بالحيوان، فإنه من ضمن مظاهر رحمته بالطير، أنه سافر معه — صلى الله عليه وسلم — بعض أصحابه، فرأوا حُمْرَه — نوع من الطير كالعصفور — معها فرخان لها فأخذوهما، فجاءت تعرش فلما رآها رسول الله قال: "من فجع هذه بولدها؟ ردوا إليها ولدها". (١١٤)

مما سبق يتضح لنا أنه كثيراً ما أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالرحمة وكثيراً ما نهى عن القسوة، ووجدنا أن رحمته — صلى الله عليه وسلم — لم تكن في جانب دون الآخر، إنما هي رحمة شملت شتى الجوانب، رحمة إتسعت للأصدقاء والأعداء وإستوعبت الكبار والصغار، وشملت الأحرار والأرقاء، وإمتدت إلى الطير والحيوان والرسول — صلى الله عليه وسلم — فى ذلك يضرب الأمثال للناس لعلهم يعقلون.

الزهد:

قبل أن نتعرض للزهد عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نود أولاً أن نعرف معنى الزهد. فالزهد : زهد في الشيء يزهد فيه وعنه، إحتقره وأعرض عنه وتركه ولم يرغب فيه. وإذا كان هذا المعنى للزهد يعد تعريفاً لغوياً له. فإن صاحب التعريفات يزيد على المعنى اللغوي معناً آخر، وهو معنى الزهد عند الصوفية. فيقول في اللغة : ترك الميل إلى الشيء وفي إصطلاح أهل الحقيقة (صوفية) هو : بغض الدنيا والإعراض عنها. وقيل هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل هو : أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك. (١١٦)

وإذا كان لا يوجد خلافاً على معنى الزهد من حيث اللغة، إذ يعنى ترك الميل إلى الشيء، فإنه قد أتى الخلاف من حيث المعنى المعنوي للزهد، أو بالأحرى معنى الزهد عند الصوفية. وفي هذا الصدد يقول القشيري : قال الأستاذ الإمام أبو القاسم رحمه الله : يختلف الناس في الزهد، فمنهم من قال : الزهد في الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى: ومنهم من قال : الزهد في الحرام واجب وفي الحلال فضيلة. (١١٧)

وكان إبراهيم بن أدهم يقول : الزهد على ثلاثة أصناف : فرض ويكون في الحرام وواجب ويكون في الشبهات، وسنة ويكون في الحلال. (١١٨)

وقال الجنيد : الزهد خلو القلب عما خلت من اليد. (١١٩) ومعنى ذلك أنه لا يكفي للزاهد أن يخرج الدنيا وزينتها وزخرفها من

يده، وإنما لابد وأن يخرجهما — كذلك — من قلبه، فما قيمة زهد العبد ويده خالية من الدنيا وقلبه شغوف بها.

هذا وقد قسم الإمام أحمد بن حنبل الزهد على ثلاثة أوجه الأول ترك الحرام وهو زهد العوام، والثاني : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. والثالث : ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين. (١٢٠)

وعن معنى الزهد يقول سفيان بن عيينه : الزهد ثلاثة أحرف، فحرف الزاى : أن تترك زينة الدنيا، ومعنى الهاء : أن تترك هوى نفسك، ومعنى الدال : أن تترك الدنيا بأسرها.... فإذا فعلت ذلك فأنت زاهد.

وهكذا نكون قد سمعنا فى الزهد كلاماً كثيراً، ومن أحسن ما رأيناه فيه ما قاله أبو سليمان الداراني : أنه الزهد فى كل شئ يشغل عن الله تعالى حتى العلم والعمل. (١٢١)

ومن كل ما سبق نصل إلى أن الزهد ما هو إلا وسيلة شريفة إلى غاية أسمى وأشرف وليس هو غاية فى ذاته، فالزاهد لا يزهد حتى يقال فلان زاهد، وإنما هو زاهد حتى لا يشغله شئ عن الله عز وجل حتى ولو كان هذا الشئ علماً أو عملاً لا يبتغى صاحبه من وراء مرضاه الله عز وجل.

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن هذا المعنى للزهد قد تحقق فى شخصية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذى زهد فى كل شئ يشغله عن الله عز وجل.

وإذا ما أردنا أن نستعرض بعض مظاهر الزهد فى حياة رسول الله، لوجدنا أن زهده — صلى الله عليه وسلم — كان المثل الأعلى فى الزهد الذى يدل على فتوة تامة ورجولة كاملة لأنه كان الزهد الإختياري، أى أن رسول الله إختار الزهد مؤثراً على نفسه فقراء الأمة ومصالح المسلمين.

فقد روى مسروق عن عائشة — رضى الله عنهما — أنها قالت : قلت يا رسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت : وبكيت لما رأيت به من الجوع. فقال — صلى الله عليه وسلم — يا عائشة والذى نفسى بيده لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكن إخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها، وحزن الدنيا على فرحها. يا عائشة، إن الدنيا لا تتبغى لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة إن الله لم يرضى لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا، ثم لم يرضى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، وقُرا — صلى الله عليه وسلم — قوله وتعالى : " فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل". (١٢٢) وقال : والله مالى بد من طاعته، وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجدى ولا قوة إلا بالله. (١٢٣)

وهكذا نجد أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إختار الزهد، إختار الجوع على الشبع، إختار الفقر على الغنى، إختار الحزن على الفرح.

فقد روى ابن عباس أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج ذات يوم يمشى وجبريل معه، فصعد على الصفا... فقال له النبى : يا جبريل ، والذى بعثك الحق ما أمسى لآل محمد كف سويق، ولا سنة

دقيق، فلم يكن كلامه بأسرع من أن يسمع هدة من السماء أفضعته، فقال رسول الله : أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال جبريل لا، ولكن هذا إسرافيل — عليه السلام — قد نزل إليك حين سمع كلامك، فأناه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت، فبعثني بمفاتيح الأرض، وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً، وياقوتاً، وذهباً، وفضة.... فقلت، وإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً... فأوما إليه جبريل أن تواضع لله. فقال صلى الله عليه وسلم — نبياً عبداً، ثلاثاً. (١٢٤)

وهكذا نجد أن رسول الله، لو علم أن المال يمكن أن يكون غاية للإنسان لبسط يده إليه فأخذه، ونعم به نفسه وصدايقه وأمته جميعاً. لذلك إختار رسول الله أن يكون نبياً عبداً، يجلس كما يجلس العبد، ويأكل كمل يأكل العبد، دائم التفكير، لا يتكلم في غير حاجة، كثير البكاء والضراعة لله عز وجل، يمشي مع الفقراء والمساكين ليقضى حوائجهم، ويتواضع فيخيط نعله ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم أهله. (١٢٥)

هذا ويذكر لنا عمر بن الخطاب، مظاهر الزهد في حياة رسول الله، عندما قالت له إبنته حفصة حينما فتحت عليه الفتوح : إلبس ألين الثياب إذا وفدت الوفود من الأفاق، ومر بصنعة الطعام، تطعمه وتطعم من حضر.

فقال عمر : يا حفصة، ألسنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت : بلى. قال : قد ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا

عشية، ولا شبعوا عشية إن جاعوا غدوة؟ وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي — صلى الله عليه وسلم — لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهل بيته حتى فتح الله عليه خير وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله، قربتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها إرتفاع، فسق ذلك عليه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت، ووضع الطعام على دون ذلك، أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية، فثبت له ليلة أربع طاقات فنام عليها، فلما استيقظ قال : "منعتموني قيام الليل بهذه العباءة إثنونها بإثنين كما كنتم تثنونها". وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله، كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه يخرج بها إلى الصلاة؟... فما زال يقول حتى أبكاها وبكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإنتحب.(١٢٦)

وتحدثنا السيدة عائشة عن معيشة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قائلة : كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله مصباح ولا نار. فقيل لها : فبم كنتم تعيشون؟ قالت : بالأسودين : التمر والماء.(١٢٧)

حقاً لقد زهد رسول الله في الدنيا مع قدرته عليها، وزهد في المال مع قدرته على الإمتلاك، وزهد في المأكل والمشرب، والملبس والفراش، مع قدرته على العيش في رغد ونعيم، إذ أنه — عليه الصلاة والسلام — كان له فراش من آدم حشوه ليف، وكانت له عباءة تفرش له حينما تنقل ثنتي طافتين تحته وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره.(١٢٨)

وفى يوم أتى بإناء فيه عسل ولبن. فأبى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يشربه وقال : شربتان فى شربة وإدامان فى إناء ثم قال — صلى الله عليه وسلم — لا أحرمه ولكن أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غداً وأجب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله. وكان — صلى الله عليه وسلم — لا يسألهم طعاماً ولا يشتهاه عليهم، إن أطعموه أكل، وما أعطوه قبل، وما سقوه شرب، وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب.(١٢٩)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن هذه الحياة الزاهدة التى إختارها رسول الله، جعلت نساءه يشتكين من أنهم لا يجدن ما يكفين من النفقة والزينة وإجتمعن فحدثن النبی بهذا فلم يفعل أكثر من تخيرهن بين الرضا الصابر أو التسريح الجميل وفى نفسه — صلى الله عليه وسلم — ألم من شكواهن لم يخفه عليهن، ولا على صاحبيه وصهره أبى بكر وعمر.... فقد دخل عليه أبو بكر وعمر فواجدها واجما وحوله نساؤه، ففهم أبو بكر أن إجتماعهم لشيئ متصل برغبات فأراد أن يسرى عن رسول الله. فقال : يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة، سألتنى النفقة فقممت إليها فوجأت عنقها. فضحك رسول الله وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة. فقام أبو بكر إلى عائشة بجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة بجأ عنقها... وهما يقولان : تسألن رسول الله ما ليس عنده؟ فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده ثم إعتزلهم رسول الله شهراً فنزلت الآية الكريمة : "يا أيها النبی قل لازواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً.

وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً". (١٣٠)

فقال رسول الله للسيدة عائشة : أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تتعجلي فيه حتى تستشيري أبويك. قالت : وما هو يا رسول الله؟ فقرأ الآية... فقالت : أفيك يا رسول الله استشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة.

ثم خير النبي نساءه جميعاً، فأجبن بما أجابت به السيدة عائشة، ورضين بحال يستمتع بخير منها كثيرات من المعاصرات لهم ممن هن دونهم مكانه ومقاماً وصبراً (١٣١) ذلك لأنهن إخترن الله ورسوله والدار الآخرة، مفضلين ذلك على الحياة الدنيا وزينتها.

والآن نريد أن نتساءل هل كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذا ثراء ومال حتى يثبت أن زهده عن إقتدار؟

نعم كان لرسول الله مال، وكان ماله كثير في بعض الأحيان، إذ كان له — عليه الصلاة والسلام — خمس الغنائم التي يصيبها المسلمون من محاربيهم، وقد كانت الحروب كثيرة، وكانت الغنائم موفورة منذ غزوة بدر، حتى إنتشر الإسلام في سائر أنحاء الجزيرة العربية.

وهذا الخمس لم يحدده رسول الله إنما الذي حدده الله وذلك في قوله تعالى : "وأعلموا إنما غنتم من شيء فإن الله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وإين السبيل" (١٣٢)

ففي هذه الآية الكريمة حدد الحق سبحانه وتعالى أن الغنائم تقسم خمسة أخماس، للمجاهدين أربعة أخماس الغنيمة، وللرسول خمس

يختص به نفسه وأقاربه، واليتامى والمساكين وأبناء السبيل، كما هو واضح في الآية.

كذلك كان لرسول الله نصيب من الفئ وهو الذي ناله المسلمون من أموال المشركين، وأهل الذمة، بغير حرب كالجزية، وما تركوه في حروبهم خوفا من المسلمين وما صالحوا المسلمين عليه (١٣٣). كالصالح الذي تم مع صاحب أيلة، ويحدثنا ابن هشام عن هذا الصالح قائلًا : ولما انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤية - صاحب أيلة - فصالح رسول الله، وأعطاه الجزية... وأتاه أهل جرباء وأذرخ فأعطوه الجزية فكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهم كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله، ليحنة بن رؤية وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر، لهم نعمة الله، ونعمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يردونه، من بر أوبحر. (١٣٤)

وهكذا نكون قد إستعرضنا نماذج من زهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك الزهد الذي يدل على فتوة كاملة ورجولة تامة، ذلك لأنه - عليه الصلاة والسلام - زهد في الدنيا حين أقبلت عليه، وزهد في المال الذي كان يأتيه كثيرا من الغنائم والفئ... مؤثرا فقراء ومساكين المسلمين على نفسه، وزهد في المأكل والملبس والفراش مع قدرته - عليه الصلاة والسلام - على العيش في رغد ونعيم. مؤثرا للدار الباقية على الدار للفانية، بعد أن علم أن الدنيا بزینتها وزخرفها لا تساوي عند الله جناح بعوضه.

هوامش الفصل الثانى

- (١) سورة الانبياء : الآية ٦٠
 - (٢) التفسير الوسيط : الحزب ٣٣ ص ١١٣١ مجموع البحوث الاسلامية ٨٣
 - (٣) ابن عربى : الفتوحات المكية السفر الرابع ص ٦٥ تحقيق د. عثمان يحيى
 - (٤) سورة الزاريات : الآيات ٢٤ — ٢٦
 - (٥) القشيري : لطائف الاشارات ج ٦ ص ٣٣، ٣٤
 - (٦) القشيري : لطائف الاشارات ج ٦ ص ٣٤ دار الكتاب العربى القاهرة
 - (٧) سورة النجم : الآية ٣٧
 - (٨) سورة هود : الآية ٧٥
 - (٩) سورة الأنبياء : الآية ٦٩
 - (١٠) سورة يوسف : الآية ٣٠
 - (١١) سورة يوسف : الآية ٣٣
 - (١٢) القشيري : لطائف الاشارات ج ٣ ص ١٨٣ دار الكتاب العربى بالقاهرة
 - (١٣) أحمد الصباحى عوض الله : حياة وأخلاق الأنبياء ص ١٤٥ ط ١ / أولى ٨٣
 - (١٤) سورة يوسف : الآية ٢٣
 - (١٥) سورة يوسف : الآية ٩، ١٠
 - (١٦) سورة يوسف : الآية ٢٠
 - (١٧) سورة يوسف : الآية ٥٠
 - (١٨) الشعرائى : اليواقيت والجواهر ج ٢ ص ١٤، ١٥ مطبعة البابى الحلبي
- .١٩٥٩

- (١٩) سورة يوسف : الآية ٩٣
- (٢٠) سورة الكهف : الآية ١٣
- (٢١) سورة الكهف : الآية ١٠
- (٢٢) القشيري : لطائف الاشارات ج ٤ ص ٥٢
- (٢٣) سورة الكهف : من الآية ١٨
- (٢٤) القشيري : لطائف الاشارات ج ٤ ص ٥٦
- (٢٥) القشيري : لطائف الاشارات ج ٤ ص ٥١
- (٢٦) سورة الكهف : الآية ٦٠
- (٢٧) سورة الكهف : الآية ٦٢
- (٢٨) سورة يوسف : الآية ٦٢
- (٢٩) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٢١ مكتبة الكليات الأزهرية ٧٤
- (٣٠) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٥
- (٣١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٩٠
- (٣٢) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ١٤٣ دار نهضة مصر ١٩٦٦
- (٣٣) سورة الأنفال : الآية ٦٠
- (٣٤) سورة التوبة : الآية ٤١
- (٣٥) سورة التوبة : الآية ١١١
- (٣٦) سورة الأنفال : الأيتان ١٥ ، ١٦
- (٣٧) سورة فصلت : الآيات ١ — ٥
- (٣٨) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٦١ مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٧٤
- (٣٩) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٤٠ — مكتبة الكليات الأزهرية ٧٤

- (٤٠) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١٧٠
- (٤١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبي ص ٨٠ — دار النهضة مصر ٧٩
- (٤٢) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٨٠
- (٤٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ١٦، ١٧
- (٤٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٨
- (٤٥) المرجع السابق : ص ٢٨
- (٤٦) المرجع السابق ج ٤ ص ٦٤، ٦٦
- (٤٧) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبي ص ٩٠ دار نهضة مصر سنة ١٩٧٩
- (٤٨) ابن القيم : الفروسية ص ٢٥، ٢٦ دار التراث العربى
- (٤٩) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبي ص ٨٧ — دار نهضة مصر ٧٩
- (٥٠) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ٤٣
- (٥١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبي ص ٨٧
- (٥٢) المرجع السابق ص ٨٧
- (٥٣) ابن القيم : الفروسية ص ١٤ دار التراث العربى
- (٥٤) ابن القيم : الفروسية ص ١٤ دار التراث العربى
- (٥٥) المرجع السابق : ص ١٤٦
- (٥٦) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبي ص ٨٧ دار نهضة مصر ٧٩
- (٥٧) ابن القيم : الفروسية ص ٥ دار التراث العربى
- (٥٨) المرجع السابق : ص ٦
- (٥٩) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٨ مكتب الكليات الازهرية ٧٤
- (٦٠) ابن القيم : الفروسية ص ٢٨ دار التراث العربى

- (٦١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص ٨٨ دار نهضة مصر ٧٩
- (٦٢) المرجع السابق : ص ٨٩
- (٦٣) سورة الأنفال : الآية ٦٠
- (٦٤) د. أحمد محمد الحوفى : من اخلاق النبى ص ٩٣
- (٦٥) سورة الفتح : الآية ٢٩
- (٦٦) د. عبد الحليم محمود : الرسول — صلى الله عليه وسلم — ص ١٨٥
- (٦٧) سورة القلم : الآية ٤
- (٦٨) الطوسى ، اللمع ص ١٣٩ — تحقيق د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي
سرور ط ١٩٦٠
- (٦٩) د. أحمد محمد الحوفى : من اخلاق النبى ص ٩٧ — دار نهضة مصر ٧٩
- (٧٠) الغزالى : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٧٩
- (٧١) المرجع السابق : ص ٣٧٩
- (٧٢) الغزالى : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٨٠
- (٧٣) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص ١٠١، ١٠٢ — دار نهضة
مصر ٧٩
- (٧٤) الغزالى : إحياء علوم الدين — ج ٣ ص ٢٤٣، وذكره أبو نعيم الحليه.
- (٧٥) الغزالى : إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٢٤٤
- (٧٦) المرجع السابق : ج ٣ ص ٢٤٥، أخرجه الترمذى
- (٧٧) اللؤلؤ والمرجان : ج ١ ص ٢٤٥
- (٧٨) الغزالى : إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٢٥٣
- (٧٩) سورة آل عمران : الآية ١٨٠
- (٨٠) سورة الحشر : الآية ٩٠

- (٨١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص ١٤٣ — دار النهضة ص ٧٩
- (٨٢) سورة النساء : الآية ٥٨
- (٨٣) سورة البقرة : الآية ٣٨٧
- (٨٤) سورة المؤمنون : الآية ٨، سورة المعارج : الآية ٣٢
- (٨٥) سورة القصص : الآية ٢٦
- (٨٦) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص ١٤٤
- (٨٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ١٨٢
- (٨٨) الغزالي : إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٣٣
- (٨٩) الغزالي : مكاشفة القلوب ص ٤٧ — مكتبة نصير ٧٨
- (٩٠) سورة الأحزاب : الآية ٧٢
- (٩١) الغزالي : مكاشفة القلوب ص ٤٦
- (٩٢) سورة الأحزاب : الآية ٧٢
- (٩٣) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص ١٨٥
- (٩٤) إبراهيم أحمد عبد الفتاح : القاموس القويم للقرآن الكريم جـ ١ ص ٢٦٠ —
- مجمع البحوث ٨٣
- (٩٥) سورة البقرة : الآية ٢٢٨
- (٩٦) سورة الأعراف الآية ٥٦
- (٩٧) سورة الكهف : الآية ٥٨
- (٩٨) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧
- (٩٩) سورة البقرة : الآية ٦٤
- (١٠٠) سورة التوبة : الآية ١٢٨
- (١٠١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص ٧٥

- (١٠٢) المرجع السابق : ص ٤١
- (١٠٣) المرجع السابق : ص ٤٢، ٤١
- (١٠٤) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢١٧
- (١٠٥) المرجع السابق : ص ٢١٨
- (١٠٦) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢١٨
- (١٠٧) سورة التغابن : الآية ١٥
- (١٠٨) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢١٩
- (١٠٩) أحمد الصباحي عوض الله : حياة وأخلاق الانبياء ص ٢٠٧ — مكتبة مدبولي ٨٣
- (١١٠) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٠٩
- (١١١) الزبيدي : تيسير الوصول ج ٢ ص ٥٢ ط ١٣٢١ هـ
- (١١٢) الغزالي : مكاشفة القلوب ص ٧٤ مكتبة نصير ١٩٧٨
- (١١٣) أحمد الصباحي عوض الله : حياة وأخلاق الانبياء ص ٣٤٥ مكتبة مدبولي ٨٣
- (١١٤) الزبيدي : تيسير الوصول ج ٢ ص ٥٢
- (١١٥) إبراهيم أحمد عبد الفتاح : القاموس القويم للقرآن الكريم ج ١ ص ٢٩٠
- (١١٦) الجرجاني : التعريفات ص ١٠١، ١٠٢ البابي الحلبي ٣٨
- (١١٧) القشيري : الرسالة ص ٦٠
- (١١٨) الشعراني : تنبيه المغترين ص ١١٨
- (١١٩) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١٢
- (١٢٠) القشيري : الرسالة ص ٦٢
- (١٢١) الشعراني : تنبيه المغترين ص ١٨٨
- (١٢٢) سورة الأحقاف : الآية ٣٥
- (١٢٣) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٢١

- (١٢٤) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٢٣
- (١٢٥) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الإسلامى ص ١٧ ط ١٩٨٦
- (١٢٦) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٢١، ٢٢٢
- (١٢٧) ابن المبارك : الزهد ج ١ ص ٣٤٥
- (١٢٨) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٧٦
- (١٢٩) المرجع السابق ص ٣٧٣
- (١٣٠) سورة الأحزاب : الايتان ٢٨، ٢٩
- (١٣١) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص ٢٧٦، ٢٧٧ — دار نهضة

مصر

- (١٣٢) سورة الأنفال : الآية ٤١
- (١٣٣) د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى ص ٢٦٦ — دار نهضة مصر ٧٩
- (١٣٤) إين هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ١٢٥ — مكتبة الكليات الأزهرية

١٩٧٤

الفصل الثالث

من فتیان المسلمين

لا جدال أن مدرسة النبوة القائمة على دعائم الإسلام وهدى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد أخرجت للبشرية رجالا أفذاذ، أخذوا القدوة الصالحة والأسوة الحسنة من معلم الإنسانية — صلى الله عليه وسلم — فاهتدوا بهديه واقتبسوا من نوره مثلا عليا نادرة على مر التاريخ .

وكيف لا يكون الأمر كذلك، والحق سبحانه وتعالى يقول : "لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة". (١)

لهذا فقد إمتثل صحابة رسول الله لأوامر الحق تعالى، فكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — معلمهم وقوتهم الصالحة الطيبة، والأسوة الحسنة الكريمة، سواء فى الشجاعة والقوة وفى الوفاء والعدل، والكرم، والعفو، والزهد، والرحمة والمغفرة...

حتى صار كل واحد منهم يعدل أمة كاملة فى رجولته، ورجاحة عقله، ونفاذ بصيرته وتمام فتوته. ذلك لأنهم تأدبوا وتعلموا فى مدرسة النبوة وعلى يد رسول الله، فأحسن تأديبهم وتعليمهم، ولذا قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : "أصحابى كالنجوم فبأيهم إقتديتم إهتديتم". فكانوا أجزل الرجال وأتمهم عقلا ورجولة وبطولة — ونماذج فذة فى الأخلاق الكريمة بهرت الفرس وزلزلت عروشهم فدانت لهم ديارهم، وجعلت المسيحيين فى أرض الروم يدخلون فى دين الله أفواجا. (٢)

وفى هذا الصدد يقول السير أرنولد : وإذا ما نظرنا إلى التسامح الذى إمتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الاسلامى ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق.(٣)

حقاً أن سماحة الإسلام كان هو العامل الاساسى فى إنتشار الدعوة الإسلامية وليس السيف كما يدعى الكثير ممن يجهلون حقيقة الإسلام. وهذا التسامح من أثر التعاليم الإسلامية التى وردت فى كتاب الله، ومن أثر معاملة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأعدائه وقدوته لأصحابه.

ووما هو جدير بالذكر أنه لا يسعنا المقام حتى نستعرض سمات القوة بشقيها المادى والمعنوى فى حياة صحابة رسول الله - كافة - وإنما سنكتفى بأن نستقى بعض النماذج عسى أن نقفدى بها حتى تكون لنا هادياً إلى ما فيه الحق والخير والصواب.

أبو بكر الصديق

يذكر ابن هشام أن على بن أبى طالب كان أول ذكر من الناس أسلم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمن بدعوته، ثم أسلم زيد بن حارثة (مولى رسول الله) ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافة، وإسمه عتيق.(٤)

وقد أشاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسرعة إستجابة أبى بكر إلى الإسلام قائلاً : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه

عنده كبوة، ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه" (٥)

وإذا ما أردنا أن نتعرف على السمات الحميدة والخصال الرشيدة والتي من خلالها نستطيع أن نتعرف على الفتوة فى شخصية الصديق نجد أن أبرز هذه السمات وأوضح هذه الخصال، السخاء والكرم.

فقد كان أبو بكر يجود بالمال ولا يبخل، وليس جوده وكرمه من أجل إطعام الطعام فحسب بل تعدى جوده وكرمه أبعد من ذلك إلى إنقاذ الحياة من الهلاك والموت ومن الأمثلة الدالة على ذلك موقفه مع بلال عندما مر به وهو يعذب فى بطحاء مكة، وقت الظهيرة. فقال أبو بكر لأمية بن خلف : ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى، فقال أبو بكر، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به. قال : قد قبلت... هولاك. فأعطاه أبو بكر الصديق غلامه وأخذ بلال فأعتقه. (٦)

وهنا نريد أن نتساءل، هل كان أبو بكر الصديق يهدف من وراء ذلك الكرم والمجد والرياسة والسؤدد فى القبيلة أم أنه كان يريد شيئاً آخر خلاف ذلك؟ وتأتى الإجابة على هذا التساؤل على لسان أبو بكر نفسه — عندما قال له أبوه (أبو قحافة) : يا بنى، أنى أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذا ما فعلت أعتقت رجالاً جلدًا يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال الصديق : يا أبت، أنى إنما أريد ما أريد الله عز وجل. (٧)

مما سبق يتضح لنا أن ما يبتغيه الصديق، إنما هو مرضاه الله عز وجل ولا يهدف من وراء هذا المجد والسيادة، كما هو الشأن فى الجود والكرم فى الجاهلية. وفى سبيل ذلك لاقى أبو بكر من قومه

الأذى، حتى ضاقت عليه مكة، فاستأذن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً؟، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين... لقيه ابن الدغنة، وهو يومئذ سيد الأحابيش* . فقال ابن الدغنة : أين يا أبا بكر؟ قال : أخرجنى قومي وأذونى، وضيقوا على فقال : ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم... أرجع فأنت فى جوارى، فرجع معه.

وكان لأبو بكر مسجد عند باب داره، فكان يصلى فيه ويتعبد، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن بكى من خشية الله... وكان الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته فمش رجال من قریش إلى ابن الدغنة، فقالوا : يا بن الدغنة إنك تجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى... ونحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وعبيدنا أن يفتنهم، فأتته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء... فمشى ابن الدغنة إليه فقال له : يا أبا بكر، أنى لم أجرك لتؤذى قومي، فأدخل بيته فاصنع فيه ما أحببت فقال أبو بكر : أو أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله؟ قال : فأردد على جوارى قال : قد رددته عليك. فقام ابن الدغنة فقال يا معشر قریش، إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى فشأنكم بصاحبكم.(٨).

لقد أرنأ أن نروى هذه القصة — كما ذكرها ابن هشام — ذلك لأنها تتضمن — العديد من السمات التى يتحلى بها الفتيان وأهم هذه

* الأحابيش، قبائل من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمه بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة، تحالفوا جميعاً فسموا هذا الحلف (الأحابيش)

السمات ما شهد به ابن الدغنة نفسه — فى حق أبى بكر حين قال :
إنك لتزين العشيرة، تعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب
المعدوم. من هذه الشهادة يتضح لنا أن هذه الصفات كانت سمات
أساسية فى شخصية أبى بكر الصديق قبل الإسلام، وبعده.

وإذا كانت هذه الصفات تجعل صاحبها حسب رأى ابن الدغنة،
يزين العشيرة وترفعه إلى مرتبة المجد والسيادة فى قومه، وهذا غاية ما
يبتغيه الفتى فى المجتمع الجاهلى.

إلا أننا نجد أن هذه الصفات التى يتحلى بها الصديق لم تكن
لغرض دنيوى أو بهدف السيادة أو إبتغاء المجد والرياسة فى قومه،
وإنما كان يهدف إلى نصره إخوانه المسلمين الذين يعذبون فى بطحاء
مكة، وإبتغاء مرضاة الله ورسوله.

وفى هذه القصة — أيضاً — تتجلى شجاعة الرأى فى فتوة
الصديق، إذ أنه أثر المشقة والأذى فرد على ابن الدغنة جواره، ولم
يستجب إلى ما يدعوه إليه، ورضى بجوار الله عز وجل.

وإذا كان الإيثار من أهم الصفات التى يتحلى بها الفتى — فى
الإسلام — فقد روى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال لأبو
بكر: "ما أصبح اليوم عند آل محمد من شئ يقوتهم" فأتاه أبو بكر بجميع
ماله حتى وضعه بين يديه، فقال له رسول الله : " ما تركت لأهلك يا أبا
بكر". فقال : الله ورسوله. (٩)

وهكذا يثبت أبو بكر صدق محبته لرسول الله — صلى الله عليه
وسلم — فى أنه أثره على نفسه وأهله بكل ماله. وقال لرسول الله عندما
سأله ما تركت لأهلك الله ورسوله.

وجدير بالذكر أن هذا الرد يعد غاية الأدب من أبى بكر حين
 قرن رسول الله مع الله تعالى فتحاً لباب، أن رسول الله — صلى الله
 عليه وسلم — لو قدر أنه رد على أبى بكر شيئاً من ماله لكان قبله من
 يده — صلى الله عليه وسلم — لكونه ترك رسول الله لأهله يعولهم، فما
 حكم أبو بكر فى ماله إلا ما إستتابه رب المال. (١٠)

وإذا كان الفتى يقتدى برسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى
 إختياره للزهد، فيختار الجوع على الشبع، ويختار الفقر على الغنى،
 ويختار الحزن على الفرح، فإن الصديق خليفة رسول الله، قد أكد على
 هذا، ودلل عليه بالدليل الواضح، فقد روى عنه الزهرى أنه حين بوع
 بالخلافه، إعتلى المنبر وخطب وقال فى أثناء الخطبة : ... والله ما
 كنت حريصاً على الإمارة يوماً، ولا ليله قط، ولا كنت فيها راغباً،
 ولا سألتها لله قط فى سر ولا علن، ومالى فى الإمارة من راحة. (١١)
 ويطول بنا المقام إذا ما إستعرضنا مظاهر الزهد فى حياة
 الصديق، ولكن نكتفى بهذا القدر من معرفة سمات الفتوة عند الخليفة
 الأول أبو بكر الصديق وننتقل الآن إلى فتى آخر من فتيان المسلمين
 حتى نتعرف على سمات الفتوة عنده.

عمر بن الخطاب :

لقد إجتمعت فى شخصية الفاروق عمر بن الخطاب صفات الرجولة الكاملة وسمات الفتوة التامة، فكانت شخصيته تعبر تعبيراً صادقاً عن طبيعة الفتيان بما تحويه من صفات وسمات مثل : الشجاعة، والحزم، والغيرة، على الشرف والنجدة والنظام، والطاعة، وتقدير الواجب...

إلى جانب ذلك فقد إختار عمر بن الخطاب لبس المرقعة تزهداً — وهو أمير المؤمنين — وترك الشهوات، وإجتنب الشبهات، وقلة المبالاة من لائمة الخلق عند إنتصاب الحق، ومحق الباطل، ومساواة الأقارب ، والأعداء فى الحق، والتمسك بالأشد من الطاعات.(١٢) وإذا كان العدل من أخص الصفات التى إتصف بها الفاروق عمر، فإن هذا العدل إنما هو نتيجة محاسبة النفس التى ألزم بها عمر نفسه وذويه، ورعيته، فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا قبل أن توزنوا... وأنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم.(١٣) يقول الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطاب، فلقى رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معى فأعدنى على فلان فقد ظلمنى.... فرفع عمر درته، وخفق بها رأس الرجل وقال له : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم مقبل عليكم، حتى إذا أشغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه، أعدنى... أعدنى... فأنصرف الرجل غضبان أسفاً... فقال عمر : على بالرجل... فلما عاد ناوله مخففته وقال له : خذ واقتصى لنفسك منى فقال الرجل : لا والله ولكن ادعها لله. وأنصرف..

ويستطرد الأحنف بن قيس قائلا : وعدت مع عمر إلى بيته
فصلى ركعتين، ثم جلس يحاسب نفسه ويقول : إسن الخطاب كنت
وضيعا فرفعك الله، وكنت ضالا فهدك الله، وكنت ذليلا فأعزك الله... ثم
حملك على رقاب الناس، فجاءك رجل يستعديك فضربته، فماذا تقول
لربك غدا إذا أتيتك. (١٤)

ماذا تقول لربك غدا... في هذه العبارة الموجزة تتضح لنا
محاسبة النفس وتأديبها عند عمر بن الخطاب، هذه المحاسبة التي كانت
منهاجه في الحياة، أمام كل لقمة شهية، وأمام كل شربة باردة وأمام كل
ثوب جديد تساقط دموعه... تلك الدموع التي تركت على خديه خطين
أسودين من فرط بكائه، ويصلصل داخل نفسه هذا النذير : ماذا تقول
لربك غدا.

لقد حاسب عمر نفسه وأدبها حتى تستقيم، وتترك أن ما هي
عليه من نعم ليس بحولها ولا قوتها، وإنما هو فضل من الله ومنة، ولقد
وهبها الله تعالى هذه النعم كوسيلة لإختبار معدنها، وهذه المحاسبة حتى
تتخلص النفس من كل وصف مذموم وتستبدل به كل وصف
محمود. (١٥)

وإذا كانت القوة والبطش من سمات الفتيان فقد كانت هذه السمة
واضحة حلية لا تخفى على أحد في شخصية الفاروق إلا أنها لم تكن
قوة وبطش إلا باسم الدين، قوة في تنفيذ أوامر الله، وبطش على إعداء
الله لاجتناب ما نهى عنه سبحانه وجدير بالذكر أن هذه القوة والبطش
والشدة على الأعداء ومن يخالفون أوامر الله عز وجل، كان يقابلها
رحمة ومودة وعطف على المؤمنين الذين يتبعون أوامر الله ويجتنبون

ما نهى عنه. وصدق الله تعالى إذ قال : "محمد والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم". (١٦)

ويطول بنا المقام إذا ما اردنا أن نعرض لمواقف الرحمة فى حياة عمر بن الخطاب انما نكتفى بأن نفتبس منها النذر القليل، عسى أن تكون لنا نبراسا فى هذه الحياة التى طغى عليها العنف والقسوة. فقد خرج عمر بن الخطاب يوما مع أحد أتباعه، فوجد امرأة معها صبيان وقد منصوب على نار.... وصبيانها يتصايحون..... فدنا منها عمر وقال للمرأة : ما بال هؤلاء الصبية يتصايحون؟ قالت. الجوع : وأى شئ فى هذا القدر؟ قالت : ماء اسكتهم به حتى يناموا.... والله بيننا وبين عمر قال : أى رحمك الله. وما يدري عمر بكم؟ فقالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟ فتركهم عمر ومعه تابعه، وذهب إلى دار الدقيق وأخذ منه مقدارا ومقدار من شحم... وقال لتابعه : أحمله على فقال : أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين قال : أنت تحمل وزرى يوم القيامة؟

ورجع عمر بما يحمل إلى المرأة... وبقي معها يساعدها حتى طبخت وأطعمت صبيانها حتى شبعوا... وهى تقول له جزاك الله خيرا، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين. (١٧)

وأمثال هذه القصة فى سيرة عمر كثير، لا يقال أنها هى ومثيلاتها من الشعور بالمسئولية، وليست من الرحمة، لأن العهد بالشعور بالمسئولية أن يأتى من الرحمة وليس العهد بالرحمة أن يأتى من الشعور بالمسئولية.

بالإضافة إلى هذا، فموقف عمر هنا لو كان نتيجة الشعور بالمسئولية، لكان إكتفى بأن أرسل الدقيق والشحم إلى المرأة مع أحد

أتباعه، أو على الأكثر لكان ذهب بنفسه إلى المرأة وإعطائها الطعام دون أن ينتظر ويساعدها حتى تطعم صبيانها. ولكن الرحمة هي التي سيطرت على الفاروق في هذا الموقف.

وجدير بالذكر أن صفة الرحمة في شخصية عمر بن الخطاب اتسعت وامتدت حتى شملت أهل الذمة، فعندما رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب، وعلم أنه يهودى... قال له : ما الجأك إلى هذا؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه ساعته... وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : أنظر هذا وأمثاله، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخزله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب... ووضع عنه الجزية وعن أمثاله. (١٨)

هذه الرحمة عند عمر بن الخطاب كان المحرك لها المحاسبة لنفسه وتأديبها وذلك النذير الذي كان يصلصل داخل نفسه : ماذا نقول لربك غداً إذا أتيتك؟

وإذا كنا قد وجدنا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إختار الفقر على الغنى وإختار الجوع على الشبع، وإختار الحزن على الفرح، وإقتدى به في هذا الشأن أبو بكر الصديق، فإن عمر كان يستحضر هذا دائماً ويكره أشد الكره أن يأكل أو يلبس خيراً مما أتىح للنبي وأبو بكر.

ومما يذكر في هذا الصدد أنه طلب منه يوماً بعض أصحابه أن يرفق بنفسه فيما يطعم أو يلبس، فكانت إجابته صادرة عن المنهج الذي إرتضاه لنفسه في الحياة والدنيا، إذ قرأ — عليه — قول الله عز وجل :

"أذهبتم طينياتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون". (١٩)

ومن أجل هذا إختار عمر حياة الزهد على حياة الترف، إذ فرض على نفسه أضييق الحياة فى المأكل والمشرب والملبس... مع أنه لم يكن فقيراً، ومع أن المسلمين جعلوه فى حل من أن يأخذ من بيت المال حاجته، وهو لم يفعل ذلك بخلأً أو ضناً على نفسه بما كانت تقتضيه الحياة الراضية من المال. وإنما فعل إيثارا لما عند الله فى الآخرة على ما فى الدنيا من ألوان المتاع. (٢٠)

وهكذا عزله خوفه من الله عن كل ترف، بل عن كل راحة فى الدنيا، أبى أن يصيب وأهله من الطعام إلا تقوتاً، ومن العيش إلا كفافاً مع قدرته على أن يصيب من الطعام أطيبه، ومن العيش أرغده.

عثمان بن عفان

اجتمعت في شخصية عثمان بن عفان كثيراً من الخصال الحميدة التي تمثل القوى المعنوية للفتوة مثل السخاء والكرم، وسماحة النفس، والرفق والرحمة والحلم.... وكانت الخصلة التي ميزه بها النبي فيما روى المحدثون وأصحاب السير، صدق الحياء وكان النبي يقول: "إن الملائكة لتستحي من عثمان". وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يلقى أصحابه متفضلاً غير متكلف، فإذا أذن لعثمان إحشام وقال: "كيف لا تستحي من رجل تستحي منه الملائكة".

وكان رسول الله يعلل إحشامه حين يأذن لعثمان بأنه إن لم يفعل إستحيا عثمان أن يثبت بين يديه، وأن يبلغه حاجته، ويأخذ حظه من التحدث إليه. (٢١)

وإذا ما نظرنا إلى كرم عثمان، نجد أنه كان كريماً سخي النفس واليد بماله في سبيل الله، فعل من ذلك ما لم يفعله غيره من أغنياء المسلمين حينئذ، فهو الذي اشترى بئر رومه بألوف كثيرة، وجعلها للمسلمين، وبشره النبي بخير منها في الجنة.

وهو كذلك اشترى أرضاً وسع بها النبي المسجد حين ضاق بالناس وبشره النبي خيراً منها في الجنة. (٢٢)

ولما كانت غزوة تبوك حض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس إلى الإنفاق في سبيل الله، إذ كانت هذه الغزوة في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجذب في البلاد. ويذكر ابن هشام أن عثمان بن عفان أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك فقال رسول

الله — صلى الله عليه وسلم — : "اللهم إرضى عن عثمان فإنى عنه راضى". (٢٣)

ويذكر صاحب الحلية نقلاً عن مسروق أن رسول الله، دعى عثمان بن عفان يوم جيش العسرة فقال : "اللهم إغفر لعثمان ما أقبل وما أدبر، وما أخفى وما أعلن وما أسر وما أجهر". (٢٤)

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن صفة الكرم فى شخصية عثمان بن عفان لم تكن الغاية منها مأرباً دنيوياً، فلم يكن عثمان يطمع من وراء ذلك إلى السيادة أو المجد أو الرياسة إنما كرم عثمان كان إبتغاء مرضاه الله عز وجل ورسوله لذلك كان حاله الإيثار والسخاء، والإبتعاد عن الشح والبخل، وأنه علم أن ما عنده من مال إنما هو مما أنعم الله به عليه فكيف يبخل بما أتاه الله.

والحق سبحانه يقول : " ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة". (٢٥)

وإذا قلنا أن عثمان بن عفان كان كريماً سخياً، تتدفق عليه الأموال فلا يبخل وينفق باليمين والشمال. إلا أنه فى حياته — الخاصة — كان عابداً زاهداً فى الدنيا وزخرفها فكان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت، وكان يخطب الناس وعليه إزار (ثوب) عدنى غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة. (٢٦)

وهو يومئذ أمير المؤمنين، وقبل ذلك صاحب التجارة الواسعة، والمال الوفير إلا أنه على الرغم من ذلك إقتدى برسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأختار الجوع على الشبع، وأختار الحزن على الفرح،

خوفاً من عذاب الله، فقد روى عنه قوله : "لو أنى بين الجنة والنار لا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى لتمنيت أن أصير رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير .

وتتجلى فتوة عثمان بن عفان فى الوفاء والولاء والاخلاص للمبدأ الذى أمن به، فقد بذل عثمان حياته خوفاً من إراقة الدماء فى مدينة رسول الله . يروى عبد الله بن رباح وأبو قتادة — رضى الله عنهما — أنه فى يوم حرب الدار — كنا عند عثمان — رضى الله عنه — فلما اجتمع الغوغاء على بابه، شهر غلمانة السلاح، فقال لهم عثمان : كل من لا يخلع السلاح فهو حرمى.... وخرجنا خوفاً على أنفسنا... فلاح الحسن بن على فى الطريق، فرجعنا معه، ودخلنا على عثمان لنرى ما أقبل الحسن، فلما دخل الحسن حياه وعزاه فى تلك البلية وقال : يا أمير المؤمنين، أنا لا أستطيع أن أسل السيف على المسلمين بدون أمرك، وأنت إمام القوم، فمرنى أن أدفع عنك بلاء هؤلاء القوم . فقال له عثمان : يا ابن أخى، ارجع واجلس فى بيتك حتى يأتى الله بأمره فلا حاجة لنا فى ارهاق الدماء.(٢٨)

وهذا الموقف ان دل على شئ، فإنما يدل على فتوة عثمان بن عفان، وعلامة الفتوة هنا التسليم فى حال ورود البلاء، فى درجة الخلّة، كما حدث لأبراهيم — عليه السلام — عندما اشعل النمروز النار وألقى به فيها، فقد جاء جبريل — عليه السلام — وقال : هل لك من حاجة . قال : أما لك فلا . فقال : فسل الله . قال : حسبى من سؤالى علمه بحالى .

فعثمان بن عفان — هنا — فى مكان الخليل، والغوغاء فى مكان النار، والحسن بن على فى مكان جبريل. ولكن ابراهيم — عليه السلام — قد نجا من البلاء وعثمان — رضى الله عنه — هلك فى البلاء. (٢٩)

والسؤال الآن هل كان من الممكن لأمير المؤمنين، عثمان بن عفان أن ينجوا من هذا البلاء؟ حقيقة الأمر أنه عرضت على عثمان أمور كثيرة فيها نجاته إلا أن الفتوة التى تمثلت فى الثبات والاستقامة على الحق جعلته يرفض كل ما عرض عليه.

ومن هذه الأمور أن معاوية بن أبى سفيان عرض على عثمان قبل أن يفارقه فى أواخر سنة أربع وثلاثين خصلتين رفضهما عثمان رفضاً حاسماً، عرض عليه أن يسير إلى الشام فيكون فيها آمناً منصوراً. فأبى عثمان أن يترك جوار النبى وأن يستبدل بدار الهجرة داراً أخرى.

وعرض معاوية على عثمان أن يرسل إليه جنوداً من أهل الشام يقيمون معه فى المدينة ليردوا عند العاديات؟ فأبى عثمان وقال : لا أضيق على أصحاب رسول الله بجوار من يجاورهم من الجند. (٣٠)

لقد ثبت عثمان واستقام على الحق ورفض فرص النجاة التى عرضت عليه لأنها ستل من كرامة هجرته وثوابها، وفى أى سن كان وهو يحمل هذا الولاء الفتى الشاب للهجرة ولحقها عليه، كان فى سن الثمانين.

ويتجلى ثبات عثمان واستقامته، فى أنه يوم قتل كان صائماً ولم يبرح موضعه ولم يأذن لأحد بقتال، ولا وضع المصحف من حجره إلى أن قتل — رضى الله عنه — وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم. (٣١) ووقع الدم على موضع هذه الآية، قال تعالى : "سيكفّهم الله وهو السميع العليم". (٣٢)

على بن أبى طالب

لا جدال أن علياً بن أبى طالب تلميذ محمد — صلى الله عليه وسلم — فقد تكفل رسول الله به قبل البعثة فعاش وتربى فى حجر النبوة، وعندما نزل الوحي على رسول الله كان على بن أبى طالب أول غلام أمن، وتركه رسول الله فى فراشه ليلة الهجرة تحرسه الملائكة، وهو يواجه قريشاً العاتية، وعندما بدأت الغزوات وأذن رسول الله لأصحابه بالقتال، نجد فتى بنى هاشم يحمل بسيفه المنايا، يحطم بها عتاولة القرشين (٣٣). وعندما آلت إليه الخلافة بعد مقتل عثمان نجده يحاول جاهداً اصلاح الأمر على نهج كتاب الله، وسنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

وإذا كنا قد ذكرنا أن علياً بن أبى طالب تربى فى بيت النبوة، فلا ريب أن تكون سمات الفتوة عنده كاملة، بل كانت فتوته مبكرة، فمن هذه الفتوة المبكرة شجاعته وأمانته.

فأما الشجاعة — المبكرة — تتضح فى أنه قبل أن ينام فى فراش رسول الله ليلة الهجرة مع علمه بما يحيط برسول الله فى هذا اليوم. فقد اجتمعت قريش لى تتخلص من رسول الله ودعوته على رأى أبى جهل الذى قال لهم : "أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه. فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً".

على الرغم من هذا الخطر المحيط برسول الله — صلى الله عليه وسلم — من كل جانب إذ قريش باجمعها تتربص به على قلب رجل

واحد، إلا أن الفتى الشجاع على بن أبى طالب امتثل لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم — عندما قال له : "ثم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الاخضر، فقم فيه، فإنه لم يخلص إليك شئى تكرهه منهم". (٣٤)

أما عن أمانة على بن أبى طالب — المبكرة — فقد أمره رسول الله، أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله الودائع، التى كانت عنده للناس، وكان رسول الله، ليس بمكة أحد عنده شئ يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وامانته — عليه الصلاة والسلام. (٣٥)

وإذا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لامانته كان أعدائه يضعون عند ودائعهم التى يخشون عليها، فانه عليه الصلاة والسلام — عندما اذن له ربه بالهجرة، اراد أن يرد هذه الودائع إلى أصحابها، لم يجد خيرا من على بن أبى طالب لامانته لكى يقوم بهذه المهمة.

ويطول بنا المقام إذا ما أردنا أن نعرض لخصال الفتوة عند على بن أبى طالب ولكننا سنكتفى بأن نتعرف على شجاعته وزهده — كرم الله وجهه — ذلك لأن الشجاعة تعتبر سمة أساسية من سمات الفتى سواء كانت شجاعة الرأى أو شجاعة الحرب. أما الزهد فإنه لا يجعل الفتى كل همه الدنيا وزينتها وانما تكون غايته مرضاه الله عز وجل واتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه سبحانه.

وإذا كانت الفتوة مجموعة فضائل منها الكرم، والشجاعة والإيثار، فمن الملاحظ أن هذه الفضائل كانت ظاهرة جلية فى خلق على بن أبى طالب الرجل الكريم الشجاع، المؤثر غيره على نفسه عملا بقول الله عز وجل : "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا انما

نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً" (٣٦) ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت في حق علي بن أبي طالب وآل بيته والقصة تدور حول الكرم والايثار إذ كان المعنيون بالآية صائمين وجادوا بافطارهم على مسكين ويقيم واسير. (٣٧)

إلا أن البعض الآخر من المفسرين يرى أن هذه الآية عامة لا تخص قوم معينين. وسواء صح هذا الرأي أم ذاك فإن احداً لا يستطيع ان ينكر اتصاف علي بن ابي طالب بالكرم والسخاء والايثار والشجاعة.

ومن الأمثلة الدالة على شجاعته — كرم الله وجهه — أنه في غزوة أحد يخرج من صفوف المشركين أحد مبارزيهم الأشداء هو أبو سعيد بن ابي طلحة وينادي على من يبارزه، ويخرج علي بن أبي طالب إليه، ويتلاقيان في مبارزة ضارية حامية... ويتمكن منه سيف علي بضربة تطرحه أرضاً، وهو يتلوى من الألم وبينما علي يتهيأ ليجيز عليه بضربة قاضية.. ينحسر جلباب الرجل فتتكشف عورته فيغمض على عينه ويغض بصره... ويعود إلى مكانه في صفوف المسلمين، دون أن يجهز علي الرجل ويسأله المسلمون : لماذا لم تجهز عليه؟ فأجاب قائلاً : أنه استقبلتني بعورته، فعطفتني عنه الرحم وعرفت أن الله عز وجل قد قتله. (٣٨)

وهنا تتجلى شجاعة علي وفتوته في شرف المقاتلة، إذ ان شرف المقاتل عند ابن ابي طالب خلق لا ينساه أمام النصر، وامجاد الظفر،

ولقد عرف عنه ذلك دائماً فراح أعدائه يلمسون منه هذا الوتر كلما رأوا المنابيا تهوى عليهم من سيفه البتار.

هذا وقد أبلى على بن أبى طالب فى غزوة أحد بلاء حسناً، حتى أنه نادى مناد يوم أحد : لاسيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا على.(٣٩) فوصف على بالفتوة فى هذا اليوم إلى القدر الذى لا يصل إليه فتى آخر.

وهذه الشجاعة التى كانت سمة أساسية فى شخصية على بن أبى طالب قد عرفها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال فى حقه يوم خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار؟ فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علياً - كرم الله وجهه - ثم قال : "خذ هذه الراية فامضى بها حتى يفتح الله عليك".

ويذكر ابن اسحاق ان علياً حين بعثه رسول الله برأيته، فلما دنا من الحصن خرج إليه اهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم القاه من يده حين فرغ... وان هذا الباب اجهد ثمانية من الرجال لكى يقلبوه فما انقلب.(٤٠)

لقد كان على بن ابى طالب عظيم الشمائل عديد الفضائل، زاهد فى الدنيا يقول لها وهو أمير المؤمنين : "يا دنيا غرى غرى، قد طلقتك ثلاثاً عمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد، وبعد السفر ووحشة الطريق".(٤١)

ومن مظاهر الزهد فى حياة على بن ابى طالب، أنه كان يرقع قميصه ويقول : ان لبس المرقع يخشع القلب ويقتدى به المؤمن، وكان

يقطع من كم قميصه ما زاد على رؤوس الأصابع. وكان يسبرد في الشتاء حتى ترتعد أعضاؤه من البرد فقيل له : ألا تأخذ لك كساء من بيت المال فإنه واسع؟ فقال : لا أنقص المسلمين من بيت مالهم شيئاً. ويروى أنه قدم إليه مرة فالزوج فلم يأكله وقال : انك طيب الرائحة، حسن اللون، طيب الطعم، لكن أكره أن أعود نفسي ما لم تعتد. (٤٢)

مما سبق نجد أن أبا علياً بن أبي طالب اختار حياة الزهد بعد أن علم إن الدنيا عمرها قصير لمن يعمل لها، ومجلسها حقير لمن يركن إليها وخطرها كبير لمن لا يتزود منها لآخرته باتباع أوامر الله عز وجل واجتتاب ما نهى عنه سبحانه. وقد أكد على بن أبي طالب على هذا. عندما قال : "لا تجعلن أكبر شغلك بأهلك وولدك، فإن يكن أهلك وولدك من أولياء الله، فإن الله لا يضيع أوليائه، وإن كانوا أعداء الله، فما همك وشغلك لأعداء الله. (٤٣)

وفي هذه الوصية نجد أنه على الإنسان ألا يجعل الدنيا أكبر شغله وهمه وغاية ما يسعى إليه، وقد مثل على بن أبي طالب الدنيا في هذه الوصية بالأهل والولد. كذلك نجد أن هذه الوصية تتعلق بانقطاع القلب عما دون الحق جل جلاله، لأنه سبحانه يحفظ عباده كما يريد متى كان يقينهم صادقا.

وهذه الفتوة الواضحة في شخصية أمير المؤمنين على بن أبي طالب جعلت البعض ينسبون الفتوة إليه، بل جعلوه رأس الفتوة وسيد أهلها. وفي هذا الصدد يقول ابن أبي حديد : "فإن أربابها — يعني أصحاب الفتوة — نسبوا أنفسهم إليه، وصنفوا في ذلك كتباً وجعلوا إسناداً انهوه إليه، وقصروه عليه وسموه سيد الفتيان". (٤٤) كذلك نسب

الشيخ عبد الجبار — الذى ألبس الناصر لدين الله العباسى لباس الفتوة سنة ٥٧٨هـ — الفتوة إلى على بن ابى طالب وذكر أن : أرباب الفتوة يسندونها بالعنجة إلى أمير المؤمنين على ابن أبى طالب — عليه السلام وناهيك بذلك شرفاً وفخراً وعظمة وقدرأ. (٤٥)

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الناصر لدين الله قد ألغى كل فتوة غير فتوته وجمع الأمر حوله وخرج بالفتوة من شعبيتها وعاميتها إلى الارستقراطية والخصوصية. وجعلها رياضة وتدريباً يقصد به الارتفاع بقوة الأمة المعنوية واعدادها لكل طارئ. (٤٦)

وإذا ما نظرنا إلى فتوة الناصر لدين الله نجد انها بعيدة كل البعد عن الفتوة عند الصوفية، ذلك لأن الفتوة فى معناها العام خالية تماماً من تلك النزعة الارستقراطية التى تتعارض مع روح التصوف. (٤٧)

كما أن الفتوة ليست فى طقوس معينه، من لباس أو شراب وخلافه، إنما الفتوة فى جوهرها وحقيقتها مجموعة من الفضائل والخصال الحميدة التى يتحلى بها الفتى والتى تكون فى مجموعها شجرة الاخلاق بفروعها واغصانها وثمارها.

* لقد كثر فى زمن الناصر لدين الله (القرن السادس الهجرى) العيارون والشطار وبيدوا أنه عشى على دولته لذلك حاربهم. وفى نطاق البحث عند حديثنا عن الفتوة والملاطية سوف نعرض للفرقة بين العيار والشاطر والفتى. راجع كتابنا : حقيقة الملاطية ودورها فى التصوف الإسلامى.

لقد برهن حمزة بن عبد المطلب من أول يوم دخل فيه الإسلام على شجاعته الفائقة، وفتوته الكاملة، وعلى أنه قوة أيد الله بها دينه واعز رسوله — صلى الله عليه وسلم — ذلك لأنه كان اعز فتى فى قريش، وأشد شكيمة.

ويذكر ابن هشام فى إسلام حمزة : أنه كان راجعاً من قنص له متقلداً سيفاً وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، فلما مر بإمرأة كانت قد شهدت إيذاء أبى جهل لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ذلك اليوم قالت له : يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفاً من أبى الحكم بن هشام : وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد — صلى الله عليه وسلم — . فاحتمل حمزة الغضب، لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معداً لأبى جهل؟ إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكراً ثم قال : انتشمت وأنا على دينه أقول ما يقول* فرد ذلك على ابن إستطعت فقام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. (٤٨)

وتم حمزه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وشهد مع رسول الله الجهر بالدعوة، والهجرة إلى

* لم يكن حمزة حين انتقم لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — من أبى جهل قد أسلم ولكنه صرح بإسلامه فى ذلك الوقت، إذا أراد الله به خيراً وقد ثبت على إسلامه رضى الله عنه.

وتم حمزه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وشهد مع رسول الله الجهر بالدعوة، والهجرة إلى المدينة وابلت بلاء حسناً في غزوة بدر. وفي غزوة أحد كان حمزة — رضى الله عنه — يهد الناس بسيفه ما يبقى على شيء حتى صوب إليه وحشى — غلام جبير بن مطعم عن بعد فخر سريعاً وكان سيد وحشى قد مناه إن هو قتل حمزة أن يعتقه. (٤٩)

ولقد بلغ من غيظ قريش ونسائها من حمزة وشجاعته وبلائه في قتالهم أن هنداً بنت عتبة — زوج أبى سفيان — مثلت به وشقت بطنه، ولاكت كبده وكافأت وحشياً بقلائدها وحليها لأنه قتل حمزة. (٥٠)

ولما وقف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على حمزة قال: لن أصاب بمثلك أبداً ما وقفت موقفاً أغيظ إلى من هذا ثم قال: جاعنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب من أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله. (٥١)

ولا يفوتنا ونحن نعرض لشجاعة وفتوة حمزة إلا أن نشيد بموقف صافية بنت عبد المطلب حينما أقبلت لتتنظر إليه.... وكان أخاها لأبيها وأمها — فأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ابنها الزبير بن العوام أن يرجعها قالت: ولم؟ وقد بلغنى أنه قد مثل بأخى، وذلك فى الله، فما أَرْضَانَا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فلما جاء الزبير إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخبره بذلك قال: خل سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له... ثم أمر به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدفن. (٥٢)

خالد بن الوليد

ماذا عساي أن أقول في خالد بن الوليد؟ وقد اشتهر بالقوة ورجاحة الرأي، والبسالة الفائقة، والشجاعة النادرة حتى انه لم يخزل في أى معركة، سواء كان ذلك في الجاهلية. أو في الإسلام.

وقد يطول بنا المقام إن أردنا أن نعدد المواقف البطولية لخالد بن الوليد وانما نكتفى أن نذكر موقفه في موقعة اليرموك. ففي هذه الموقعة إذا ببريد المدينة يصل، وفيه الخبر بوفاة أبى بكر الصديق، وفيه تولية عمر بن الخطاب مكانه خليفة للمسلمين، وفيه عزل خالد من إمارة الجيش وتولية ابى عبيدة أميراً للجيش الإسلامية.

فخاف خالد إن هو أظهر هذه الأخبار وأذاعها فى الناس أن يهنوا ويضعفوا وهم فى المعركة الفاصلة، فأدار المعركة بنفس القوة وببنفس العزيمة — الأولى — كأن لم يعزل، وكأنه لم يزل أميراً مؤمراً. (٥٣)

وهنا تتجلى فتوة خالد فى أنه لم يكن يعمل ما يعمل حباً فى جاه أو دنيا وإنما كان يتقدم إلى الموت إعزازاً لدين الله، وسيادة الاسلام. لم يكن يعمل من أجل أبى بكر وإنما كان يجاهد من أجل دينه وفى سبيل الله فسيان عنده إن كان قائداً أو جندياً وسيان عنده إن تولى أبو بكر أو تولى عمر فخالد هو خالد الجندى الباسل، والفتى الشجاع، سيف الله المسلول، الذى يخوض المعارك والحروب فى سبيل الله.

ولا أدل من قول خالد حين انتهت المعركة بنصر المسلمين وسلم كتاب عمر إلى أبى عبيدة بالإمارة : "الحمد لله الذى قضى على

أبى بكر بالموت، وكان أحب إلى من عمر، والحمد لله الذى ولى عمر
 وكان ابغض إلى من أبى بكر ثم ألزمنى صحبتة". (٥٤)
 وهذا شأن الفتى المؤمن الصادق الذى يطيع الله سبحانه امتثالاً
 لقوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى
 الأمر منكم". (٥٥)

ومن المواقف التى تدل على فتوة خالد فى هذه الموقعة خروج
 "جرجة" أحد قواد الروم وندائه : ليخرج إلى خالد، فخرج إليه خالد،
 وقد أمن أحدهما صاحبه، فقال جرجة : يا خالد : اصدقنى ولا تكذبنى،
 فإن الحر لا يكذب ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع، بالله هل أنزل
 الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسله على قوم إلا
 هزمتهم؟ قال لا. قال : فيم سميت سيف الله؟ قال : إن الله عز وجل
 بعث فينا نبيه — عليه السلام — فدعانا فنفرنا ونأينا عنه جميعاً ثم إن
 بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده
 وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه، فقال : أنت
 سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين، ودعا لى بالنصر، فسميت
 سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين. قال صدقتى ثم
 ناقشه فى الإسلام حتى إنتهى الأمر بإسلامه. وترك صفوف الروم
 وقاتل مع المسلمين بعد أن علمه خالد الاسلام، وصلى ركعتين ومات
 جرجة فى هذا اليوم وهو يقاتل أشد قتال وصدقته دفاعاً عن دينه
 الجديد. (٥٦)

ولقد أكد خالد بن الوليد، فى هذا الموقف، على أن الفتى حراً لا
 يكذب، كريماً لا يخادع، يقول الصدق، ويفى بالوعد، ويلتزم بالعهد.

وكان صدق خالد وبساطته في التعبير، وتواضعه، سبباً في
إسلام هذا القائد الذي أراد الله هدايته.
وما أحوجنا في تلك الايام إلى أن نتشرب تلك القيم والمبادئ
التي تتمثل في الصدق في القول، والوفاء بالعهد، والإلتزام بالوعد،
والتواضع فالفتى لا يحمل سيفاً فقط، بل الفتى من يحمل بين جناباته تلك
المنزل العليا والمبادئ السامية.

أبو ذر الغفاري

وها نحن أمام فتى صادق القول، يجاهر بالحق ولا يخشى في الله لومة لائم، ففتوة أبو ذر لم تقتصر على حمل السلاح في وجه الإعداء لإعلاء كلمة لا إله إلا الله، إنما كانت فتوته في النقد اللاذع للأوضاع الاجتماعية التي لم يرضى عنها زمن خلافة عثمان بن عفان. فقد وجد أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يعطي أقربائه مالا كثيرا. فيقول بشر الكانزين بالنار، ويتلوا قوله تعالى "والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم". (٥٧) فيصل الأمر إلى عثمان فيرسل إلى أبي ذر مولى له ينهاه. فيقول أبو ذر : أينهاى عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله لأن أَرْضَى الله بسخط عثمان أحب إلى من أَرْضَى عثمان بسخط الله. (٥٨)

ففتوة أبو ذر هنا تتضح في قول الحق وشجاعة الرأى التى تتمثل فى معارضة النظام الاجتماعى، فقد كان يكره أن يغنى الغنى حتى يكثر الذهب والفضة وإن يحتاج الفقير حتى لا يجد ما ينفق. ثم كان يكره أن يعطى الخليفة مال المسلمين للأغنياء بغير حقه، فيزيدهم غنى ويزيد الفقراء فقراً، ويؤثر المال قوما لا حاجة بهم إليه، ويصرف هذا المال عن المصالح العامة.

وتستوى الأمور بين أبي ذر الغفاري وأمير المؤمنين فيرسله إلى الشام، ولكن إقامته هناك لم تطل بسبب نقده للأوضاع الاجتماعية التي رآها. فخاف معاوية على أهل الشام من أقوال أبي ذر، فكتب يشكو منه إلى عثمان. فكتب إليه عثمان أن أشخص إلى جندياً (أبو ذر)

فأرسله معاوية إلى المدينة غير حفي به. (٥٩) وعندما ضاق عثمان من أقوال أبي ذر في المدينة أمره أن يخرج منها فيقيم حيث شاء، فاختر أن يذهل إلى الريزة وأقام بها حتى مات.

وجدير بالذكر أن أبا ذر في فتوته لم يكن ثائراً ولا نازعاً يداً من طاعة ولا ناقداً للبيعة ولا ممتنعاً على الخليفة إن عاقبه.

فقد كانت فتوته تقوم على المجاهرة بالحق وقول الصدق والنقد اللازم والنصح العنيف ولم تكن أبداً خروجاً عن طاعة الأمير، وينضح ذلك في قوله : أمرت أن أطيع وإن أمر على عبد مجدع.

وقال للذين طلبوا إليه أن يقودهم إلى المقاومة الإيجابية وشق عصا الطاعة : لو صلبني عثمان على أطول جذع من جذوع النخل لما عصيت. (٦٠)

ما أروعها من أمثلة للفتوة تؤكد أن الالتزام بطاعة الأمير أو الحاكم لا تتعارض مع قول الحق وأداء النصيحة، فقد عارض أبو ذر ما وسعته المعارضة وجاهر بالحق، ولم يخشى إلا الحق سبحانه وتعالى، ولكن في حدود الطاعة وتجنب الخروج على أمير المؤمنين.

وقد أيقن أبو ذر أن قيامه بالحق لله تعالى لم يترك له صديقاً، إذ عاش وحيداً ومات وحيداً فقال : ان قيامي بالحق لله تعالى لم يترك لي صديقاً، وإن خوفي من يوم الحساب ما ترك على بدني لحماً، وإن يقيني بثواب الله تعالى ما ترك في بيتي شيئاً. (٦١)

سلمان الفارسي

ووقفنا هنا مع فتى باحث عن الحقيقة، يترك الأموال والضياع، ويخرج سائحاً ينتقل من مكان إلى مكان باحثاً عن الحقيقة متنقلاً بين الأديان فمن مجوسيته الأولى إلى المسيحية، ثم من المسيحية وبعد رحلات متعددة يقف هذا الفتى الفارسي على مشارف المدينة، مميزاً في رسول الله — صلى الله عليه وسلم — آيات النبوة وعلاماتها. وكان عدد من الرهبان النساك الذين قابلهم في رحلاته قد كشفوا له عن هذه العلامات واخبروه أنها في كتبهم القديمة، وإن عهد هذه النبوة قد اطل.

ويحدثنا سلمان الفارسي أنه عندما أراد أن يستوثق من رسالة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جمع شيئاً من الطعام ودخل عليه وقال : أنه قد بلغني أنك رجل صالح. ومعك أصحاب لك غرباء ذو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة. فرأيتم أحق به من غيركم، قال: فقربته إليه. فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأصحابه كلوا وامسك يده فلم يأكل، قال سلمان : فقلت في نفسي هذه واحدة.

ويستطرد سلمان قائلاً : ثم انصرف عنه، فجمعت شيئاً، ثم جئت به فقلت له : أنى قد رأيته لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أكرمك بها.. فأكل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — منها وأمر أصحابه فأكلوا معه : قال : فقلت في نفسي : هاتان اثنتان.(٦٢). وما إن رأى سلمان خاتم النبوة حتى إيقن أن محمداً هو رسول الله فأمن به وبرسالته، وساعده رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى افتدى نفسه من الرق.

وقد شارك سلمان الفارسي في الغزوات والفتوحات الإسلامية
وجاهد في سبيل الله، حتى استقر به الأمر أميراً على المدائن.

فكانت معيشتة معيشة الزهاد والعباد، وكان يسير في المدائن
فتسجد له العجم، فينكس رأسه ويقول : خشعت لله... خشت لله. وكان
يردد : أوصاني خليلي — رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن لا
يكون متاعى من الدنيا الإكزاد الراكب. (٦٣)

ولما حضرت سلمان الوفاة، نظر الحاضرون فلم يجدوا إلا
بضعة عشر ديناراً ويقال أن متاع سلمان قد بيع فبلغ أربعة
عشر درهماً. (٦٤)

وهكذا يكون الفتى الواعظ منه يوم موته بيته، فالفتى يظهر
الاستغناء أيام حياته، حتى يحسبه الآخرون غنياً من التعفف، فإذا مات
كان بيته يوم موته موعظة للفتيان. (٦٥)

لقد ضرب سلمان الفارسي أروع الأمثلة للفتيان سواء في حياته،
أو فيما تركه بعد وفاته.

وإذا ما أردنا أن نجمل خصال الفتوة في شخصية سلمان لوجدنا
أنها تتمثل في الزهد القائم على ترك الأموال والضياع من أجل الحقيقة
التي ظل باحثاً عنها حتى هداه الحق تبارك وتعالى إلى الإسلام.

وقد اتضح هذا الزهد في معيشتة التي لم تزد على عيشة الزهاد
والعباد وهو أمير على المدائن. حتى يروى في هذا الصدد أنه كان
يخطب في الناس وهو يرتدى عباءة يلبسها أحياناً ويفترشها أحياناً.

ومما لا ريب فيه، أن هذه الخصال وغيرها من الخصال
الحميدة، انما منبعها الشريعة الغراء، التي حضت على مكارم الاخلاق،

فكان فتیان المسلمین یستمدون من هذه الشریعة نبزاً لهم فی الحیاة الدنیا، وزاداً لهم فی آخرتهم.

وان كنا قد ذكرنا بعض فتیان المسلمین فهذا قليل من كثير، إذ لا یسعی المقام أن أحصى أسماء الذین تألقوا فی صفحة الاسلام الغراء.

فقد كان هناك عشرات ومئات من الفتیان المسلمین الذین جمعوا بین القوة والشجاعة ومكارم الأخلاق، فلم یقتصر أمرهم على أنهم جنود بواسل وكأنهم تخرجوا فی أعرق کلیات الحربیة الیوم. بل كانوا اسمی نفساً، وانبی غایة، واقوم خلقاً، وأرأف بالعدو قبل الصدیق فجمعوا بذلك الفتوة بشقیها المادی والمعنوی.

فوجد منهم الذین عذبوا فی سبیل عقیدتهم، وأوذوا أشد الإیذاء حتی آثروا الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم وخشية الفتنة. وهناك أبطال بدر من استشهد منهم ومن سلمه الله، وابقاه لیستشهد فی معركة أخرى.

وفی هذه المعركة استشار رسول الله - صلى الله علیه وسلم - أصحابه فتكلم كثیرون واحسنوا القول، وكان ممن تكلم المقداد بن عمرو فقال : "یا رسول الله امضی بنا لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : "أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون". (٦٦) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون".

وتكلم سعد بن معاذ فقال : "قد أمانا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا، على السمع والطاعة فأمضی یا رسول الله لما اردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق

لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره ان تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينيك، فسر بنا على بركة الله". (٦٧)
ما أصدقها من كلمات تؤكد على ان الفتى لا يهاب الموت ولا يخشى القتال ما دام دفاعاً عن الحق، ونصرة دين الله. بالإضافة إلى أن هذه الكلمات أكدت على ان الفتى، وفياً بالوعد، صادق العهد، منفذاً للمواثيق.

ولا ننسى أن نذكر بعض أبطال أحد أمثال مصعب بن عمير الذي حمل لواء المسلمين وقاتل حتى قُتل.

وفي هذه المعركة يبرز دور المرأة في الفتوة، فهذه أم عماره بنت كعب، خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه ماء تسقى الجنود وتضمد الجرحى، حتى رأت هزيمة المسلمين، انحازت إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأخذت تقاتل، وتذب عن النبي بالسيف، وترمي عن القوس حتى جرحته في سبيل الله. (٦٨)

حقاً لقد كان المسلمون جميعاً أبطالاً، ولو رحت أعدد أسماء الابطال الذين ظهروا في تاريخ الغزوات والفتوح الاسلامية، واعمال كل منهم وعظم بلائه، لما استطعت إلى ذلك سبيلاً — في هذا المقام — ولخرجنا بذلك عن نطاق البحث.

ولكن نكتفى بهذا القدر لكي نتساءل : ما هي الغاية أو الهدف التي كان يسعى إليها هؤلاء الفتيان؟

لقد مر بنا أن هؤلاء الفتيان لم تكن غايتهم طلب الرياسة، ولم يهدفوا إلى السيادة، أو الزعامة، وإلا ما وجدنا منهم من يقبل أن يعزل من منصب قائد الجيوش، ويصبح جندياً تحت امره قائد آخر.

لم يكن هؤلاء الفتيان يعملون ما يعملون حباً في جاه أو دنيا، وإنما كانوا يقدمون على الموت إعزازاً لدين الله وسيادة الاسلام.

يعلمون علم اليقين انهم ان استشهدوا فهم احياء عند ربهم يرزقون وان كتب الله لهم النصر على اعدائهم، فذلك لسيادة الاسلام واعزازاً لدين الله، واعلاء كلمة لا إله إلا الله.

هوامش الفصل الثالث

- (١) سورة الأحزاب : الآية ٢١
- (٢) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ١٦٦، ١٦٧ دار نهضة مصر
- (٣) Sirt. Arnold : The Preaching of Islam. Ch.3.3
- (٤) إبن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٣١ — مكتبة الكليات الأزهرية ٧٤
- (٥) المرجع السابق ص ٢٣٢
- (٦) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٨
- (٧) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٧٨
- (٨) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ١٦، ١٧
- (٩) الشعراني : اليواقيت والجواهر ج ٢ ص ٧٥ — البابي الحلبي ١٩٥٩
- (١٠) المرجع السابق ص ٧٥
- (١١) الهجویری : كشف المحجوب ج ١ ص ٢٦٩
- (١٢) الطوسي : اللمع ص ١٧٤
- (١٣) الغزالي : مكاشفة القلوب ص ٣٢١ — مكتبة نصير ١٩٧٨
- (١٤) خالد محمد خالد : خلفاء الرسول ص ١٧٠، ١٧١
- (١٥) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الاسلامى ص ٤٥ ط ٨٦
- (١٦) سورة الفتح : الآية ٢٩
- (١٧) عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ص ٤٦، ٤٧ ط ١٩٦٨
- (١٨) المرجع السابق : ص ٤٧

- (١٩) سورة الأحقاق : الآية ٢٠
- (٢٠) د. طه حسين : الشيخان ص ٢١٥ — دار المعارف ١٩٧٧٨
- (٢١) د. طه حسين : الفتنة الكبرى ج ١ ص ٥٣ دار المعارف ٧٦
- (٢٢) المرجع السابق ص ٥٢
- (٢٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ١١٩
- (٢٤) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ج ١ ص ٥٦
- (٢٥) سورة آل عمران : الآية ١٨٠
- (٢٦) الشعراني : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٧ — دار الفكر العربي
- (٢٧) الأصبهاني : حلية الأولياء ج ١ ص ٥٩
- (٢٨) الهجویری : كشف المحجوب ص ٢٧١
- (٢٩) الهجویری : كشف المحجوب ص ٢٧٢
- (٣٠) د. طه حسين : الفتنة الكبرى ج ١ ص ٢١٥ — دار المعارف
- ٧٦
- (٣١) الطوسي : اللمع ص ١٧٨
- (٣٢) سورة البقرة : الآية ١٣٧
- (٣٣) د. علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج ٢
- ص ٤٢
- (٣٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٩١
- (٣٥) المرجع السابق ص ٩٣
- (٣٦) سورة الدهر : الآيتان ٨ ، ٩
- (٣٧) د. كامل مصطفى الشبيبي : الصلة بين التصوف والتشيع ج ١ ص ٥٢١ —
دار الأندلس سنة ١٩٨٢.

- (٣٨) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ٢٤
- (٣٩) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ٤٣
- (٤٠) المرجع السابق ص ٢١٦
- (٤١) الشعراني : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٨ - دار الفكر العربي
- (٤٢) الاصبهاني : حلية الأولياء ج ١ ص ٦٨
- (٤٣) الهجویری : كشف المحجوب ص ٢٧٤
- (٤٤) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٩ - تحقيق محمد أبي الفضل
- (٤٥) ابن العمار : الفتوة ص ٤٢ - تحقيق د. مصطفى جواد وزملائه ط - بغداد سنة ١٩٦٠
- (٤٦) د. كامل مصطفى الشبيبي : الصلح بين التصوف والتشيع ج ١ ص ٥٣٤
- (٤٧) د. أبو العلا عفيفي : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٢٦ ط ١٩٤٥
- (٤٨) ابن هشام : السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٦٠، ١٦١
- (٤٩) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ٢١
- (٥٠) المرجع السابق : ص ٣٦
- (٥١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٩
- (٥٢) المرجع السابق : ص ٤١
- (٥٣) ابن الأثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ١٩٨
- (٥٤) المرجع السابق : ص ١٩٨، ١٩٩
- (٥٥) سورة النساء : الآية ٥٧
- (٥٦) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ١٨٨

- (٥٧) سورة التوبة : الآية ٣٤
- (٥٨) د. طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ١٦٣
- (٥٩) المرجع السابق : ص ١٦٣، ١٦٤
- (٦٠) د. طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ١٦٥
- (٦١) الطوسي : اللمع ص ١٨٦
- (٦٢) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ١ ص ٢٠١ ، ٢٠٢
- (٦٣) الاصبهاني : حلية الأولياء جـ ١ ص ١٨٦
- (٦٤) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الاسلامى ص ١٠٦
- (٦٥) السلمى : رسالة الملامتية ص ١١٨
- (٦٦) سورة المائدة : الآية ٢٣
- (٦٧) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص ١٨٧ ، ١٨٨
- (٦٨) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٨

الفصل الرابع الفتوة في المدارس الصوفية

إذا كنا قد عرفنا أن الفتوة وجدت قبل الإسلام في صور فردية. وجاء الإسلام مهذباً لهذه الفتوة الجاهلية فدعا إلى الخصال الحميدة والصفات الرشيدة والتي تكون في مجموعها مكارم الأخلاق. وتعرفنا على مصادر الفتوة ومظاهرها (بشقيها المادى والمعنوى) والغاية منها في حياة سيد الفتان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وألقينا الضوء على نماذج من فتيان المسلمين تمثلت هذه النماذج في شخصيات بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. نود الآن أن ننقل إلى المدارس الصوفية لنتعرف على سمات الفتوة ومظاهرها وغاياتها في هذه المدارس،

ولما كانت الفتوة متداخلة في كثير من تعاليم الصوفية، فسوف يقتصر بحثنا - في هذه النقطة - على أربعة من مدارس الصوفية واعنى بها : البصرة، الكوفة، الشام، خراسان. وهنا نجد أكثر من سؤال يطرح نفسه على مائدة البحث :

أولاً : ما هو المصدر الذى استقت منه الصوفية مبادئ الفتوة؟

ثانياً : وما هي مظاهر الفتوة في هذه المدارس؟

ثالثاً : إذا قلنا أن للفتوة جانباً مادياً وآخر معنوياً فبأى الجانبين اهتمت الصوفية.

رابعاً : ما هي الغاية التي تسعى إليها الصوفية من وراء فتوتها؟

مدرسة البصرة

لقد اكتوت البصرة، مثلها مثل كثير من المدن الاسلامية، بنار الفتنة التي اشتعلت بعد مقتل أمير المؤمنين، عثمان بن عفان - فشاركت في حرب الجمل على الرغم من ان نظرتها للحياة كانت النظرة المتسامحة الطيبة، هذه النظرة التي اخرجت المرجئة الذين يرجئون أمر فاعل الكبيرة إلى الله عز وجل، كما اخرج سياق فكرها المعتزلة اصحاب المنزلة بين المنزلتين متوسطين بعيدين عن الغلو. (١) وإذا كانت البصرة قد شاركت في حرب الجمل فإن ذلك ليس راجعاً إلى عثمانيتها أو إلى انها كانت مع علي بن أبي طالب ومن شيعته، وإنما كان الموقف فيها ينقسم إلى ثلاث فرق : فريق مع طلحة والزبير، وفريق مع علي بن أبي طالب وفريق لا يرى القتال مع أحد الفريقين. (٢)

وما يؤكد هذا الرأي أنه عندما وصلت جيوش طلحة والزبير ومعها أم المؤمنين "عائشة" في هودجها عند مشارف البصرة، اراد عثمان بن حنيف أن يمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من المدينة وينظر في الأمر.

بينما اشار عليه هشام بن عامر قائلاً: "يا عثمان أن هذا الأمر الذي تروم يسلم إلى شر مما تكره، ان هذا فتق لا يرتق، وصدع لا يجبر فسامحهم حتى يأتي أمر علي ولا تحادهم".

فأبى عليه عثمان هذا الرأي ورفض هذه المشورة وأراد أن يعرف رأى الناس فأرسل أحد اتباعه قائلاً : أيها الناس، ان هؤلاء القوم الذين جاؤكم ان كانوا جاؤكم خائفين فقد جاءوا من المكان الذي

يأمن فيه الطير. وإن كانوا جاعوا يطلبون بدم عثمان — رضى الله عنه — فما نحن بقتلة عثمان. اطيعونى فى هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاعوا". إلا أن الناس قذفوه بالحجارة فعرف عثمان بن حنيف أن لهم بالبصرة ناصراً ممن يقوم معهم.(٣)

فخرج عثمان بن حنيف لملاقاة القوم، وخرج معه حكيم بن جبلة فى خيله قائلاً : لست بأخيه إن لم أنصره. ودارت رحى الحرب واثناء المعركة ضرب رجل من جيش طلحة والزبير ساق حكيم بن جبلة ففقطع رجله فحبا حتى اخذها فرمى بها صاحبه فأصاب جسده فصرعه، فأتاه حتى قتله، ثم اتكا عليها وقال(٤).

يا فخذ لن تراعى.... ان معى ذراعى.... احمى بها كراعى
وقال وهو يرتجز : ليس على أن أموت عار.... والعار فى
الناس هو الفرار والمجد لا يفضحه الدمار

وقال أيضاً : "أنا خلفنا هذين — طلحة والزبير — وقد بايعا علياً واعطاه الطاعة ثم اقبلا مخالفين محاربين يطلبان بدم عثمان بن عفان ففرقا بيننا، ونحن أهل دار جوار. اللهم انهم لم يريدوا عثمان".(٥)
ولما كان الإسهاب فى الحديث عن هذه الحرب يكاد يخرجنا عن مجال بحثنا فإننا نكتفى بهذا القدر الذى من خلاله يتبين لنا شجاعة فتيان البصرة فى ساحة القتال دفاعاً عن البيعة التى بايعوها لأمر المؤمنين على بن أبى طالب.

وإذا ما تركنا ساحة الحرب والقتال، واردنا أن نتعرف على الحياة الروحية فى مدرسة البصرة، وجدنا أن هذه الحياة الروحية تأثرت بصاحبى من صحابه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو

أبو موسى الأشعري هذا الصحابي الذي صبغ البصرة، وحياتها الروحية بصبغته.

إذ كان أبو موسى الأشعري يرى الدنيا احزاناً وفتنه، فكان يتأفف ويقول : "ما ينتظر من الدنيا إلا كلا محزناً وفتنه تنتظر. وحذر الناس من سطوة المال قائلاً : "انما هلك من كان قبلكم هذه الدنيا وهذا الدرهم، وهما مهلكاً لهم". (٦)

وذكرهم بتقلب القلب، وخشى عليهم نزواته، ثم طلب منهم البكاء والتباكى وحدثهم عن النار في يوم البعث، وأخذ يشتد في ذكرها وقد أصبح البكاء بعده، والخوف من النار وأحوالها سمة العبادة والزهد البصري. (٧)

وقبل أن نذهب إلى مدرسة الحسن البصري، الملقب بسيد الفتيان، وصاحب المكانة المرموقة في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية، لابد أن نشير إلى أنه ظهرت في البصرة شخصيات فذة كان لها تأثير كبير في عدد من كبار الصوفية، كما أننا نجد في أقوال وافعال بعض هذه الشخصيات ما يدل على فتوة أثرت أبلغ تأثير على فتيان الصوفية.

مطرف بن عبد الله : (ت ٨٨هـ)

لقد كان مطرف بن عبد الله بن الشخير القرشي سلطاناً من سلاطين العابدين وزاهداً من أعمق الزاهدين في تاريخ الاسلام، عرف حقيقة الدنيا وفتنتها، وانها زائفة فانية، لا تساوى عند الله جناح بعوضة، فتركها تزهداً وتقرباً إلى الله عز وجل.

ولد مطرف لصاحبي من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو عبد الله بن الشخير ولقد اسند الحديث عن ابيه، كما اسند عن عثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب وابي بن كعب، وأبي ذر الغفاري. وحفظ مطرف واخوه - القرآن وتتلماًذا فيما بعد على عامر بن عبد قيس، وكانا يحضران حلقاته، ثم أصبحا من القراء. (٨)

وما يدل على الزهد في حياة مطرف بن عبد الله، أنه كان من أعيان قومه وكبارهم، وكان يلبس - أول أمره - الملابس الفاخرة ظاهراً أمام الناس ولكن حين يعود إلى بيته ينقلب عابداً من كبار العباد. يقول الشعراني : "كان مطرف يلبس البرانس، ويلبس المطارف، ويركب الخيل، ويغشى السلطان غير انك إذا افضيت إليه افضيت إلي قرة عين. ومع ذلك كان يقول في دعائه : "اللهم لا ترد السائلين معي من أجلي". (٩)

ومن علامات الفتوة، التي تتضح فيها روح الملامة عند مطرف بن عبد الله أنه عندما مات أبنا له، سرح لحيته، ولبس أحسن ثيابه وخرج على قومه متعطراً، فعاتبه القوم ولاموه على ذلك بل غضبوا منه. فقال لهم : "أأمروني أن استكن للمصيبة، والله لو أن الدنيا وما

ففيها كانت لم ثم وعدنى الحق تعالى على اخذها كلها بشربة ماء فى الآخرة لاخترت تلك الشربة". (١٠)

وقال : قد وعدنى ربى تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصله منها أحب إلى من الدنيا كلها : قد وعدنى الله عز وجل : "الذين إذا اصابته مصيبة قالوا : انا لله وانا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون" (١١) فأستكين لها بعد هذا. وهنا نجد انفسنا أمام فتى واقف عند مراسم سيده، وهو فى أحلك الظروف وهى موت ابنه، وعلى الرغم من هذه المصيبة التى نزلت به نجده امتثل لأمر الله عز وجل، وارجع الامر إلى خالقه، عسى أن يفوز بوعد الحق تعالى فقال : (انا لله وانا اليه راجعون)، راجياً أن تنزل عليه صلوات الله ورحمته ويكون من المهتدين.

لقد كان مطرف بن عبد الله مثال الفتى العابد المقبل على ربه، يشغل ليله بتلاوة كتاب الله وتدبر معانيه. وفى هذا الصدد يقول : انى لاستلقى من الليل على فراش فأتدبر القرآن واعرض عملى على أهل الجنة، فإذا اعمالهم شديدة كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، يبيتون لربهم سجداً وقياماً، امن هو قانت اثناء الليل ساجداً أو قائماً. فلا أرى منهم. فأعرض نفسى على هذه الآية: "ما سلككم فى سقر" (١٢) فأرى القوم مكذبين. وامر بهذه الآية : "واخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً". (١٣) فارجوا أن أكون أنا وأنتم يا أخوتاه منهم. (١٤)

لقد كان مطرف يعيش متنقلاً فى اعماقه بين مشاهد الجنة ومشاهد النار وكان يرجو رحمة الله، أكثر من خوفه من عقابه.

وهكذا الفتى يكون متقلباً بين الخوف والرجاء، وقد يغلب الخوف على الرجاء، وقد يكون الرجاء هو الأغلب.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هناك فرق بين الرجاء والتمنى فالتمنى يورث صاحبه الكسل ولا يسلك طريق الجهد والجِدَّ ويعكسه صاحب الرجاء.

والرجاء بهذا لمعنى مصحوباً بحسن الظن بالله، استناداً إلى قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — يقول الله عز وجل — حديث قدسى — "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، ان ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسى وان ذكرني فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه، وان اقترب إلى شبراً اقتربت إليه ذراعاً وان اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً وان أتانى يمشى اتيت هروله". (١٥)

ومن أقوال مطرف بن عبد الله التى تدل على فتوة صوفية، بل نرى فيها الارهاصات الأولى للملامتية قوله : لأن ابيت قائماً واصبح نادماً، أحب إلى من أن ابيت قائماً واصبح معجباً. (١٦)

ومن غريب القول ان الاستاذ الدكتور على سامى النشار يرى ان هذا القول من طرف انما هو دعوة إلى السكون. (١٧) ولكننا نرى فى هذا القول محاربة لآفات النفس وخاصة آفة العجب التى تؤدى إلى الكبر والاعتزاز.

ذلك لأن المعجب يغتر بنفسه وبرايه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وإن له عند الله منة وحقاً بأعماله التى هى نعمة وعطية من عطاياه سبحانه. (١٨)

ولهذا قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأصحابه وهم خير الناس : ما منكم من أحد ينجية عملة". قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته".

ولهذا كان صحابة رسول الله من بعده يتمنون ان يكونوا تراباً وتبناً وطيراً مع صفاء اعمالهم ونقاء قلوبهم، فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه.(١٩)
ومن أجل هذا حارب مطرف بن عبد الله آفة العجب في نفسه وذلك بندمه على تقصيره في حق الله، على الرغم من كثرة عبادته وزهده في الدنيا.

وهكذا نكون قد القينا بصيصاً من الضوء على حياة مطرف بن عبد الله، ووجدنا من خلال افعاله وأقواله ما يدل على بدايات أولى للفتوة الصوفية بل لا نغالي إذا قلنا اننا نجد عنده ارهاصات أولى للملامتية.

الحسن البصرى (ت ١١٠هـ)

لقد احتل الحسن البصرى فى تاريخ الفكر الاسلامى، بصفة عامة وتاريخ الصوفية بصفة خاصة، مكانه لم يدانيها من سبقوه أو من عاصروه من مفكرى الاسلام، وادعته الفرق المتخلفة والاتجاهات المتباينة لنفسها. فصدر عنه مختلف الآراء ومتناقض الافكار ومتباين النظريات، أو بالأحرى جعلته الفرق المختلفة ينطق بآرائها. (٢٠) يقول عنه الهجویری : وله قدر كبير وشأن عظيم عند أهل هذا العلم (أى علم التصوف) بل كل العلوم، وكان لطيف الإشارة فى المعاملة. (٢١)

ولسنا نحاول هنا توضيح الجوانب المختلفة لآراء الحسن البصرى، وتوضيح ما ينسب له وما لا ينسب، وما يصح له وما لا يصح. لأن ذلك يبعدنا عن منهج البحث وانما نريد - فقط أن نجيب على سؤال : لماذا لقب الحسن البصرى بسيد الفتیان - فى عصره - دون أن يشارك فى معركة أو يخوض معمرة؟.

إذا كان الفتى الصوفى متقلباً بين الخوف والرجاء، ورأينا أن مطرف بن عبد الله قد غلب عليه الرجاء، فإن الحسن البصرى قد غلب عليه الخوف، حتى وصفت حياته كلها بالخوف الدائم، والحزن المستديم، حتى أطلق عليه "شيخ الاحزان". (٢٢)

يقول عنه صاحب حليه الأولياء : "حليف الخوف والحزن، اليف الهم والشجن، عديم النوم والوسن أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن، الفقيه الزاهد، المتشمر العابد كان لفضول الدنيا وزينتها نابذاً، ولشهوة النفس ونخوتها واقداً". (٢٣)

وإذا بحثنا عن مصدر الفتوة في حياة الحسن البصري، لوجدنا أنه كان يلتزم هذا المصدر من المثل الأعلى الذي وجدته في حياة الصحابة هؤلاء الذين كانت الدنيا بزينتها أهون على أحدهم من تراب قدميه. هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وفي هذا الصدد يقول الحسن البصري.

"ولقد رأيت أقواماً يمسي أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً. فيقول : لا أجعل هذا كله في بطني، لأجعلن بعضه لله عز وجل، فيتصدق ببعضه، وإن كان أحوج مما يتصدق به عليه". (٢٤)

في هذه الفقرة نجد أن أول سمة تقابلنا من سمات الفتوة عند الحسن البصري هي "الايثار" هذه السمة التي استقى مصدرها من حياة الصحابة رضوان الله عليهم — الذين كانوا يجودون بكل ما يملكون ابتغاء مرضاة الله عز وجل لا يبتغون من السائل جزاء ولا شكوراً. ثم يقرر الحسن البصري أن هؤلاء الصحابة ألزموا أنفسهم الصبر، حيث أنهم انزلوا الدنيا من أنفسهم منزلة الميئة التي لا يحل الشبع منها إلا في حالة الضرورة إليها فأكلوا منها بقدر ما يرد النفس ويبقى الروح.

وهنا يقول الحسن البصري : "رأوا الدنيا نتناً وجيفة، فعافوها، وزهدوا نتنها وكم كانوا يعجبون من الأكل منها شبعاً، والمتلذذ منها شراً : وكانوا يتسألون في أنفسهم عن رواد الدنيا، أما يجدون ريح النتن. عجباً أن قوماً استعجلوا الصبر، ولم يجدوا عن الدنيا مناصاً، فلم يدخل أنوفهم الريح النتنة لأنهم نشأوا من ريح الأرباب النتنين فلم يجدوا نتنته ولم يعرفوا اذاه فعاشوا فيه ما عاشوا ولم يجدوا عنه بديلاً". (٢٥)

وهنا نجد أنفسنا أمام أكثر من صفة من صفات الفتوة عند الصوفية نذكر منها (الزهد) فقد وجد الحسن البصري الزهد سمة رئيسية من سمات الصحابة بعد ان عرفوا الدنيا وأدركوا أنها جيفة لا تساوى عند الله جناح بعوضة فكانت أهون على أحدهم من تراب قدميه. صفة أخرى من صفات الفتوة الصوفية - نجدها فى الفقرة السابقة وهى الصبر ولكن ما هى حقيقة الصبر عند الحسن البصري؟ يروى أن اعرابياً سأله عن الصبر، فقال له : الصبر نوعان : أولهما - الصبر فى المصائب والبليات. والثانى : الصبر عن المنهيات. فقال الاعرابى : أنت زاهد ما رأيت أزهد منك. فقال الحسن : يا اعرابى أما زهدى فكله رغبة، وأما صبرى فكله جزع فقال الاعرابى : فسر لى هذا الكلام، فقد اضطرب اعتقادى.

فقال : صبرى فى البلاء أو الطاعة ناطق بخوفى من نار جهنم، وهذا عين الجزع وزهدى فى الدنيا رغبة فى الآخرة، وهذا عين الرغبة، بخ بخ لمن كان يأخذ نصيبه فى الوسط. حتى يكون صبره خالصاً بالحق جل جلاله، لا خوفاً من جهنم وزهده مطلقاً للحق عما سواه لا للوصول إلى الجنة. (٢٦)

وهكذا نجد أن الخوف قد غلب على الحسن البصري حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده (٢٧) فكان صبره على البلاء أو الطاعة ناطق بخوفه من نار جهنم. وانه زاهد فى الدنيا اقتداء بصحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهنا يقول : لقد أدركنا اقواماً، كانوا فيما احل الله لهم ازهد منكم فيما حرم عليكم. (٢٨) صفة أخرى من صفات الفتوة نجدها واضحة جليلة عند الحسن البصري ألا وهى

(الكرم) فقد روى عنه الشعراني، أنه كان إذا استأذن عليه أحد من اخوانه فإن كان عنده طعام اذن له، أو خرج إليه، ولا يتكلف فيما حضر. بالإضافة إلى أنه كان يحضى على الكرم فيقول : أكرم اخوانك يدم لك ودهم. (٢٩)

وإذا ما انتقلنا إلى صفة أخرى من صفات الفتوة الصوفية عند الحسن البصري فإننا نجد ان محاسبة النفس كانت صفة غالبية بالإضافة إلى باقي الخصال الكريمة الأخرى التي يتحلى بها الحسن البصري. فكان يحاسب نفسه اشد الحساب ونادى بمحاسبة النفس فقال: "ان المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه الله عز وجل، وانما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا انفسهم في الدنيا وانما شق الحساب يوم القيامة على قوم اخذوا هذا الأمر من غير محاسبة". (٣٠)

وهنا يمكن القول ان الفتى عند الحسن البصري هو من يفجؤه الشيء ويعجبه ويشتهي اشد الاشتهاه ويرى انه من حاجته. ولكنه ينادى والله ما من صلة اليك - هيهات هيهات - حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما اردت إلى هذا، مالي هذا، والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله. (٣١)

وإذا ما تساءلنا عن المصادر التي استقى منها الحسن البصري محاسبته للنفس لوجدنا ان كتاب الله عز وجل قد اشار إلى هذا الأمر في قوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لخذ" (٣٢)

وهذه اشارة من الحق سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ليحاسبوا انفسهم على ما مضى من الأعمال. ولذلك قال عمر بن الخطاب : حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا، وزنوا قبل أن توزنوا.

وقال انس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب يقول رضى الله عنه - يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقول : "وبيني وبينه جدار وهو فى الحائط : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك". (٣٣)

مما سبق يمكن القول ان محاسبة النفس عند الحسن البصرى استقى مصدرها من كتاب الله عز وجل ومن حياة الصحابة - رضوان الله عليهم - هذه الحياة التى وضعها الحسن البصرى فى مقارنة مع نفسه فصاح قائلاً : لقد ادركت اقواماً ما أنا عندهم إلا لص. (٣٤) وإذا كان الفتى الملامتى يلوم نفسه على تقصيرها، فإننا هنا نجد أن الحسن البصرى لا يقف عند حد اللوم بل يتهم نفسه بأنه لص. وذلك على الرغم مما عرف عنه من كثرة العبادة والزهد فى الدنيا، والاقبال على الله.

ولهذا نراه يكثر البكاء حزناً وخوفاً حتى صار الخوف والحزن سمة غالبية على حياته مؤكداً ذلك بقوله عن القرآن الكريم : والله يا ابن ادم، لئن قرأت القرآن ثم امننت به، ليطولن فى الدنيا حزنك، وليشتد فى الدنيا خوفك، وليكثرن بكائك. (٣٥)

وهكذا نكون قد القينا بعض الضوء على سمات الفتوة عند سيد الفتيان - فى عصره - الحسن البصرى، وعرفنا ان اهم هذه السمات الايثار والزهد والصبر والكرم بالإضافة إلى محاسبة النفس. وعرفنا أنه استمد هذه السمات من المصدر الذى ان تمسك به لن يضل ابداً وهو كتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالإضافة إلى ما وجده فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

محمد بن واسع (ت ١٢٦هـ)

بقدر ما كان يعم الفساد، وتعظم الخطيئة، ويزداد الغنى الحرام في مجتمع البصرة كانت تعاليم الحسن البصري تنمو وتزدهر بين الكثير من تلامذته وكان هؤلاء التلاميذ يجأرون بأصواتهم في حلقات المساجد، وفي الطرقات يعظون الناس ويذكرونهم بوعيد الله. (٣٦) وكانت هذه المواعظ، وتذكير الناس بوعيد الله من تلامذه الحسن البصري انما تتبع من شجاعة الرأي التي تعد من سمات الفتوة التي غرسها سيد الفتيان في عصره فكان تلامذته يقولون الحق ولا يخشون لومة لائم.

ومن هؤلاء التلاميذ الذين نقابلهم في مدرسة الحسن البصري، نجد محمد بن واسع الذي كان يسميه الحسن (بزين القراء) وكان محمد بن واسع يخفي صومه وبكائه ويعيب على من يعلن حالة البكاء على الناس وينقد على ابي سلمه يحيى نسبته إلى البكاء ويقول: إن أشر أيامكم يوم نسبتم فيه إلى البكاء وكان قليل الكلام، يفضل الصمت، ولم يكن يلبس الصوف، ولم يكن يرى كثير عبادة، إذ كان يخفي عبادته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. (٣٧)

وإذا ما نظرنا إلى هذه الفقرة نجد أنها قد تضمنت العديد من أصول الملامتية هذه الاصول التي أوردتها "السلمى" في رسالة الملامتية.

أولاً: يعيب محمد بن واسع على من يعلن حالة البكاء على الناس. ويقول السلمى: "ومن اصولهم — الملامتية — ترك البكاء عند

السماع والذكر والعلم — وغير ذلك وملزمة الكمد (الحنن) فإنه احمد للبدن. (٣٨)

حقاً لقد كان هذا الاصل — الملامتى — واضحاً جلياً فى حياة محمد بن واسع لانه لازم الكمد (الحنن) إذ تربى فى مدرسة الحسن البصرى "شيخ الاحزان" وانه كان يعيب على من يعلن حالة البكاء. ثانياً : كان محمد بن واسع قليل الكلام. ويفضل الصمت. يقول السلمى : "ومن أصولهم — الملامتية — ترك الكلام فى العلم والمباهاة به وإظهار أسرار الله منه عند غير أهله فالملامتية لم يتكلموا إلا بعد ما عقلوا عن الله فصاروا أمناء الله فى أرضه والأمين حريص على حفظ أمانته" (٣٩)

ثالثاً : لم يكن محمد بن واسع يلبس الصوف. يقول السلمى : ومن أصولهم — الملامتية — ترك تغير اللباس، والكون مع الخلق على ظاهر ما هم عليه والاجتهاد فى اصلاح السر. واصلهم فى ذلك ما روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — انه قال : "ان الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم" (٤٠)

رابعاً : كان محمد بن واسع يخفى عبادته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولم يكن يرى كثير عبادة. ويرى السلمى ان الملامتى الكامل هو الذى وصفه أبو يزيد، بأنه من كتم حاله عن الناس تماماً بحيث انه يؤاكلهم ويشاربهم ويمازحهم ويبايعهم ويشاربهم ولكن قلبه متعلق بملكويت القدس. (٤١)

بالإضافة إلى هذا نجد ان محمد بن واسع يخشى الذنوب بل كان يرى ان حياته — وهو العابد الزاهد الخائف — ذنباً وخطيئة. وفى هذا

الصدد يقول: " لو كان يوجد للذنوب ربح، ما قد رتم ان تدنوا منى لتتن ربحى". (٤٢)

ومن أجل هذا نجد ان الهجویری يعده من أئمة الملامتية، وذلك عند ذكر أئمة الملامتية من اتباع التابعين : محمد بن واسع — رضى الله عنه — ذا حظ واف فى هذه الطريقة — الملامتية — وانفاس عالية واشارات كاملة فى الحقائق. (٤٣)

وهكذا نجد ان بذرة الفتوة التى غرسها الحسن البصرى قد نمت واثت ثمارها على يد تلاميذه، وتعرفنا على مثال من هؤلاء التلاميذ "محمد بن واسع" ووجدنا انه يأخذ بالطابع العام لمدرسة استاذة، فيحض على خشوع القلب والزهد فى الدنيا، والشجاعة فى الرأى وعدم البكاء والابتعاد عن أهل الاهواء واخفاء العبادة.

بل لا نغالى إذا قلنا ان بعض اصول الملامتية التى ذكرها السلمى تمثلت فى كثير من أقوال وافعال محمد بن واسع، ولهذا يعده الهجویری واحداً من ائمتهم.

مدرسة الكوفة :

إذا كنا قد رأينا ان فتوة مدرسة البصرة المتمثلة فى شجاعة
الرأى وقول الحق، ظهرت نتيجة لازدياد الفساد، وتفشى الخطيئة
والغنى الحرام فى مجتمع البصرة. فإننا نجد ان الأمر يختلف بالنسبة
للكوفة، إذا انها تأثرت أكثر من غيرها من الامصار الاسلامية
بالحروب والمعارك، فقد بنى سعد بن ابى وقاص الكوفة عام ١٧ من
الهجرة بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، على اطلال بابل
القديمة لتكون معسكرا للجيش العربى بعد فتحه لفارس. (٤٤)

كذلك شاركت الكوفة فى الحروب والمعارك التى دارت بين
على بن ابى طالب وطلحة والزبير تارة، ومعاوية بن ابى سفيان تارة
أخرى فكان من أثر الحروب والاضطهاد والروح العسكرية التى سادت
الكوفة ان برز قوم من الزهاد بخلق الفرسان على صورة زهدية
جوهرها التضحية المقرونة بالعاطفة الرقيقة والبعد عن الطمع المادى
والانصراف إلى الزهد والفقر. (٤٥)

وقد ظهرت بوادر الخلق الذى ينسب إلى الفتوة من سعيد بن
جبير (قتلة الحجاج عام ٩٤هـ) فيروى عنه انه لما وعدوه بالقتل غداً
قال للحراس : دعونى اتأهب للموت واتيكم غداً فتنازعوا فى ذلك خوف
الهرب. ثم أنه غلب عليهم صدقه فأطلقوه ثم جاءهم من الغد فقدموه
للقتل، وجاء السياف فذبحه. (٤٦)

وهذه الرواية التى يذكرها الشعرانى عن سعيد بن جبير تضعنا
امام فتوة ما بعدها فتوة، إذ يعلم سعيد علم اليقين انه مقتول، ويطلب من
الحراس ان يطلقوا سراحة على وعد ان يعود، وبعد تردد يطلقون

سراحه لصدقه، فتتاح له فرصة الهرب من القتل ظلماً على يد الحجاج، إلا أنه لصدقه يأبى الهرب ويعود التزاماً ووفاء بالوعد واحتراماً لكلمة الصدق التي قالها.

وظهر في الكوفة مثال آخر. نلمس فيه روح الفتوة الصوفية، فنجد ان ابراهيم التيمي الزاهد قد سلم نفسه لشرطة الحجاج على انه ابراهيم النخعي، فحبس من أجل ذلك حتى مات. ويقول الشعرائي عن سبب حبسه : ان الحجاج طلب ابراهيم النخعي، فجاء الذي طلبه فقال : اريد ابراهيم، فقال انا ابراهيم فأخذه وهو لا يعلم انه ابراهيم التيمي، فأمر الحجاج بحبسه في الديماس (السجن) حتى مات.(٤٧)

ويرى الدكتور كامل مصطفى الشيبى. ان الفتوة فى الكوفة كانت مبدأ جماعة محددة لها طابعها الخاص، ولباسها المتميز. ويدل على صحة الرأى بقول ابن الجوزى عن ابراهيم بن يزيد النخعي : انه كان يلبس الثوب المصبوغ بالزعفران وبالعصفر، وكان من يراه لا يدرى أمن القراء هو أهم من الفتيان.(٤٨)

ألا أننا لا نتفق مع ما ذهب إليه الدكتور الشيبى، وذلك لانه حتى وفاة ابراهيم بن يزيد النخعي (ت٩٥هـ) لم تكن هناك جماعة محددة تأخذ بمبادئ الفتوة ولها طابعها الخاص ولباسها المميز، إذ ان الفتوة حتى ذلك العهد لم تزد عن كونها فتوة فردية.

ولم توجد الفتوة فى جماعة إلا عند الملامية الذين اكثروا من استعمالها وفسروا الملامة على انها نوع من الفتوة والرجولة واطلقوا على انفسهم اسم الفتيان أو الرجال وهنا يقول ابو حفص النيسابورى : يريدو أهل الملامة متقلبون فى الرجولة لا خطر لأنفسهم.(٤٩)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد ان الفتوة ما هى إلا مجموعة الخصال الحميدة والصفات الرشيدة التى تكون فى مجموعها مكارم الاخلاق، وليست الفتوة فى لباس معين أو زى محدد كما هو الشأن فى الفتوة الارستقراطية عند الخليفة الناصر.

اضف إلى ذلك ان لباس الفتوة عند ابن الجوزى يختلف عن لباس الفتوة الذى ألبسه الشيخ عبد الجبار للخليفة الناصر، الذى هو عبارة عن ثوب ابيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبه، مطوقة بوبر اسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك، مما هو كالفنك واشرف معتمداً بذلك زى الاتراك.(٥٠)

وهكذا نجد أن هذا النوع من الفتوة يختلف عن الفتوة الصوفية التى تقوم على الاخلاق الكريمة والصفات الحميدة، وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

قد يدرك الشرف الفتى ورداءه

خلق وجيب قميصه مقطوع

يبقى أمامنا الآن أن نتعرف على بعض الشخصيات فى مدرسة الكوفة إذ لابد للباحث فى تاريخ مدرسة الملامتية — بنيسابور — ان يلم بالحركات الصوفية فى المدارس الاخرى، ليتبين له مدى تزواج الأفكار الصوفية واللامتية خارج البيئة النيسابورية.

سفيان الثوري (ت ١٦١هـ)

لقد سارت مدرسة الكوفة في طريق العبادة تحت اسم القراء، ثم انبثق عن القراء المحدثون، والعلماء، والفقهاء، ثم انبثق عنهم ايضاً العباد والزهاد والصوفية وبذلك يكون لمدرسة الكوفة الفضل في وضع مصطلح "الزهد" علماً على جماعة تتميز عن العباد، كما تتميز عن القراء، وتقابل الفقهاء والعلماء والمحدثين. (٥١)

ومن أوائل الزهاد الذين نقابلهم في مدرسة الكوفة، ابو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري الذي يقول عنه صاحب الحلية : "كان العلم حليفه والزهد أليفه" (٥٢) ويقول الشعراني : "وكان رضى الله عنه عالم الأمة وعابدها وزاهدها". (٥٣)

نشأ سفيان محدثاً، وكان الحديث اداة الفقه، ولقد برع سفيان في الحديث والفقه إلى أكبر حد عرفه العلم الاسلامي ابان ذلك الوقت، ولهذا دعى سفيان بأمر المؤمنين في الحديث. إلا أنه كان يعلم ان طلب الحديث بدون عبادة انما هو طلب للدنيا، فكان يردد: الحديث أكثر من الذهب والفضة، وليس يدرك وفتنة الحديث أشد من فتنة الذهب والفضة وكم كرة القراء والمحدثين حين اقبلوا على الولاة والامراء يطلبون عز الدنيا بحديثهم وفقهم، وكان يقول : إذا رأيت القارئ يلوذ بباب السلطان، فأعلم انه لص، فإذا رأيت انه يلوذ بباب الاغنياء فاعلم انه مرأى. (٥٤)

لهذا أثر سفيان اعتزال الناس والانفراد عنهم، والابتعاد عن امراء المسلمين حتى في التشفع ورد المظالم عن الناس، ويرى ان هذا

خديعة ابليس وانما اتخذها فجار القراء سلماً، وكان يصرخ: "وددت ان انجو من هذا الأمر كفافاً لا لى ولا على". (٥٥)

من اجل ذلك نراه يفر هارباً عندما اراد أبو جعفر المنصور — الخليفة العباسى — أن يوليه القضاء، فلجأ سفيان إلى سفيينة وقال: خبونى لأنهم يريدون قطع رأسى وذلك بتأويل الخبر الذى ورد عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حيث قال: "من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين"، فأخفاه الملاح. (٥٦)

هذا الموقف من سفيان دليلاً على فتوته، بالإضافة إلى ان روح الملامة تكاد تكون هى المسيطرة على هذا الموقف. اذ ابتعد عن الخلق واعتزل الناس مخافة أن يميل إلى اهوائهم، ويدخل الرياء إلى قلبه، بل نجد أنه يفر ويهرب من تولية القضاء كأنه يهرب من القتل.

وإذا ما نظرنا إلى موقف سفيان الثورى من العمل والاكنتساب نجد أن العبادة أو الزهد عنده لم تكن تعنى التبتل عن الكسب، بل دعا القراء إلى العمل والتكسب من ذات أيديهم، فيذهب إلى البصرة ويجلس فى مجلس العابد البصرى "يوسف بن عبيد" فإذا قراء كأن على رؤوسهم الطير فقال لهم: يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق، واعملوا ولا تكونوا عالة على الناس. ويدعوهم مرة أخرى إلى عدم إظهار التخشع إذ يقول: لا تزيدوا التخشع على ما فى القلب فانقوا الله واجملوا فى الطلب... ولا تكونوا عيالاً على المسلمين. (٥٧)

من هذا يتضح لنا أن الزهد، والتصوف، ليس كما يشاع عند غالبية الناس من أنه عزوف عن الحياة، بل هو مشاركة إيجابية فى مختلف الانشطة والحرف والوظائف العامة، مع المحافظة، فى نفس

الوقت، على آداب الشريعة الإسلامية وكمالاتها. وينظر الصوفية — كما نظر سفيان — إلى أهل التبطل على أنهم قوم جهالة حتى لو كانوا يدعون الخشوع والزهد. فالعامل العابد خير — عندهم — من العابد الزاهد لأنه يقوم بدور إيجابي في تنمية المجتمع لا أن يصبح عاله عليه. (٥٨)

ويتضح حقيقة الزهد عند سفيان الثوري في قوله : الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء. ويقول : ليس الزهد في الدنيا بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ، وإنما الزهد في الدنيا قصر الأمل. وكان يردد : ازهد في الدنيا ونم لا لك ولا عليك. (٥٩) بالإضافة إلى هذا لم يكن جوهر الزهد عند سفيان تعذيب الجسد وإنما هو تهذيب النفس من شوائب الدنيا، ولذلك كان يقول : ما عالجت شيئاً قط أشد على نفسي، مرة على، ومرة لى. (٦٠)

هذا بالرغم من أنهم قوموا ثياب الثوري التي عليه حتى النعل فبلغ درهماً وأربعة دنانق، وكان لا يجلس في صدر مجلس قط وإنما كان يجلس في جنب حائط ويجمع بين ركبته. (٦١) ويقول سفيان الثوري : من رأى نفسه على أخيه بالعلم والعمل حبط أجر علمه وعمله، ولعل أخاه يكون أروع منه على حرم الله عز وجل. (٦٢)

وهنا تتجلى فتوة سفيان الثوري، لأنه لا ينظر إلى أحد بعين التحقير والنقص ذلك لان من ينظر إلى الخلق هذه النظرة بحجة العلم والعمل يحبط أجره في العلم والعمل.

وكأننا هنا أمام أصل من أصول الملامتية، الذين يقولون برؤية
التقصير في اعمالهم ويتلمسون المعاذير لغيرهم فيما وقعوا فيه من
المخالفات، ولا ينظرون إلى أحد بعين التحقير والنقص. (٦٣)
مما سبق نصل إلى أن الفتوة عند سفيان الثوري كانت واضحة
جلية في اقواله وافعاله، ونجد انها تتمثل في النقاط الآتية :

- ١ - الزهد في الدنيا وحقيقة الزهد عنده انما هي في قصر الأمل في
الدنيا وليس الزهد في أكل الخشن ولبس الغليظ.
- ٢ - اعتزال الناس ، مخافة أن يميل إلى اهوائهم، حتى وصل الأمر به
إلى رفض تولى منصب القضاء وفر هارباً.
- ٣ - تهذيب النفس، من شوائب الدنيا. ولا ريب أن تهذيب النفس يعتبر
جهاداً يفوق الجهاد بالسيف في ساحة القتال.
- ٤ - عدم النظر إلى الخلق بالتحقير والنقص لان مثل هذه الرؤية تؤدي
إلى احباط العلم والعمل.

داود الطائي (ت ١٦٥)

لقد كان أبو سليمان داود بن نصير الطائي من كبار المشايخ
وسادات أهل الصوفية منقطع النظير في زمانه، وتلميذ الإمام أبو
حنيفة، ومن أقران الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وغيرهما.
وكان في كل العلوم ذا حظ وافر وفي الدرجة العليا اختار العزلة
واعرض عن طريق الرياسة والدنيا، وسلك طريق الزهد والتقوى. (٦٤)
وإذا كنا قد عرفنا أن داود الطائي كان عالماً في الحديث والفقه،
فيحق لنا أن نتساءل عن السبب الذي دعاة إلى أن يترك ما هو فيه
ويؤثر حياة الزهد والعزلة؟

وللإجابة على هذا السؤال يذكر القشيري عدة أسباب أدت بداود
الطائي إلى الزهد، منها أن داود كان يمر ببغداد يوماً فنجاه المطرقون
— أي الحرس بين يد الوزير "حميد الطوسي" ويبدو أنه كان على
معرفة بحميد — فقال : أف لدنيا سبقك بها حميد.

ويقال أيضاً أن سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأى خديك تبدى البلى

وإى عينيك إذا سالا (٦٥)

وهذه القصة يذكرها ابن الجوزي في صورة أخرى، أنه سمع
نائحة تنوح على مقبرة وتقول : يا حبي — ليت شعري — بأى خديك
بدا البلى، بالأيمن أم باليسر فصعق داود، وتراعت أمامه الصورة.
ودخل مرة أخرى إلى مقبرة فسمع امرأة تنوح عند قبر وهي تقول :
مقيم إلى أن يبعث الله خلقه

لقاؤك لا يرجى وانت قريب

تزيد بلى فى كل يوم وليلة

وتسلى كما تبكى وانت حبيب. (٦٦)

بالإضافة إلى هذا يذكر القشيري أن داود كان يجالس أبا حنيفة ، فقال له ابو حنيفة يا أبا سليمان : أما الأداة فقد احكمناها، فسأله داود : فأى شئ بقى؟ فقال : أبو حنيفة العمل له. (٦٧)

ويقصى داود عن نفسه قائلاً :فنازعتنى نفسى إلى العزلة فقلت لنفسى : حتى تجالسهم ولا تتكلم فى مسأله، فجالستهم سنة لا أتكلم فى مسألة، وكانت المسألة تمر بى وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعاً من العطشان إلى الماء البارد ولا اتكلم به. (٦٨)

وهنا يضع داود الطائى للصوفية — من بعده — طريق تصفية النفس من شوائبها ونوازعها، والتخلص من عجبها وغرورها. ويفرض على نفسه الصمت أو الصوم عن الكلام.

وجدير بالذكر أنه يتولد من العجب، الكبر. ومن الكبر الآفات الكثيرة هذا مع العباد، أما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا ينتقد لها لظنه انه مستغن عن تفقدها فينساها وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه، بل يظن انه يغفر له. واما العبادات والاعمال فإنه يستعظمها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين فيها. (٦٩)

أما الغرور فهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد انه على خير أما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور. وأكثر الناس يظنون

بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فأكثر الناس اذن مغرورون وان
اختلفت اصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كأن غرور بعضهم
اظهر واشد من بعض.(٧٠)

من أجل هذا اراد داود الطائي تخليص النفس من عجبها
وغرورها وذلك بأن فرض على نفسه الصمت أو الصوم عن الكلام.
وهنا نتسأل مع استاذنا الدكتور النشار، هل يوجد في هذا
الموقف أثر مسيحي فقد كان الرهبان يفرضون على أنفسهم الصمت
لمدد طويلة؟

ويجيب قائلاً : ولا أجد في تاريخ داود الطائي ما يثبت هذا.
كان الأمر كله منازعة نفسية وموقفاً داخلياً حين نبهه استاذة الكبير أبو
حنيفة إلى فكرة العمل.(٧١) والسؤال الآن ما هو المصدر الذي من
خلاله توصل داود الطائي إلى أن الصمت يعد علاجاً لتخليص النفس
من عجبها وغرورها؟

حقيقة الأمر أننا نرى أن هذا المصدر انما يتمثل في ثقافة
الرجل الإسلامية إذ انه كان عالماً بالحديث والفقه، ففي كتاب الله عز
وجل نجد ما يشير إلى أن في الصمت السلامة والنجاة، وفي الخوض
في الكلام الخطر والحساب في الآخرة. ويتضح ذلك في قوله تعالى :
"ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"(٧٢)

كذلك نجد في أقوال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
الكثير الذي يحض على الصمت، مثل قوله — صلى الله عليه وسلم —
"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"(٧٣)

وعن صفوان بن سليم انه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن، الصمت وحسن الخلق" (٧٤)

بالإضافة إلى هذا نجد أن في الصمت اقتداء بصحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد روى أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - كان يضع حصاه في فمه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد. وقال عبد الله بن سعود: والله الذي لا إله إلا هو ما شئ أحوج إلى طول سجن من لسان. (٧٥) وهكذا نصل إلى أن فتوة داود الطائي تتضح في ثورته على الفقهاء، وزهده في الدنيا. حتى قال عنه معروف الكرخي : لم أر أحداً كانت الدنيا أهون في عينيه مما كانت في عين داود الطائي، فلم تكن الدنيا واهلها جميعاً لديه بمقدار جناح بعوضه وكان ينظر إلى الفقراء بعين الاحترام، وإن كانوا ملأى بالآفات. (٧٦)

بالإضافة إلى تهذيب النفس عن طريق الصمت الذي كان يوصي به مردييه. قال أبو ربيع الواسطي : قلت لداود الطائي : أوصيني فقال صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت وفر من الناس، كفرارك من السبع. (٧٧)

مدرسة الشام:

قبل ان نعرض لسمات الفتوة فى مدرسة الشام، يجدر بنا ان نلقى الضوء على البيئة الشامية، تلك البيئة التى قدمت الحياة الدنيا على الآخرة.

وذلك نتيجة لسياسة معاوية بن أبى سفيان الذى حكمها من سنة ١٧هـ أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وظل هذا الحكم ممتداً — قرابه — ثلاثة وأربعين سنة. (٧٨)

وعلى الرغم من أن معاوية حكم الشام فى عهد عمر بن الخطاب، إلا أنه لم ينهج سياسة عمر فى حكمة ولم يحاول أن يقتفى أثر خطى ابن الخطاب فى سياسته إذ كان حكمه ما هو إلا ملك دنيوى لا صلة له بعمر الذى ولاه. فكان يأكل الأطايب، ويلبس النواعم، ويجلس على الكراسى.

وقد لاحظ عمر ترفه وبضاضته، وتفننه فى مطعمه وراحته فعمل له معاوية ذلك بأنه بأرضى الحمامات والريف (٧٩). بالإضافة إلى أنه قريب من الدولة الرومانية وان لم يظهر أمامهم بهذه الصورة — صورة الملك الدنيوى التى توحى بالقوة والبأس فأنهم لن يهابوه أو يخشون بأسه.

وعلى الرغم من هذه الحياة الناعمة فى بيئة الشام إلا أن صوت الحق دائماً هو الأعلى، فها هو أبو ذر الغفارى، ينكر على معاوية هذه الحياة المترفة المنعمة فكان أهل الشام يجتمعون إليه ويسمعون منه ويؤمنون له.

وكان أبو ذر يردد : بشر الاغنياء بمكاوى من نار تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم حتى ضاق منه معاوية. وخاف على أهل الشام من دعوته واقواله.

فكتب يشكو منه إلى عثمان، وكتب عثمان إليه أن أشخص إلى جندياً ـ أبى ذر ـ على أغلظ مركب وأوعره فأرسله معاوية إلى المدينة غير حفى به.(٨٠)

من هذا يتبين لنا أن الارهاصات الأولى للفتوة الصوفية فى مدرسة الشام تمثلت فى شجاعة الرأى، هذه الشجاعة التى وضع بذورها أبو ذر الغفارى الذى قال الحق ولم يخشى فى الله لومة لائم.

كذلك رأى أبو الدرداء أهل دمشق ـ الشام ـ يتبارون فى الثراء وينقلبون فى النعم، أى اقبلوا على الدنيا وتركوا العلم والعمل ـ إلا قليلاً ـ ويهجرونه وهو صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنادى فيهم : يا أهل دمشق انتم الأخوان فى الدين والجيران فى الدار والانصار على الأعداء من يمنعكم من مودتى وانما مؤونتى على غيركم، مالى أرى علماؤكم يذهبون وأرى جهالكم لا يتعلمون واراكم قد اقبلتم على ما تكفل لكم به وتركتم ما أمرتم به إلا أن قوماً قد بنوا شديداً وحملوا كثيراً وأملوا بعيداً، فأصبح بنيانهم قبوراً واملهم غروراً...(٨١) ومر أبو الدرداء برجل مذنب والناس نسبه. فغضب وقال لهم : أرايتم لو وجدتموه فى قليب. ألم تكونوا مستخرجيه. قالوا : نعم قال فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذى عافاكم. فسألوه : ألا تبغضه؟ قال انما ابغض عمله فإذا تركه فهو أخى.(٨٢)

وهذا مقام صوفى حقيقى، كما يرى الاستاذ الدكتور المشار إليه (١٨) بالإضافة إلى أنه يدل على فتوة صوفية تتمثل فى الصفاة من الأخلاق. وهكذا نجد أن بيئة الشام كانت مترفة منعمة، كان أهلها يتبارون فى الثراء والنعم والاقبال على الدنيا وزخرفها. وحقاً أن معاوية اشترى رؤساء القبائل، وغمرهم بالأموال والهدايا، وضم البعض وضمايرهم، حتى عباوا الجيوش يحاربون فى سبيله، أو فى سبيل اطماعه (٨٤). ولكن هذا الفساد لم يمنع أبداً صوت الحق من أن يدوى عالياً فى وجه الظلم. فرأينا الارهاصات الأولى للفتوة فى مدرسة الشام، تتمثل فى موقف بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد اتضحت هذه الفتوة غاية الوضوح فى حاجة الناس بالإضافة إلى الدعوة للزهد، والصفاة عن الأخوان.

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أم ابن جبير، فى ركن ذكره ابن جرير. وجد فى دمشق حوالى سنة ٥٨١ هـ جماعة من السنيين بالفتوة، ويعرفون كذلك بطائفة النبوية وكانوا حرباً على بالفتوة وأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه به. لخص ولا يرون أن يستعدى أحد منهم فى نازله تنزل به، ولا مواهب عجيبة، وإذا أقسم احدهم بالفتوة بربقته، وموافقه الروافض أينما وجدوهم، وشأنهم عجيب فى الدنيا والآخرة. وهنا نجد أنفسنا أمام جماعة ظهرت فى دمشق أنفسهم بأهل الفتوة، ويعرفون كذلك بطائفة النبوية، وأنهم من أهل السنة وأنهم كانوا حرباً على الشيعة، وهذا منهم. ولا نعلم إن كان هؤلاء من الشيعة أم لا.

وإذا كنا قد عرفنا ان فتیان الصوفیة كان اهتمامهم الأكبر منصباً على الجوانب المعنویة من الفتوة، وانهم ذهبوا فی هذا الأمر إلى أبعد مدى. بينما وجدنا هذه الطائفة یغلب علیها الجانب المادی وان اشتركوا مع فتیان الصوفیة فی بعض الجوانب المعنویة للفتوة.

فإننا نرى أن هذه الفرقة — النبویة — تمیل إلى العیارین والشطار أكثر من میلها إلى فتیان الصوفیة.

ولما كان بحثنا — فی هذه الفقرة — منصباً على الفتوة الصوفیة فی مدرسة الشام فإننا نكتفی بهذا الجزء عن الارهاصات الأولى للفتوة فی هذه المدرسة حتی یتسنى لنا أن نتعرف على بعض الفتیان، والتی تتمثل فیهم روح الفتوة الصوفیة.

عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ)

من صلب بنى مروان ظهر " عمر بن عبد العزيز " فتى بنى أمية، بل فتى الإسلام فى عصره ذلك لأنه عاش فى زمن ساد فيه الفساد والفسق، وتفشى فيه الخداع والكذب والخيانة، فلا مبالغة إذا قلنا عن عمر بن عبد العزيز أنه فتى الإسلام فى عصره.

فقد كان وحيد زمانه فى عفته وعفافه، وفريد عصره فى صدقه وفضله، ودمائة خلقه، تولى خلافة المسلمين سنوات يسيرة فافتقر واغناهم وعاش حياة الزهد ليضرب المثل الأعلى والقُدوة الصالحة للولاة والحكام، بالإضافة للرعية والمحكومين، حتى أصبح فى الناس علماً من اعلام الإسلام واماماً فى الورع والتقوى وعارفاً بالله جامعاً بين الحكم والحكمة، خاف الله فأمنته المخلوقات ورجا الله فلم يخف من أحد سواه حاسب نفسه حساباً عسيراً. وراقب ما يدخل إليها وما يخرج منها فكان نعم الخليفة الورع الصالح. (٨٦)

وهكذا نجد أنفسنا أمام شخصية تحلت بكثير من الخصال الحميدة والصفات الرشيدة، تلك الخصال والصفات التى تكون فى مجموعها صفات الفتوة كما عرفتھا الصوفية. ولا غرابة فى هذا خاصة اننا أمام فتى مؤمن تربى فى مدرسة الاخلاق الاسلامية، فالزم نفسه باتباع أوامر الله، واجتناب ما نهى عنه سبحانه، واتخذ من حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأسوة الحسنة، ومن حياة الصحابة رضوان الله عليهم القدوة الصالحة، ولم يفاضل بين أحد من الصحابة كما هو الشأن عند امراء بنى أمية. بل أنه أول خليفة أموى يبطل سب على بن أبى طالب على المنابر، فكان الأموى الوحيد الذى مدحه الشيعة بلسان

الشريف الرضى منهم (٨٧) الذى مدحه بأشرف الألقاب واسماها فقال
عنه "فتى" ولم يقل : أميراً وحاكماً : فقال :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيب

ن فتى من أمية لبكىتك

أنت نزهتنا عن السب والقذ

ف، فلو أمكن الجزاء جزيتك

ولو انى رايت قبرك لا ستح

بيت من أن أرى وما حييتك (٨٨)

وإذا كان الزهد عند الصوفية هو أن تملك وتهجر، والبعد عن
الدنيا، والنظر إليها بعين الزوال لتصغر فى العين فيسهل الاعراض
عنها. (٨٩) فإننا نجد أن هذا القول ينطبق تماماً على الخليفة الزاهد
عمر بن عبد العزيز الذى ملك فهجر خوفاً من أن ينشغل بما أعطى
عن العاطى سبحانه وتعالى.

فيروى عنه أنه لما ولى الخلافة خير جواريه وقال : قد نزل بى
أمر شغلنى عنكن إلى يوم القيامة، وحتى يفرغ الناس من الحساب. فمن
أحبت منكن ان اعتقها اعتقتها، ومن أحبت أن أمسكها على أن لا يكون
منى إليها شئ أمسكتها فبكين وارتفع بكأوهن يأساً منه، وخير فاطمة —
زوجه — بين أن تقيم عنده وبين أن تلحق بدار أبيها، فبكت وعلا
نحيبها.

وإذا ما عرفنا ان عمراً كان قبل خلافته يلبس أغلى الثياب
والينها فإنه بعد أن ولى الخلافة هجر ذلك وكان يخطب الناس بقميص
مرقوع الجيب من يديه ومن خلفه فقال له رجل : يا أمير المؤمنين أن

الله قد اعطاك، فلو لبست؟ فنكس رأسه ثم قال : افضل القصر عند الجدة، وأفضل العقو عند المقدرة.(٩٠)

وهنا نجد أنفسنا أمام فتى يخاف أن يتبع هوى نفسه فيظلمها، فيكثر في طلب الحظوظ والذات وينشغل بالدنيا، ومن ينشغل بالدنيا يحجب عن الآخرة ومن يهتم بالخلق يحجب عن الحق.

يقول مالك بن دينار: يقولون مالك بن دينار زاهد، انما الزاهد عمر بن عبد العزيز انتته الدنيا فتركها.(٩١)

ويقول عمر بن عبد العزيز : انما الزهد فى الحلال، وإما الحرام فنار تسعر.(٩٢) لقد زهد عمر بن عبد العزيز فى الحلال فخاف أن يقع فى الحرام وقوده فى هذا قول عبي بكر الصديق : كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع فى باب من الحرام.(٩٣)

وإذا ما تجدثنا عن مظاهر الورع فى حياة عمر بن عبد العزيز نجد أنها كثيرة متعددة نقتبس منها بعض الأمثلة : فيذكر صاحب الحلية أن عمراً أرسل غلامه يوماً ليشوى له قطعة لحم، فأتى بها مسرعاً، فقال للغلام : أنك أسرعت... فقال الغلام : لقد شويتها فى نار المطبخ (يقصد مطبخ المسلمين الذى يقدم فيه الغذاء للمحتاجين) فقال لغلامه : يا بنى كل أنت اللحم فانك رزقتها ولم ارزقها(٩٤)

لقد رفض عمر لورعه أن يأكل طعاماً شوى له فى موقد المسلمين ولم يشو فى بيته مخافة أن يكون فيه شبهة الحرام.

وقيل أنه حمل إلى عمر بن عبد العزيز مسك من الغنائم فقبض على مشامه وقال : انما ينتفع من هذا بريحه وأنه أكره أن أجد ريحه دون المسلمين.(٩٥)

لقد وصل عمر بهذا القول إلى ذروة الورع لأنه رفض أن ينتفع بأى شئ ولو كان هذا الشئ، رائحة المسك دون سائر المسلمين. والذي منعه من ذلك أن هذا المسك من الغنائم فللمسلمين جميعاً حق فيه فأبى عمر أن يشتم وقبض على أنفه تورعاً ومخافة أن يكون فى ذلك شبهة الحرام لأنه استحل لنفسه شئ هو للمسلمين.

ولا يخفى على أحد ورعه عندما كان ينظر فى حوائج المسلمين. فكانت تضاء له الشمعة - من بيت المال - فإذا فرغ من حاجتهم أطفأها ثم اضاء سراجها ما هذا الورع، هذا الخوف الذى لا حد له... انه ليس الخوف من انسان كائناً من كان.... ان الخائف الورع هنا أمير المؤمنين.... فممن يخاف؟ أنه يخاف من ربه الذى يراه فى كل أمره، فى ظاهره وفى باطنه، لذلك خاف أن يكون هذا الزيت الذى ليس من ماله الخاص - ومن مال المسلمين - فيه شبهة الحرام. (٩٦)

ومن مظاهر إكرام الضيف فى حياة ابن عبد العزيز ما يحكيه لنا ابن جبوة فقال : سمريت ليله عند عمر بن عبد العزيز فإعتل المصباح فقممت لأصلحه.. فأمرنى عمر بالجلوس ثم قام فأصلحه، ثم عاد فجلس.. وقال : قممت وأنا عمر بن عبد العزيز... وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز أن الرجل اللئيم هو الذى يستخدم ضيفه. (٩٧)

ويطول بنا المقام إذا استعرضنا مظاهر الفتوة - المعنوية - من تواضع ورحمة وعدل واحسان... فى حياة الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز انما نكتفى بهذا القدر لبيان فتوته، ومنه يتضح لنا أن مدرسة الشام على الرغم ما احاط بها من فساد وانحلال إلا أنه ظهرت بعض النماذج التى تحلت بالفتوة كانت هذه النماذج نبراساً للفتوة الصوفية فى هذه المدرسة.

أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ)

وكان في الشام فتي آخر على طراز عمر بن عبد العزيز. هو أبو سليمان الداراني وهو : عبد الرحمن بن عطية، ويقال عبد الرحمن بن أحمد بن عطية. من أهل "داريا" قرية من قرى الشام (دمشق) (٩٨) وإذا كان الفتي هو الواقف عند مراسم سيده. (٩٩) فإنه يدرك في حقيقته أنه عبد ياتمر بأمر خالقه سبحانه وتعالى، وينتهي عما نهى عنه، ولكي يدرك الفتي هذه المنزلة عليه بالمجاهدة، والإخلاص في العمل. وقد أدرك أبو سليمان الداراني حقيقة هذا الأمر لذلك ألزم نفسه بقيام الليل ساجداً لله تعالى يتلو كتابه امتثالاً لقول عز من قائل : "والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً". (١٠٠) وقوله تعالى : "تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً". (١٠١)

ويذكر الداراني أن أهل الليل على ثلاث طبقات : منهم إذا قرأ متفكراً بكى ومنهم إذا تفكر صاح وراحته في صياحه، ومنهم إذا قرأ وتفكر بهت ولم يصح ولم يدرك سائله. أن الأمر أقوى من التفسير، أنه يتكلم عن خطرات القلوب في المراحل. (١٠٢)

يقول الداراني : من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه. والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له. (١٠٣)

وهنا نجد الغاية التي ينشدها الداراني من قيام الليل، هي نفس الغاية التي يسعى إليها الفتيان، وهي الاخلاص بأعمال السرائر، لأن من أخفى الله تعالى الاخلاص بأعمال السرائر، اخفى لهم الله من الجزاء

نفيس الذخائر . استناداً إلى قوله تعالى : "فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين". (١٠٤)

وإذا كان الفتى عند الصوفية لا يهتم بالخلق حتى لا يحجب عن الحق، فيروى عن أحمد بن الحواري أنه قال : قلت لأبى سليمان : صليت صلاة في خلوة فوجدت لها لذة فقال : أى شئ لك فيها؟ قلت : حيث لم يرني أحد فقال : أنك لضعيف حيث خطر بقلبك ذكر الخلق. (١٠٥)

وإذا ما علمنا أن للفتوة مقام القوة، وإن الفتوة ليس فيها شئ من الضعف. (١٠٦) فإنه يتضح لنا قول الداراني لتلميذه أحمد بن الحواري : أنك لضعيف أى لم تصل بعد إلى القوة (الفتوة). وإذا كان الضعيف هو الذى يخطر بقلبه ذكر الخلق فإن القوى (الفتى) لا يخطر بقلبه ذكر الخلق ولا يهتم بهم حتى لا يحجب عن الحق سبحانه وتعالى.

وإذا كان الفتى عند الصوفية هو الذى يؤدب نفسه ويحاسبها ويخالف هواها فإننا نجد الداراني فى هذا الصدد يقول : ابلغ الأشياء فيما بين الله وبين العبد المحاسبة... ويقول : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس. (١٠٧)

وأبى سليمان الداراني شأنه شأن سائر الصوفية وفتيانهم، عرف حقيقة الدنيا وانها زائفة فانية، وانها لو كانت تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر فيها شربة ماء. لذلك خلع الدنيا من قلبه، واقتل بكايته إلى خالقه سبحانه يبتغى رضوانه. وفى هذا المعنى يقول الداراني : إذا سكنت الدنيا فى قلب ترحلت منه الآخرة. (١٠٨) ويقول أيضاً : لكل شئ مهر، ومهر الجنة ترك الدنيا بما فيها. (١٠٩)

وهكذا نجد فى مدرسة الشام فتى آخر على طراز عمر بن عبد العزيز هو أبو سليمان الداراني، وقد تمثلت فتوته فى المجاهدة والاخلاص فى العمل عن طريق قيام الليل. وعدم الاهتمام بالخلق حتى لا يحجب عن الحق.

ووصف الداراني من يخطر بقلبه ذكر الخلق بأنه ضعيف أى لم يصل إلى القوة "الفتوة". هذا بالإضافة إلى بعض الخصال الحميدة التى تكون فى مجموعها الفتوة - المعنوية - عند الصوفية ومنها ترك الدنيا، وابتغاء الآخرة، ومحاسبة النفس وتأديبها ومخالفة هواها.

مدرسة خراسان

قبل أن نخوض في الفتوة الصوفية في مدرسة خراسان، يحسن أن نقرر أن خراسان التي نعنيها هي المنطقة التي تستغرق مجموع مدن، بلخ، ونيسابور ومروالروز، وبيرود ونسا... وغيرها وتقع هذه المنطقة في ملتقى أفغانستان وإيران، أي في الشمال الشرقي من إيران الحالية. (١١٠)

وجدير بالذكر أن خراسان قد إمتلأت بالمظالم الأموية، وإن الإسلام ذاته لم يمنع الامويين من جباية الجزية من الفرس، وقد ادرك الخليفة العادل "عمر بن عبد العزيز" عيب السياسة الأموية بصفة عامة، وأخراسان بصفة خاصة فكتب لعامله على خراسان الذي أخبره بأن أهلها لا يصلحهم إلا السيف والعصا قائلاً : "بل كذبت، يصلحهم العدل حتى فابسطه بينهم". (١١١)

وكان من نتيجة هذا الظلم الأموي على الخراسانيين، أن ظهرت مرة فيها إلا أن هذه الفتوة لم تتمثل في مهاجمة الاغنياء وسلب أموالهم وتوزيع ثرواتهم على الفقراء، كما يفعل الشطار والعيارين. بل حلت فتوة خراسان بالإيثار والتضحية بالنفس في سبيل العدل والحق الكريم.

ولهذا فليس غريباً أن نسمع من عبد الله بن المبارك (ت ١٨٠هـ) مسألة الفتى بالقار . وكان من رأى عبد الله بن المبارك أن الفرق بين الفتوة والبراءة . البراءة يراد بها وجه الله تعالى، والفتوة يراد بها الناس ومهمهم . وأيسر معنى هذا أن الفتوة نوع من شرياء . فليس غريباً بعد ما تكون من ذلك . وإنما يراد بالفتوة

— فى رأى ابن المبارك — الاحسان إلى الناس وبعث السرور فى نفوسهم بعدما شاع فى بيئتهم من تعاسة وألم وفاقة، فكان الفتيان الخراسانيون الأوائل عباداً قراء مخلصى الايمان.(١١٣)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الفتوة فى خراسان قد اقتصرت مثلها على الجانب المعنوى، أى أنها اهتمت أساساً بالصفات الخلقية.

وبناء عليه يمكن القول أن الفتوة الصوفية انما وجدت فى خراسان. ولو انصف الجنيد ما قال : الفتوة بالشام، واللسان بالعراق، والصدق بخراسان. بل قال : الفتوة والصدق بخراسان.(١١٤)

ومن الأمثلة الدالة على أن فتوة خراسان اهتمت اساساً بالصفات الخلقية ما يروية القشيري، من أنه خرج انسان يدعى الفتوة من نيسابور إلى نسا فاستضافه رجل ومعه جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على ايديهم، فانقبض النيسابورى عن غسل اليد وقال : ليس الفتوة أن تصب النسوان الماء على ايدى الرجال.

فقال واحد منهم : أنا منذ سنين ادخل هذه الدار لم اعلم أن امرأة تصب الماء على ايدينا أم رجلاً.(١١٥)

والسؤال الآن من هو الفتى فى هذه القصة، هل هو من لاحظ أن امرأة تصب الماء على ايدى الرجال، فرفض ذلك قائلاً: ليس من الفتوة ان تصب النسوان الماء على ايدى الرجال أم هو صاحبه الذى يدخل الدار منذ سنين وعينه لا تقع على من يصب الماء، ولا يعلم أن كانت امرأة أم رجلاً.

واننا نرى أن هذا الأخير أكمل فى الفتوة من صاحبه لأنه غص
بصره، وترك فضول النظر الذى لا حاجة إليه، إذ من الفضول تميز
الفتى ما فى دار غيره من متاع وخادم... وغيرها.

وإذا ما اردنا أن نعرف ما هى الفتوة - فى خراسان - فلنستمع
إلى أبى حفص النيسابورى حينما اجتمع مشايخ بغداد وسألوه عن الفتوة.
فقال : تكلموا انتم فإن لكم العبارة واللسان. فقال الجنيد : الفتوة اسقاط
الرؤية وترك النسبة. فقال : ابو حفص : ما احسن ما قلت ولكن الفتوة
عندى اداء الانصاف وترك مطالبة الانصاف فقال الجنيد : قوموا يا
أحابنا، فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته.(١١٦)

وهذا اعتراف وقرار من الجنيد بأسبقية أبى حفص فى ميدان
الفتوة، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الجنيد لو انصف لقال : "ان الفتوة
والصدق بخراسان".

وإذا ما قارنا بين عبارتى أبى حفص النيسابورى والجنيد، تبين
لنا الفرق بين وجهتى نظرهما فى هذه المسألة. فالجنيد يرى الفتوة فى
اسقاط الرؤية: أى فى عدم النظر إلى الاعمال نظرة اعتبار وتقدير،
وترك النسبة : أى اسقاط العلائق والروابط التى تربط الانسان بأى شئ
أو أى موجود غير الله. وعلى ذلك فالفتوة عنده هى الزهد الكامل.

أما أبو حفص فيرى الفتوة فى اداء ما يراه الصوفى انصافاً
وعدلاً، أى القيام بجميع الواجبات الشرعية والاجتماعية بدون أن يطالب
القائم بها بأنصاف من جانب الشرع أو من جانب المجتمع : أى أن
الفتوة عنده هى التضحية الخالصة (١١٧).

وتأكيداً لذلك يذكر السلمى أن أبا حفص النيسابورى لما أراد الخروج من بغداد شيعه من بها من المشايخ والفتيان، فلما ارادوا أن يرجعوا قال له بعضهم : دلنا على الفتوة ما هي؟ فقال الفتوة تؤخذ استعمالاً ومعاملة لا نطقاً فتعجبوا من كلامه. وسئل أبو حفص : هل للفتى من علامة؟ قال : نعم من يرى الفتيان ولا يستحي منهم فى شمائله، وافعاله، فهو فتى. (١١٨)

مما سبق يتضح لنا أن الفتوة انما هي نظام أو اسلوب حياة يحياها الفتى الصوفى ويعيشها وليس أقوال نظرية يتحدث عنها ويشرحها، وإن هذه الحياة يجب ان يتصف صاحبها بحسن الخلق. وفى هذا الصدد يقول محمد بن الفضل البلخى (ت ٣١٩هـ) : الفتوة حفظ السر مع الله على الموافقة، وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة واستعمال الخلق. (١١٩)

وتأكيداً على أن الفتوة ما هي إلا اسلوب حياة، وليست مجرد اقوال نظرية، ما كان من حمدون القصار (ت ٢٧١هـ) الذى يذكرنا - فى فتوته - بعمر بن عبد العزيز الذى كان يطفى شمعة بيت مال المسلمين إذا انشغل بعمل يتصل بشخصه فسار حمدون القصار فى الشوط إلى نهايته فأطفأ شمعة صديق له مات : فقالوا له : فى مثل هذا الوقت يزداد فى السراج الدهن؟ فقال لهم : ان هذا الوقت كان الدهن له، ومن هذا الوقت صار الدهن للورثة. (١٢٠)

وليست هذه مجرد اقوال متفرقة نجمها من أمهات الكتب لندلل بها على أن الفتوة والصدق بخراسان، وانما نجد هذه الفتوة واضحة جلية عند كثير من رجال هذه المدرسة.

الفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ)

اختلف الباحثون قديماً وحديثاً حول المدرسة التي ينتمى إليها الفضيل بن عياض فالبعض يعتبره من مدرسة خراسان، والبعض الآخر يعتبره من مدرسة مكة، ويدرجة الدكتور الشيبى فى مدرسة الكوفة. وقد اتى هذا الاختلاف نتيجة اختلاف الناس فى أصل الفضيل بن عياض، فبينما يذهب السلى إلى أن الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى ثم اليربوعى خراسانى من ناحية مرو من قرية يقال لها فندين. (١٢١)

يذهب القشيرى إلى أن أبا على الفضيل بن عياض خراسانى من ناحية مرو، وأنه ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد، ومات بمكة فى المحرم سنة سبع وثمانين ومائة. (١٢٢) ويحسم هذا الأمر ابنه أبو عبيدة بن الفضيل بن عياض فيقول : أبى فضيل بن عياض ابن مسعود بن بشر يكنى بأبى على، من بنى تميم، من بنى يربوع، من أنفسهم ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد والاصل من الكوفة. (١٢٣)

واود أن أصل من هذا إلى أن الرجل كان عربياً، ولكنه عاش باكورة حياته فى خراسان - فى بيتها وجوها - وقدم الكوفة، ثم انتقل إلى مكة - مجاوراً - حتى مات بها. وعلى هذا فإننا نتفق فى رأى مع من يذهب إلى أن الفضيل من مدرسة خراسان، وذلك لأن سمات هذه المدرسة تتبثق فيه. (١٢٤)

وعن سبب تزهّد الفضيل يذكر القشيرى أنه كان شاطراً يقطع الطريق بين ابيورد وسرخس. وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو قول الله تعالى: "ألم يأن

للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله" (١٢٥) فقال : يارب قد آن،
فرجع، فأواه الليل إلى خربه، فإذا فيها رفقة فقال بعضهم : نرتحل،
وقال قوم حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا. فتأب
الفضيل وامنهم، وجاور الحرم حتى مات. (١٢٦)

ويذكر الهجويزي أن الفضيل بن عياض كان في بداية أمره
عياراً، يقطع الطريق بين مرو، وباورد (ابيوردي) وكان يميل كل الميل
إلى الصلاح، وفي طبعه همة وفتوة بحيث إذا كان في القافلة امرأة لم
يكن يحوم حولها ولا يأخذ بضاعة من رجل ذي رأس مال قليل وكان
يترك لكل رجل شيئاً بنسبة رأس ماله. إلى أن جاء وقت خرج فيه تاجر
من مرو، فقالوا له : خذ معك حارساً لأن الفضيل على الطريق فقال :
سمعت أنه رجل يخشى الله وذو بصيرة فلا خوف. وصحب التاجر
معه قارئاً، واركبه جملأ ليتلو القرآن ليلاً ونهاراً، إلى أن بلغت القافلة
مكاناً كان الفضيل يكمن فيه.

واتفق أن قرأ القارئ قوله تعالى : " ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع
قلوبهم لذكر الله ". فبذت رقة في قلب الفضيل، وظهرت العناية سلطان
ألطافها لروحه فتأب عن ذلك العمل. (١٢٧)

. مما سبق نصل إلى أن الفضيل كان في بداية حياته عياراً
شاطراً يقطع الطريق على القوافل إلا أنه كان في طبعه همة وفتوة.
وهذا الأمر أقرب إلى الصلابة منه إلى الفتوة. حتى إذا ما تاب عن
هذا الفعل كان على رأس فتیان الزهاد والصوفية.

فيعتبره ابن العمار، شيخ الفتیان، ويورد له حديثاً عن الرسول
في الفتوة. قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — "ليأتى على الناس

زمان تعدم فيه الفتوة، وتتقضى فيه المرؤة وتضيّق فيه الاخلاق، ويستغنى الرجل بالرجل، والنساء بالنساء فإذا كان ذلك فانتظروا العذاب صباحاً ومساءً". (١٢٨)

ومن اصدق الموافق التي تدل على فتوة الفضيل بن عياض، ما رواه الفضيل بن الربيع (حاجب الرشيد) قال : ذهبت إلى مكة مع هارون الرشيد، فلما حججنا قال لى هارون : انا رجل من رجال الله فنزوره؟ فصحبته إلى الفضيل بن عياض، وكان يقيم فى غرفة يتلو القرآن... وعندما تمت المقابلة بين أمير المؤمنين — هارون الرشيد والفضيل بن عياض قال له الرشيد : عظمى قال يا أمير المؤمنين قد كان أبوك عم المصطفى — صلوات الله عليه — فطلب إليه أن اجعلنى اميراً على قوم، قال صلى الله عليه وسلم "يا عم، بك نفسك" يعنى لأن تكون لحظة فى طاعة الله خير من طاعة الخلق لك ألف عام، لأن الإمارة يوم القيامة ندامة. قال له الرشيد : زد من عظمى. فقال الفضيل ابن عياض : لما نصب عمر بن عبد العزيز للخلافة استدعى سالماً بن عبد الله ورجاء بن حيوة، ومحمد بن كعب القرظى رحمهم الله — وقال : لقد ابتليت بهذه البلية فما تدبيري؟ فأنى ارى هذا بلاء مهما يظنه الناس نعمة.

فقال واحد منهم : إذا اردت أن يكون لك الفوز والنجاة غداً يوم القيامة، فأعتبر شيوخ المسلمين كابيك وشبابهم كأخوتك، واطفالهم كأبنائك.... وحينئذ عاملهم كما تعامل أباك وإخاك وولدك فى دارك لأن جميع ديار الإسلام بيتك وأهلها عيالک، فزر أباك، وأكرم أخاك، واحسن إلى ولدك.

ثم قال الفضيل : يا أمير المؤمنين، أنى أخشى على وجهك
الجميل أن يبتلى بنار جهنم فآخس الله تعالى، وأد حقّه خيراً من هذا.
وقال له هارون بعد ذلك : اعليك دين؟ قال نعم دين الله على،
وهو طاعته، فإذا قضيتّه نجيتى من الويل. فقال هارون : أتكلم عن
دينك للخلق.

فقال : الحمد والثناء والشكر لله جل جلاله إذ لى منه نعم كثيرة
وليس لى منه شكوى حتى اشكوه إلى عباده... وعندئذ وضع هارون
أمامه صرّه ذهب وقال له : اصرف هذا فى وجه من الوجوه.

فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين أن عظتى هذه لم تفدك قط ومن
هنا اخذت فى الجور وبدأت الظلم. فقال هارون : أى ظلم فعلت قال
الفضيل : أنا أدعوك إلى النجاة وأنت توقعنى فى الهلاك، أفلا يكون هذا
ظلماً؟ فبكى هارون وخرج من عنده وقال : يا فضيل بن ربيع، أن
الملك هو الفضيل. (١٢٩)

لقد أثّرنا أن نذكر هذه الرواية على الرغم من طولها كما هى،
وكما ذكرها صاحب كشف المحجوب، ذلك لأنها دليل على فتوة الفضيل
وعلى منزلة الدنيا عند رجال الله — الفتيان — أمثال الفضيل، كما أنها
دليلاً على صولته فى الدنيا وأهلها وحقارة زينتها فى قلبه، وتركه
التواضع لأهل الدنيا مهما كانت منزلتهم، حتى ولو كان أمير المؤمنين
— من أجل الدنيا إذ ان التواضع الحق انما يكون للخالق سبحانه وتعالى
من أجل الفوز بالنجاة فى الآخرة.

ومما لا شك فيه أن التأمل الذاتى فى حياة الفضيل بن عياض
وفى كلماته ليبين بوضوح أن الرجل عاش عيشة إيثار ومرؤة وسخاء.

ويتضح ذلك في قوله "لم يدرك عندنا من ادرك بكثرة صيام ولا صلاة،
وانما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدر، والنصح للأمة". (١٣٠)
ويقول ايضاً : "لو ان الدنيا بحذاقيرها عرضت على ولا أحاسب
بها لكنت اتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها ان تصيب
ثوبه". (١٣١)

من أجل هذا زهد الفضيل في الدنيا حتى أنه جعل الرغبة فيها
مفتاح كل شر إذ يقول : "اجعل الشر كله في بيت، وأجعل مفتاحه
الرغبة في الدنيا وأجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في
الدنيا".

والفضيل بن عياض شأنه شأن فتیان الصوفية يؤثر اخفاء
الاعمال، والبعد عن النفاق والرياء. فيقول : "خير العمل اخفاه، وامنعه
من الشيطان، ابعده من الرياء". (١٣٢)
ولهذا أثر الفضيل البعد عن الدنيا وزخرفها قائلاً : طوبى لمن
استوحش من الناس وانس بريه، وبكى على خطيئته. (١٣٣)

أحمد بن خضروية (ت ١٣٤٠هـ)

يقول عنه السلمى : هو أحمد بن خضروية البلخى، كنيته أبو حامد، وهو من كبار مشايخ خراسان. صاحب أبا تراب النخشبى وحامتا الأصم، ورحل إلى أبى يزيد البسطامى. وهو من مذكورى مشايخ خراسان بالفتوة وتوفى سنة أربعين ومائتين. (١٣٤)

ويذكر القشيرى أن أحمد بن خضروية كان من كبار مشايخ خراسان، وكان كبيراً فى الفتوة. وقال أبو حفص : ما رأيت أحداً أكبر همة ولا أصدق حالاً من أحمد بن خضروية. وكان أبو يزيد يقول : استاذنا أحمد. (١٣٥)

وهكذا نجد أنه اتفقت الآراء — من جانب اصحاب الطبقات — على أن أحمد بن خضروية من كبار مشايخ خراسان، وأنه كان كبيراً فى الفتوة. وسوف نحاول من خلال عرض أقواله وافعاله أن نتعرف على بعض جوانب فتوته.

قال رجل لأحمد بن خضروية : اوصينى فقال : أمت نفسك حتى يحييها. (١٣٦) وهنا تجدر الإشارة إلى أن المقصود بالنفس فى هذه الوصية، إنما هى النفس الشهوانية التى تأمر صاحبها بالسوء والفحشاء. فنفس الأدمى إذا راضها بترك الشهوات، وقطعها عن الملذات حتى تذلل له وتتقمع، فلا تتحكم فيه بشهوة ولا تطالبه برغبة وإنما تكون سلسلة منقادة للقلب والعقل، مستقيمة فى سيرها على حد ما أمرت به دون زيادة أو نقص.

أما إذا لم يؤدب العبد نفسه، ولم يعودها على رفض الشهوات المطلقة لها حتى تذلل وتسكن لم يملكها عند ذكر ما يعرض لها، ولم يقدر على تسكينها.

وهنا يصبح عرضة عند جهاده لنفسه لأن يغلب أو يغلب ولذلك يوجد العبد مرة طائعاً، ومرة عاصياً في شهوة واحدة، وهذا هو التخليط، وهو ناشئ من بقاء الشهوة حية في النفس فتتحكم كلما مكنتها الفرصة، لذا ينبغي العمل على إماتة هذه الشهوة. (١٣٧)

وعلى هذا يجب أن نفهم أن موت النفس — في وصية ابن خضروية — لا يعنى ان الانسان يصبح ولا نفس له، انما يعنى تأديب النفس الشهوانية الأمارة بالسوء أى أنه بدلاً من أن تكون الشهوة مسيطرة ومتحكمة في مشاعر الإنسان وتفكيره، تصبح ذلولة منقادة لقلبه وعقله، بدلاً من أن تكون متجهة اتجاهاً دنيوياً حراً، تصبح موجهة توجيهاً دينياً مقيداً.

وإذا كان الجود والكرم سمة — هامة — من سمات الفتيان. فيذكر الهجویری أنه عندما جاء يحيى بن معاذ الرازى من الرى إلى نيسابور، وقصد بلخ، اراد أحمد بن خضروية ان يدعوه، فشاور فاطمة — زوجته — فيما ينبغي لدعوة يحيى بن معاذ. فقالت : يلزم كثير من البقر والخراف والحوائج والتوابل، وكثير من الشمع والعطر.. وكل من هذا يلزم أيضاً ذبح عشرين حماراً. فسألها أحمد : ما معنى ذبح الحمير؟ قال : حين يكون كريم ضعيفاً ببيت كريم أما يجب أن تعرف كلاب الحى ذلك؟ (١٣٨)

كذلك يروى أن أحمد بن خضروية استقرض من رجل مائة ألف درهم، فقال له الرجل : أليس انتم الزهاد في الدنيا؟ ما تصنع بهذه الدراهم؟ قال : اشتري بها لقمة فاضعها في فم مؤمن لا اجترئ أن أسأل ثوابه من الله تعالى. قال الرجل : لم؟ قال : لأن الدنيا كلها لا تزيد عند الله جناح بعوضة، وما مائة ألف درهم في الدنيا، من جناح بعوضة؟ لو أخذتها، فطلبت بها شيئاً ما الذي تعطى بها؟ والدنيا كلها لها هذا القدر. (١٣٩)

وهنا نجد أنفسنا أمام فتى من أهل الآخرة، في مجادلة مع انسان من أهل الدنيا يوضح الفتى في هذا الموقف أن المال لا قيمة له ان لم يوسع به على اخواننا في الإيمان ولا ننتظر ثواباً ولا شكوراً عن هذا العمل. ذلك لأن الدنيا وما فيها لا تساوى عند الله جناح بعوضة. فما قيمة المال، إذا لم ينفقه الفتى على اخوانه في الإيمان وهو في حاجة إليه.

اضف إلى هذا أن موقف أحمد بن خضروية في هذا الصدد يوضح أن الفتى قد يقترض حتى يوسع على اخوانه في الإيمان. على العكس من العيار والشاطر الذي قد يلجأ إلى السرقة وقطع الطريق ويسلب الاغنياء أموالهم بحجة توزيعها على الفقراء والمحتاجين ويذكر الدكتور الشيبى نقلاً عن حلية الأولياء — أن أحمد بن خضروية قد اضاف دليلاً آخر إلى ما كان الفتيان يتصفون به من تضحية وانكار ذات بمجيئه بزوجه إلى ابى يزيد البسطامي ليزوجها اياه. (١٤٠)

إلا أننا نجد أن ما يذكره الدكتور الشيبى نقلاً عن صاحب الحلية لا يتفق مع اخلاق الفتيان كما أنه لا يتفق مع ما يرويه الهجویری الذي

يذكر : أن أحمد بن خضرويه عندما قصد زيارة أبو زيد البسطامي رافقته فاطمة - زوجه - ولما أقبلت على أبي يزيد رفعت البرقع عن وجهها وكانت تتحدث معه بجرأة فتعجب أحمد من ذلك، واستولت الغيرة على قلبه، فقال : يا فاطمة أى جرأة تلك التى كانت لك مع أبى يزيد؟

فقالت : لأنك محرم طبيعتى وهو محرم طريقتى. والدليل على هذا أنه فى غنى عن صحبتى وأنت محتاج إلى. وكانت دائماً جريئة مع أبى يزيد، حتى وقعت عينه يوماً على يدها فوجدها مخضوبة بالحناء فقال : يا فاطمة لم الخضاب بالحناء؟ فقالت : يا أبا يزيد لقد كنت أتبسط معك طالما لم تكن رأيت يدي وحنائي، والآن وقد وقعت عينيك على يدي فقد صارت صحبتنا حراماً. (١٤١)

بالإضافة إلى هذا فقد قال أبو يزيد عن فاطمة : من أراد أن ينظر إلى رجل من الرجال مخبوء تحت لباس النسوان فلينظر إلى فاطمة. (١٤٢)

وإذا كان الفتى من كانت أعماله سرّاً بينه وبين خالقه، ولا يجب أن يطلع عليها أحد سوى الحق تبارك وتعالى فقد أكد أحمد بن خضرويه على هذا المعنى فى قوله : بلغنى أنه استأذن بعض الأغنياء على الزهاد فأذن له فرأه فى رمضان - يأكل خبزاً يابساً بملح فرجع إلى منزله، وبعث إليه ألف دينار - فردّه، وقال : ان هذا جزاء من أفشى سره إلى مثلك.

لهذا عندما سئل أحمد بن خضروية عن أى الأعمال أفضل،
قال: رعاية السر عن الالتفات إلى شئ سوى الله تعالى. (١٤٣)
معنى هذا أن السر هو ما لا يجوز أن يعلمه غير الله، أو يطلع
عليه غيره لأنه سبحانه وتعالى انفرد به دون الخلق. ولهذا قالوا :
صدور الأحرار قبور الأسرار وقالوا: لو عرف زرى سرى
لطرحتّه. (١٤٤)

أبو تراب النخشبى (ت ١٢٤٥هـ)

لقد أثرنا فى هذا الجزء من البحث أن نستعرض آراء وأقوال أبو تراب النخشبى ذلك لأننا وجدنا أن كتب الطبقات قد أجمعت على أن أبا تراب النخشبى من جلة مشايخ خراسان، ومن المذكورين بالفتوة. يقول عنه السلمى :

أبو تراب النخشبى، واسمه عسكر بن حصين، ويقال : عسكر بن محمد بن حصين وهو من جلة مشايخ خراسان، والمذكورين بالعلم، والفتوة، والتوكل، والزهد والورع. (١٤٥) ويقول عنه الشعرانى : هو من أجلة مشايخ خراسان وكبارهم المشهورين بالعلم والفتوة والزهد، والتوكل، والورع. (١٤٦)

بالإضافة إلى هذا فإننا سنجد — عند الحديث عن الملامتية — أن كثيرا من آراء أبى تراب النخشبى كان لها أثراً واضحاً، وصداً واسعاً عند كثير من الملامتية، وخاصة عند تلميذه حمدون القصار، لاسيما فى مسائل التوكل، والنهى عن لبس المرقعة وفى معنى الصدق، والاخلاص (١٤٧) وغير ذلك من المعانى التى تدخل ضمن فتوة الصوفية.

وإذا اعتبرنا التوكل من السمات التى يتحلى بها الصوفية عامة وفتيانهم خاصة، فنريد أن نعرف ما هو التوكل عند النخشبى؟ قال أبو تراب النخشبى : التوكل طمأنينة القلب إلى الله عز وجل. (١٤٨)

وسئل أبو تراب عن التوكل فقال : التوكل، طرح البدن فى العبودية، وتعليق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطى شكر، وإن منع صبر راضياً موافقاً للقدر. (١٤٩)

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن التوكل مقام شريف، وقد أمر الله تعالى بالتوكل وجعله من صفات المؤمنين، وذلك فى قوله تعالى: "وعلى الله فليتوكل المؤمنون". (١٥٠)

وقال تعالى : " ومن يتوكل على الله فهو حسبه". (١٥١)

ومن ذلك نصل إلى أن التوكل الذى قصده النخشبى، هو انتهاء القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة، وسائر الاسباب الظاهرة، لأنه فى هذه الحالة يفنى العبد عن التدبير ولا يجد له حولاً ولا قوة إلا بالله، ولا يشعر إلا بالقدرية الالهية والارادة الربانية. (١٥٢)

فإذا ما اطمئن القلب إلى الله، انقطع العبد إلى الله عز وجل، وكفاة مولاه كل مؤنه ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها.

وإذا كان الفتى الصوفى يرى أن الفقر سر الله عنده فإذا ظهر عليه فقره منه فإنه فى هذه الحالة يكون غير أمين على الاسرار التى اودعها الله عنده.

لذلك قال أبو تراب النخشبى : الفقير قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل (١٥٣) ويفسر الهجویری هذا المعنى للفقر قائلاً : وقد بقى أهل العلم جميعاً فى بلاء هذه الثلاثة - القوت، واللباس، والمسكن - لأنهم يتكفون وهذا من جهة المعاملة ولكن من وجهة التحقيق فغذاء الفقير الوجد، ولباسه التقوى، ومسكنه الغيب (١٥٤)

لأن الله تعالى يقول "وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً"؟ (١٥٥) وقال عز من قائل : "وريشا ونباس التقوى" (١٥٦)

وعلى هذا يمكن القول أن الفقر ليس معناه — عند فتيان الصوفية — قلة المال، بل الفقر هو الحاجة، والحاجة لا تكون إلا لله تعالى. بمعنى أن الفتى — وإن كان غنياً فإنه يشعر رغم غناه وثروته بحاجة وبعجزه وبفقره إلى الله سبحانه وتعالى، فإذا احتاج إلى غيره، سبحانه، لم يعد فقيراً، فشرط الفقر، إذن هو حاجة العبد إلى الله تعالى على الدوام، لأنه ليس هناك غنى إلا الله تعالى. وقد أكد أبو تراب النخشبى على هذا فى قوله : " حقيقة الغنى، أن تستغنى عن هو مثلك وحقيقة الفقر، ألا تقتنر إلى من هو مثلك. (١٥٧)

وفى هذا القول يتضح لنا أن الغنى هو الاستغناء عن الناس، والفقر هو ألا يحتاج العبد إلى من هو مثله من الخلق، إنما حاجة العبد إلى خالقه ومولاه أما إذا كان الفقر يعنى قلة المال، فهذا يجب على الفقير أن يكون قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما فى أيديهم، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والسكن، فيكون قوته — كما قال النخشبى — ما وجد ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل فإذا ما كان الفقير قانعاً، ومنقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما فى أيديهم فيكون التفاته، وإقباله إلى خالقه سبحانه.

وقد أكد النخشبى على هذا بقوله : القناعة أخذ القوت من الله عز وجل (١٥٨) بالإضافة إلى هذا فقد نهى أبو تراب النخشبى أصحابه

عن اظهار الفقر بلبس المرقع من الثياب قائلاً : من لبس منكم مرقعة فقد سأل. (١٥٩)

وقد أكد النخشبى فى هذا القول على معنيين الأول : ستر الفقر، لأنه سر الله عند العبد، ولا يجب على العبد أن يبوح بسر مولاه. الثانى : أن العبد لا يسأل إلا الله تعالى، وذلك لأنه محتاج دوماً إلى خالقه سبحانه ولا يتأتى ذلك إلا بحفظ الهم حيث قال النخشبى : احفظ همك، فإنه مقدمة الأشياء فمن صح له همه صح له ما بعد ذلك من افعاله واحواله. (١٦٠)

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هم العبد هو سره، وسره هو همه، فلا فرق بينهما. (١٦١) فإذا ما حفظ العبد همه — أى سره — تجرد من جميع الأشغال، وتفرد بمراقبة ذى الجلال فلا تعارضه خواطر قاطعة ولا عوارض مانعة عن التوبة والاقبال والقرب وهو بذلك بمثابة المناجى لله، والمحدث فى الله، والطائع فى طريق الله. (١٦٢)

هوامش الفصل الرابع

- (١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج ٣ ص ١٠٥
- (٢) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ج ١ ص ٣٠٨
- (٣) سيف بن عمر الضبى الأسدى : الفتنة ووقعة الجمل ص ١٢٢، ١٢٣
- (٤) سيف بن عمر الضبى الاسدى : الفتنة ووقعة الجمل ص ١٣٠
- (٥) المرجع السابق ص ١٣٠
- (٦) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج ٣ ص ١٠٦
- (٧) المرجع السابق ص ١٠٧
- (٨) ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ٢ ص ١٤٩
- (٩) الشعرانى : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٠
- (١٠) المرجع السابق : ج ١ ص ٢٩
- (١١) سورة البقرة : الأيتان ١٥٦، ١٥٧
- (١٢) سورة المدثر : الآية ٤٢
- (١٣) سورة التوبة : الآية ١٠٢
- (١٤) أبو نعيم الاصبهاني : حلية الأولياء ج ٢ ص ١٩٨.
- (١٥) القشيري : الرسالة ص ٦٨، ٦٩.
- (١٦) الشعرانى : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٩
- (١٧) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج ٢ ص ١٢٤
- (١٨) الغزالي : احياء علوم الدين ج ٣ ص ٣٧٠
- (١٩) المرجع السابق ص ٣٧٤

- (٢٠) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٢٨
- (٢١) الهجویری : كشف المحجوب ص ٢٩٤
- (٢٢) د. حسن الشرقاوى : أصول التصوف الإسلامى ص ٢٨١
- (٢٣) أبو نعيم الاصبهانی : حلیه الأولیاء جـ ٢ ص ٢١٣١، ١٣٢
- (٢٤) أبو نعيم الاصبهانی : حلیه الأولیاء : جـ ٢ ص ١٣٣٣، ١٣٤
- (٢٥) المرجع السابق : ص ١٣٧، ١٣٨
- (٢٦) الهجویری : كشف المحجوب ص ٢٩٤
- (٢٧) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٥
- (٢٨) الشعرانى : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٥
- (٢٩) المرجع السابق ص ٢٦
- (٣٠) ابن الجوزی : صفة الصفوة جـ ٣ ص ٥٧
- (٣١) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٣٧
- (٣٢) سورة الحشر : الآية ١٨
- (٣٣) الغزالی : مكاشفة القلوب ص ٣٢١، ٣٢٢
- (٣٤) ابن الجوزی : صفة الصفوة جـ ٣ ص ١٥٦
- (٣٥) أبو نعيم الاصبهانی : حلیه الأولیاء جـ ٢ ص ١٣٣
- (٣٦) د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٣ ص ١٦٢
- (٣٧) أبو نعيم الاصبهانی : حلیه الأولیاء جـ ٢ ص ٣٤٥ - ٣٤٧
- (٣٨) السلمی : رسالة الملامتية ص ١١٧
- (٣٩) السلمی : رسالة الملامتية ص ١٢٢
- (٤٠) المرجع السابق : ١١٣
- (٤١) د. أبو العلا عفیفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٦٤

- (٤٢) أبو النعيم الاصبهاني : حلية الأولياء جـ ٢ ص ٣٤٩
- (٤٣) الهجویری : كشف المحجوب ص ٣٠١
- (٤٤) د. علی سامی النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٣ ص ٢١٧
- (٤٥) د. كامل مصطفى الشبيبي : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص ٣٠٣
- (٤٦) الشعراني : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٣٧
- (٤٧) الشعراني : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٣٥
- (٤٨) د. كامل مصطفى الشبيبي : الصلة بين التصوف والتشيع جـ ٣ ص ٣٠٣
- (٤٩) د. أبو العلا عفيفي : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٢٨
- (٥٠) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٤٠
- (٥١) د. علی سامی النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٩
- (٥٢) أبو نعيم الاصبهاني : حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٥٧
- (٥٣) الشعراني : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٠
- (٥٤) الاصبهاني : حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٨٧
- (٥٥) المرجع السابق : ص ٢٦٣
- (٥٦) الهجویری : كشف المحجوب ص ٣٠٣
- (٥٧) أبو نعيم الاصبهاني : حلية الأولياء جـ ٦ ص ٣٨٢
- (٥٨) د. حسن الشرقاوی : الحكومة الباطنية ص ٢٤٠
- (٥٩) الشعراني : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٢
- (٦٠) د. علی سامی النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٣ ص ٢٤٢
- (٦١) الشعراني : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤١
- (٦٢) المرجع السابق : ص ٤٢
- (٦٣) د. أبو العلا عفيفي : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٦٢

- (٦٤) الهجویری : كشف المحجوب ص ٣٢١
- (٦٥) القشیری : الرسالة ص ١٣
- (٦٦) ابن الجوزی : صفة الصفوة ج ٣ ص ٧٤
- (٦٧) القشیری : الرسالة ص ١٣
- (٦٨) القشیری : الرسالة ص ١٣
- (٦٩) الغزالی : احياء علوم الدين ج ٣ ص ٣٧٠
- (٧٠) المرجع السابق : ص ٣٧٩
- (٧١) د. على سامی النشار : نشأة الفكر الفلسفی فی الإسلام ج ٣ ص ٢٤٨،
- ٢٤٩
- (٧٢) سورة ق : الآية ١٨
- (٧٣) الغزالی : الاحیاء ج ٣ ص ١١٠
- (٧٤) المرجع السابق : ص ١١١
- (٧٥) المرجع السابق : ص ١١١
- (٧٦) الهجویری : كشف المحجوب ص ٣٢١
- (٧٧) القشیری : الرسالة ص ١٤
- (٧٨) تاریخ الطبری : ج ٣ ص ٢٠٣
- (٧٩) الذهبی : سیر أعلام النبلاء ج ٣ ص ٨٩
- (٨٠) د. طه حسین : الفتنة الكبرى ج ١ ص ١٦٤
- (٨١) ابن الجوزی : صفة الصفوة ج ١ ص ٢٦٢
- (٨٢) الشعرانی : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢١
- (٨٣) د. على سامی النشار : نشأة الفكر الفلسفی فی الإسلام ج ٣ ص ٢٩١
- (٨٤) المرجع السابق : ص ٢٨٥

- (٨٥) رحلة ابن جبیر : تحقیق د. حسین نصار ص ١٦٩
- (٨٦) د. حسن الشرقاوی : أصول التصوف الاسلامی ص ١٧٢
- (٨٧) د. کامل مصطفى الشیبی : الصلة بين التصوف والتشیع ج ١ ص ٣٤٠
- (٨٨) المرجع السابق : ص ٣٤٠، دیوان الشریف الرضی ص ١٦٩، ١٧٠
- (٨٩) د. حسن الشرقاوی : ألفاظ الصوفیة ومعانیها ص ١٩٢
- (٩٠) الشعرانی : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٩
- (٩١) الاصبهانی : حلیة الأولیاء ج ٥ ص ٦٢٨
- (٩٢) الشعرانی : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٩
- (٩٣) القشیری : الرسالة ص ٥٨
- (٩٤) الاصبهانی : حلیة الأولیاء ج ٥ ص ٣٢٤
- (٩٥) القشیری : الرسالة ص ٥٩
- (٩٦) د. حسن الشرقاوی : أصول التصوف الاسلامی ص ١٧٦
- (٩٧) المرجع السابق ص ١٩٤٠
- (٩٨) السلمی : : طبقات الصوفیة ص ٧٥ تحقیق نور الدین شریبة
- (٩٩) ابن عربی : الفتوحات المکیة السفر الرابع ف ٤٣ ص ٥٨
- (١٠٠) سورة الفرقان : الآیة ٦٤
- (١٠١) سورة السجدة : الآیة ١٦
- (١٠٢) د. علی سامی النشار : نشأة الفكر الفلسفی فی الإسلام ج ٣ ص ٣٠٩
- (١٠٣) القشیری : الرسالة : الآیة ١٧
- (١٠٤) سورة السجدة : الآیة ١٧
- (١٠٥) السلمی : طبقات الصوفیة ص ٧٩
- (١٠٦) ابن عربی : الفتوحات السفر الرابع ف ٣٦ - ٣٨ ص ٥٤، ٥٣

- (١٠٧) السلمي : طبقات الصوفية ص ٨٠ ، ٨١
- (١٠٨) المرجع السابق : ص ٧٧
- (١٠٩) المرجع السابق : ٨١
- (١١٠) د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ج١ ص ٣٤٥
- (١١١) المناوى : الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ج١ ص ١٤٣
- (١١٢) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج٢ ص ١٧٢
- (١١٣) د. الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ج١ ص ٥٣٥
- (١١٤) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٢٩
- (١١٥) القشيري : الرسالة ص ١١٤
- (١١٦) السلمي : طبقات الصوفية ص ١١٧ ، ١١٨
- (١١٧) د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ٣٧
- (١١٨) السلمي : طبقات الصوفية ص ١١٨
- (١١٩) المرجع السابق : ص ٢١٦
- (١٢٠) القشيري : الرسالة ص ٢٠
- (١٢١) السلمي : طبقات الصوفية ص ٦
- (١٢٢) القشيري : الرسالة ص ٩
- (١٢٣) السلمي : طبقات الصوفية ص ٨
- (١٢٤) د. النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج٣ ص ٣٩٣
- (١٢٥) سورة الحديد : الآية ١٦
- (١٢٦) القشيري : الرسالة ص ٩
- (١٢٧) الهجویری : كشف المحجوب ص ٣٠٨
- (١٢٨) ابن العمار : الفتوة ص ١٣٣ ، ١٣٤

- (١٢٩) الهجویری : كشف المحجوب ص ٣١٠، ٣١١
(١٣٠) السلمی : طبقات الصوفیة ص ١٠
(١٣١) القشیری : الرسالة ص ١٠
(١٣٢) السلمی : طبقات الصوفیة ص ١٣
(١٣٣) المرجع السابق : ص ١٤
(١٣٤) السلمی : طبقات الصوفیة ص ١٠٣
(١٣٥) القشیری : الرسالة ص ١٨
(١٣٦) السلمی : طبقات الصوفیة ص ١٠٥
(١٣٧) د. عبد الفتاح بركه : الحکیم الترمذی ونظریته فی الولاية ج٢ ص ١٩٨

— ١٩٩

- (١٣٨) الهجویری : كشف المحجوب ص ٣٣٣
(١٣٩) السلمی : طبقات الصوفیة ص ١٠٤
(١٤٠) د. الشیبی : الصلة بین التصوف والتشیع ج١ ص ٥٣٦
(١٤١) الهجویری : كشف المحجوب ص ٣٣٢
(١٤٢) المرجع السابق : ص ٣٣٣
(١٤٣) السلمی : طبقات الصوفیة ص ١٠٦
(١٤٤) القشیری : الرسالة ص ٤٩
(١٤٥) السلمی : طبقات الصوفیة ص ٧
(١٤٦) الشعرا نی : الطبقات الکبری ج١ ص ٧١
(١٤٧) د. أبو العلا عفیفی : الملامتیة والصوفیة وأهل الفتوة ص ٣٦
(١٤٨) السلمی : طبقات الصوفیة ص ١٥٠
(١٤٩) الطوسی : اللمع ص ٧٨

- (١٥٠) سورة المائدة : الآية ١١
- (١٥١) سورة الطلاق : الآية ٣
- (١٥٢) د- حسن الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ص ١١٣
- (١٥٣) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٤٩
- (١٥٤) الهجویری : كشف المحجوب ص ٢٣٤
- (١٥٥) سورة الجن : الآية ١٦
- (١٥٦) سورة الأعراف : الآية ٢٦
- (١٥٧) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥٠
- (١٥٨) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥١
- (١٥٩) القشیری : الرسالة ص ١٨
- (١٦٠) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٥١
- (١٦١) الطوسى : اللمع ص ٤٢٥
- (١٦٢) د. حسن الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ص ١١٣

الفصل الخامس

بين الفتنة الإسلامية والفروسية الغربية

تعريف الفروسية الغربية ونشأتها

قد يرى البعض أن الحديث عن الفروسية الغربية قد يخرج بنا عن موضوع البحث، إلا أن هذه الجزئية لا بد منها لاستكمال عناصر موضوع البحث خاصة بعد أن نتبعنا الفتوة وعرفنا أن جذورها ممتدة إلى ما قبل الإسلام وعندما جاء الإسلام استطاع أن يهذب الفتوة الجاهلية، كما أنه أشاد بالخصال الحميدة والصفات الرشيدة التي يجب أن يتحلى بها الفتيان معبراً عن هذه الصفات "بمكارم الأخلاق".

ووجدنا أن لفظ فتى قد ورد في كتاب الله عز وجل في أكثر من موضع، كما أنه جاء وصفاً لبعض الأنبياء.

وعندما ظهرت المدارس الصوفية استطاعت أن تصبغ الفتوة بصبغتها حتى أصبحت صفات الفتوة جزءاً من تعاليم الصوفية. وإن شيوخ الصوفية قد استعملوا كلمة "الفتوة" وأكثروا منها في أحاديثهم.

واتضح لنا من خلال البحث أن هناك خلطاً بين لفظ الفتوة ومعناها وبعض الألفاظ الأخرى ومدلولاتها وخاصة لفظ عيار أو شاطر.

وانتهينا إلى أن الملامتية قد فسروا الملامة على أنها نوع من الفتوة أو الرجولة واطلقوا على أنفسهم اسم الفتيان أو الرجال.

بعد هذا نجد لزماً علينا أن نتطرق إلى بحث الصلة بين الفتوة والفروسية وقد حفزني إلى ذلك ما رأيته - ورأه غيري من قبل - من

أوجه الشبه العديدة بين الفتوة العربية والفروسية الغربية. وإن فتیان العرب من المسلمين وفرسان أوروبا قد تلاقوا فى أكثر من ميدان. ومما لا ريب فيه أن البحث فى هذا الموضوع يتطلب الإجابة على كثير من التساؤلات منها على سبيل المثال : هل ثمة صلة بين الفتوة العربية والفروسية الغربية؟ وإذا كنا قد ذكرنا أن الفتوة العربية تقوم على جانب مادى وآخر معنوى وانهما بمثابة وجهى العملة، فهل الفروسية الغربية كذلك أم أنها أخذت جانب دون الآخر؟! وإذا كنا قد عرفنا الفتوة العربية نشأتها وتطورها، فما هو أصل الفروسية الغربية ونشأتها وتطورها؟

عرفت الفروسية الغربية بأنها نظام عسكرى اقطاعى خاص بالنبل وظهر فى العهد الاقطاعى. وثمة نوع آخر ظهر أبان الحروب الصليبية، يجمع بين الدين والحرب، ثم نوع ثالث ظهر بعد انتهاء الحروب الصليبية يختلف فى اهدافه وغاياته عن النظامين، وإن لم يعمر طويلا. (١)

ومن هذا يتضح لنا أن الفروسية الغربية مرت فى مراحل ثلاث

المرحلة الأولى

لقد أدت الحروب المستمرة بين امراء الإقطاع بعضهم مع بعض إلى وجود نظام عسكرى اقطاعى. إذ كان لابد للأمير — الاقطاعى — من جند مدربين يحمونه واسرته ويحافظون على املاكه، ويردون عنه غارات منافسيه، واضطر الامراء أول الأمر إلى استخدام جنود مرتزقة، انحدرت الجنديّة على ايديهم إلى وحشية فعمد هؤلاء —

الأمراء — إلى قوانين ترفع من مستواهم الخلقى، واهمها، حرص الفارس على شرف الفروسية، ويتمثل فى الاخلاص والطاعة والشجاعة.

لقد كانت أول واجبات الفارس فى العهد الاقطاعى هو أن يحمى سيده وكان يعد اعداداً خاصاً كى يكون فارساً، فينتزع وهو فى السادسة من عمره من بين احضان النساء، ويرسل إلى حاشية أحد الأمراء أو حاشية الملك ليتلقى تعاليم الفروسية. وابتدئ من المراتب الدنيا، فيقوم أول الأمر بأعمال منزلية، ويراقب النبلاء فى حركاتهم، وأدابهم وشتى مناحى سلوكهم... بعد ذلك يصحب سيده تابعاً له فى الصيد وفى ميدان القتال، وفى المباريات الخاصة، وقد يشترك معه فى كل هذا ويساعده. حتى إذا ظهرت مواهبه وتم استعداداه وصار فى سن تؤهله لأن يكون فارساً، اقيم له احتفال يشهده غيره من الفرسان. (٢)

وكانت حفلة التلقيب بسيطة فى أول الأول، ولكنها أصبحت فيما بعد دينية إذ كان على الشاب أن يقضى ليلة الحفلة يتعبد فى الكنيسة وفى الصباح يحضر الصلاة ثم يتقدم أحد الفرسان ويضربه أثناء الركوع على رقبته ضربة شديدة بعرض السيف ويقول له : قم فأنت فارس. ثم يقسم أن ينصر الدين ويحترم الكنيسة، ويدافع عنها ويقاوم الوثنيين والكفرة ويأخذ بيد الضعفاء ويحترم المرأة.

غير أنه نشأ عن هذا النظام طبقة ذات ميول ارسقراطية فكان الفرسان يكرهون العامة ويحتقرونهم، ولما كانوا يجردون سيفاً لإغاثة بائس ملهوف، وأدى ذلك إلى إغفال حقوق الضعفاء والتشيع للمرأة إلى حد الجنون.

فلم تكن عواطف الفروسية أو بالأحرى المثل العليا التى يتشدقون بها دارجة إلا بين أعضاء الطائفة — طائفة النبلاء — كما أنها لا توسع بأية حال لتشمل اشخاصا أدنى منزلة. (٣)

المرحلة الثانية

عند ما شن الغرب حملاته المعروفة على الشرق باسم الحروب الصليبية، كان هؤلاء النبلاء — فرسان العهد الاقطاعى — هم عماد تلك الحملات يخرجون من بلادهم، ومعهم جنود المدربون على دفعات لغزو الشرق. وكان من الطبيعى أن تبارك الكنيسة هذا العمل. وإلى جانب هؤلاء الفرسان ظهرت اثناء الحروب الصليبية — نظم الفرسان والرهبان تلك النظم التى جمعت بين الدين والحرب، وكان الغرض من هذه النظم حماية حجاج بين المقدس والسهر على راحة الجرحى ومساعدة الفقراء... إلى غير ذلك من أعمال البر والإحسان. وكانت أولى الجماعات التى اتخذت هذا النمط هى جماعة الداوية، وكان القلب الرسمى لها هو

"فرسان المسيح" Milites Christi

كما عرفوا أيضا "بفرسان المعبد" Milites Templi

وعلى الرغم من أن جماعة القديس يوحنا اللذين عرفوا بفرسان الاسبتارية The Hospitallers ، وكانت أسبق من حيث النشأة إلا أن تحولها نحو الطابع العسكرى كان بطيئا. (٤)

وقد وجدت أفكار هذه الجماعات القبول فى الغرب الأوروبى فتنافس الجميع فى منحها الامتيازات والعطايا فانتشرت من الأراضى المقدسة إلى أوروبا حتى صارت قوة هائلة.

وكان لاستقلالها وتبعيتها المباشرة للبابوية أثره على تطورها وانتشارها السريع دون اية عقبات تعوق طريقها، وظهر دورها فى الدفاع عن الكيان الصليبي ليس فى المملكة فحسب بل فى بقية الامارات.

وبمرور الوقت ضعف الامراء والنبلاء (فرسان الاقطاع) واصبحت هذه الجماعات هى القوة الوحيدة القادرة على مواجهة الهجمات الاسلامية التى اشتدت ضراوتها كما كان لها اهميتها فى الربط بين الصليبيين فى الاراضى المقدسة والغرب الاوروبى. (٥)

وإلى جانب الجماعتين السابقتين ظهرت جماعة "الفرسان التيوتون" وهى طائفة عسكرية دينية ألمانية تأسس عام ١١٩٠ ميلادى المقدسة على نمط فرسان الهيكل (المعبد) والمستشفى (الاسبتارية). (٦)

وكان لهذه الجماعة شهرة واسعة بسبب انتشارها الواسع والصفة الدولية التى اتسمت بها ودورها فى نشر المسيحية على شاطئ بحر البلطيق، هذا إلى جانب ما امتلكته من ثروات، وذلك المعين الذى لا ينضب من الرجال الذين كرسوا انفسهم لخدمة أهدافها - وخاصة فى المراحل الأولى من نشأتها - وكان لذلك كله أثره فى جعلها فوق رأس تلك المملكة الصليبية، بل وفوق رجال الكنيسة اللاتينية نفسها التى كانوا ينتسبون إليها اسما فقط. (٧)

وجدير بالذكر أن الفروسية الغربية كانت فى أوجها فى ذلك العهد (أثناء الحروب الصليبية) ولكنها انتهت عندما استرد المسلمون عكا سنة ٦٩١هـ - ١٢٩١م من يد الصليبيين على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون. (٨)

المرحلة الثالثة

وفى هذا الطور من أطوار الفروسية الغربية نجد أنها تحولت إلى فروسية ضالة لا هدف لها ولا نظام ولا رابطة. وخاصة بعد أن رجع الفرسان الذين قاتلوا فى الشرق، وتطور أوروبا وابتداء نهضتها الحديثة، فأخذ هؤلاء الفرسان يجوبون البلاد بحثا عن المغامرات نادبين أنفسهم لأداء الخدمات ومساعدة الضعفاء والأخذ بيد المنكوبين وباحثين قبل كل شئ عن الحب ولا سيما حب النساء الثريات من زوجات الاشراف.(٩) ونلاحظ أن أهم خصائص الفروسية فى تلك المرحلة، الحب، واحترام المرأة، والرغبة فى المغامرات، والسخاء والمرح وقت الخطر...

وهنا تجدر الإشارة إلى أن ما تتشوق به الفروسية الغربية بالنسبة للحب العذرى، واحترام المرأة إنما هو مجرد تسلية أدبية ظهرت فى أحاديث الطبقات الارستقراطية.

بينما الواقع يكذبه باستمرار، فقد صبت اللعنات من جانب الدين على الحب بكل مظاهره ونواحيه بوصفه الخطيئة التى يتم بها تدمير العالم.

والحق أن الأدب فى العصور الوسطى يظهر أقل القليل من الشفقة الحقيقية على المرأة، والقليل من الرحمة لضعفها والأخطار والألام التى يدخرها لها الحب واتخذت الشفقة شكلا مجمدا أو خياليا فى القصص العاطفية للفارس الذى ينقذ فتاته العذراء.(١٠)

ولعلنا فى هذا العرض — السريع — نكون قد استطعنا أن نوضح كيف تطورت الفروسية الغربية على مر الأيام من فروسية

عسكرية نشأت في ظل العهد الإقطاعي، وتعتمد على القوة وحدها، وليس فيها من سمو الروح ودمائة الخلق شيئاً. أو بالأحرى فروسية تأخذ بالجانب المادي فقط دون أن تهتم بالجانب المعنوي.

ثم فروسية خاضعة لتعاليم الكنيسة، مملوءة بالتعصب الديني ليس فيها شيء من سماحة العقل واتساع افقه. إذ أن الحملات الصليبية كانت بمثابة محاولة ناجحة من الكنيسة للاستحواذ على الجيوش الإقطاعية واستعمالها في اغراضها. وتكشف وثائق القرن الحادي عشر في الغرب عن زيادة كبيرة في ادعية النصر، وتقع في القرن نفسه على أول سجلات لمباركة السيف. وشيئاً فشيئاً أصبح منتظراً من الفارس أن يعيش بمقتضى معايير الكنيسة الدينية. (١١)

وبعد انتهاء الحروب الصليبية ظهرت فروسية حديثة فيها كثير من صفات الانسانية ومثلها العليا، وان جعلت أهم خصائصها : الحب واحترام المرأة والرغبة في المغامرات.

أثر العرب في الفروسية الغربية

لا نستطيع أن نشكك في أن الفروسية الغربية نبتت في أوروبا ولا نغالي مع الغلاة فندعى أنها عربية الأصل لحما ودما. فذلك أمر يخالف الواقع. وهذا إذا قصدنا بالفروسية ذلك النظام العسكى القائم على القوة — المادية — الحربية وحدها، والذي يتطلب تدريبات شاقة على فنون القتال، واحتمال الصعاب لأن مثل هذا النظام تتطلبه ظروف كثير من الأمم — منذ فجر التاريخ — التى تلتحم مع سواها فى ميادين القتال، إما مغيرة تتطلب الغزو والسيطرة، وإما مدافعة عن نفسها تتطلب الحرية والحياة الكريمة.

وإذا سلمنا — جدلا — بأن أصل الفروسية الغربية — العسكرية — راجعا إلى ما تتطلبه ظروف الدول الأوروبية بدأ بالعهد الإقطاعي، وانهم على مر الأيام وضعوا لها نظاما خاصا وطقوسا معينة لتمييز الفرسان عن سواهم، وهنا يحق لنا أن نتساءل من الذى وضع للفروسية الغربية كل تلك التقاليد السامية؟ من الذى وضع المثل العليا للفروسية من التمسك بالكلمة، والوفاء بالعهد، والاخلاص، والطاعة وحماية الضعيف... إلى غير ذلك من الخصال؟

وهنا يمكن لنا أن نقرر أن الفروسية الغربية قد افادت من التقاليد العريقة للفتوة العربية وأن ذلك أمر لا شك فيه ولا جدال، وقد اجمع على ذلك نفر من خيرة الباحثين الأوروبيين.

إذ يقول السير باسيل ليدل هارت فى كتابه "لماذا لا نتعلم من التاريخ": والحقيقة هى ان الحرب قد تطورت تدريجيا واكتسبت بعدا

إذا كان مفهوم الفرسان يعنى : جنود مدربين على القتال على ظهور الخيل فإن هذا التنظيم عرفه قدماء المصريين كما عرفه الاشوريون والفرس (قبل الميلاد).

انسانياً ازداد مع مرور الوقت وانقضاء الزمن... وادت اخلاقيات وقوانين الفروسية فى العصور الوسطى دوراً بارزاً فى هذا التطور. ويعود الفضل الأكبر فى نشوء هذه الظاهرة إلى أصل عربى، ومصدر عربى. وينبغى أن نعترف أن العرب كانوا أسرع واسبق من الأوروبيين فى ارساء الحرب على القيم الاخلاقية والمبادئ الانسانية، وعندهم نقلناها، ومنهم تعلمناها، وبهم عرفناها". (١٢)

وما اشبه هذه العبارة فى عدلها وانصافها، بالعبارة الماثورة التى قالها المفكر الفرنسى "جوستاف لوبون" لم ير التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب (١٣)

وفى هذا الصدد — أيضاً — يقول كافين رايلى : "وبنهاية القرن الحادى عشر (الميلادى) كان المجتمع الاسلامى قد اصبح اشد استقراراً وتحضراً من أوروبا. واخرج فلاسفة ورياضيين وفلكيين واطباء وفنانين بنفس الحماس الذى كانت أوروبا تخرج به الجنود. ونقل خيالة الصحراء إلى اسبانيا تقنية زراعية جعلت الأرض تزدهر على نحو لم نر مثله من قبل. واصبح نسل الخيالة اساتذة طب فى أولى كليات الطب فى أوروبا. وعلم فلاسفتهم الغرب افلاطون وارسطو وعلم تجارهم وبحارتهم الاوروبيين الرياضة ومسك الدفاتر والسفر بالبحر... بالاختصار نجد أن الحضارة الاسلامية التى دمرها الصليبيون فى بيت المقدس كانت أرقى واجنح للسلم من غزاتها". (١٤)

ويستطرد كافين رايلى قائلاً : "... ولا شك أن الفرنجة المسيحيين الذين حكموا القدس، ادركوا أن المسلمين أشد منهم تسامحاً بكثير. لقد كانوا يعرفون أن المسيحيين قد شغلوا مناصب عالية فى بلاطات

المسلمين فى الشرق الأوسط ووجدوا مسيحيين سوريين يعملون اطباء وعلماء عند الاطباء المسلمين ورددوا الحكايات عن كرم المسلمين حتى فى المعركة". (١٥)

من هذا المنطلق نرى أن تأثير العرب فى أوروبا جاء إما عن طريق الأندلس أو طريق الحملات الصليبية. ويبدو ان تقاليد الفروسية الغربية مأخوذة عن عرب الاندلس لطول احتكاكهم. إذ سيطر العرب على الاندلس قرابة ثمانية قرون ، لم تخدم فيها نار الحرب، وقد تألب على العرب أمم شتى من أوروبا كلها، شهدوا صدق بلائهم فى الحرب وكرم قلوبهم وحسن معاملتهم، ووفائهم بعهودهم... حتى صارت هذه الصفات الكريمة والخصال الحميدة أمثلة عليا يحتذى بها فرسان الغرب ويتغنون بها.

أ. أثر عرب الأندلس

كل من يدرس تاريخ الحضارة فى العصر الوسيط يسلم بأن الاندلس كانت موطنًا للقاء طويل بين حضارتين حضارة إسلامية عربية من جانب وحضارة مسيحية لاتينية أوروبية من جانب آخر. ويسلمون أن هذا اللقاء كانت له آثاره التى يمكن رصدها فى حياة اسبانيا المسيحية حتى العصر الحاضر، وفى حياة أوروبا الغربية فى آخر العصور الوسطى وفى عصر النهضة. وقد كتب الباحثون الاسبان فى تأثر أسبانيا بالحضارة الاسلامية كتبًا وأبحاثًا عديدة لعل أشهرها — لقرب العد به — ما كتبه الباحث

ثم فتح الأندلس حوالى سنة ٧١٠م وانتهى حكمهم بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م

الاسباني (Americo Casteo) فى هذا السبيل وكذلك كتب الباحثون الأوربيون عن تأثير الحضارة الإسلامية فى الغرب الأوروبى وسجلوا ما ترجم إلى اللاتينية من مؤلفات غربية، وما دخل عن طريق اسبانيا العربية (الأندلس) إلى ذلك الغرب من أثار فى فروع العلم المختلفة وفى نظم الحياة المادية والاجتماعية والفنية. (١٦)

مما سبق يتضح لنا أن الحضارة الإسلامية كانت مزدهرة ومتقدمة فى العصور الوسطى، كما أن هذه الحضارة قد اسهمت بدور فعال فى نهضة أوروبا التى كانت متأخرة فى ذلك الوقت.

ذلك ما يحدثنا عنه تاريخ العصور الوسطى الذى تميز باتحاف الشرق للغرب بثرواته العلمية التى ظلت تتدفق على أوروبا، وخاصة عن طريق الأندلس حتى القرن الثالث عشر الميلادى. ولم يقتصر الأمر على فروع العلم المختلفة، وإنما امتد هذا الأثر ليشمل نظم الحياة المادية والاجتماعية والفنية.

وقبل أن نعرض لأثر عرب الأندلس على الفروسية الغربية، تجدر الإشارة إلى حالة الشعب فى شمال أفريقيا وحالته فى اسبانيا. فقد كانت منطقة شمال أفريقيا – بعد الفتح الإسلامى – تتعم بعدل المسلمين العرب وتسامهم، بينما كانت أسبانيا تن من ظلم القوط وعسفهم إذ كان الأشراف والأثرياء معفيين من الضرائب الفادحة التى كان يقوم بها الطبقة الوسطى وحدها حتى صارت إلى الخراب والدمار فقضت على النشاط الصناعى وخلت البلاد من الصناعات ووقفت حركة التجارة.

وقد كانت البلاد منقسمة إلى ضياع واسعة يقيم فيها ملاكها القصور الفخمة، يصرفون فيها أوقاتهم في اللهو والمجون والملذات الدنيئة. بينما يقوم لهم بالعمل في ضياعهم الأرقاء والأجراء الذين كانوا يسامون سوء العذاب وكانوا في الدرك الأسفل من الذل والهوان وفساد الأحوال. (١٧)

وهكذا يتبين لنا كيف كان الأهالي البائسون والأرقاء المرهقون ينتظرون بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي يتخلصون فيه من نقمة الحكام الفاسدين وقد أتى ذلك اليوم بعد أن لجأ يوليان إلى موسى بن نصير وطلب إليه أن يخلص اسبانيا من الظلم الذي تعيش فيه.* وبعد أن تم فتح الأندلس عمل الحكام المسلمين على نشر العدل بين الطبقات المختلفة غير مفرقين بين الاجناس والعقائد.

وذلك راجع إلى ما يتحلون به من خصال حميدة وصفات رشيدة كالشجاعة والشهامة وعزة النفس، والعفو عند المقدرة، وإكرام الضيف، ومساعد الضعفاء.... إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق، تشهد بذلك وقائع ونوادر كثيرة نذكر منها على سبيل المثال ما رواه مؤرخى الاسبان من أنه فى سنة ٨٩٠هـ أراد ملك اشثورية (أذفونس الكبير) أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسلمى قرطبة حرصاً على تهذيبه، إذ لم يجد من المسيحيين حينئذ من هو كفء لهذه المهمة. (١٨)

* الذى دفع يوليان إلى هذا الطلب غضبه من أحد الأشراف لاعتدائه على عرض ابنته فلورنده التى كانت تتربى فى البلاط الملكى.

. وجدير بالذكر أن الروايات والقصص ذاخرة بأخبار الفرسان في الغرب، ومن خلالها نستطيع أن نلمس مدى تأثير التقاليد العربية على الفروسية الغربية.

واننا نعلم أن هذه الروايات هي المصدر الوحيد الذي ندرس فيه عادات النبلاء وانها وضعت قوانين وانظمة الحروب. ومثلاً عليها يحتذوها الفرسان، وانها كانت دروساً في البطولة وحسن المعاملة وطرق الحياة.

وقد أتى في الفصل العشرين من رواية تربران (Turpin) التي سبقت كل روايات الفروسية أن شرلمان قد تلقى الأمر بالفروسية وتشرب تعاليمها من الأمير العربي الذي كان يحكم (كولينو) في مقاطعة (بروفانس) (١٩)

وقد حرص أصحاب الروايات على إبراز الجوانب المعنوية والخصال الحميدة في حياة الفرسان إلى جانب القوى المادية والحياة العسكرية ونجد ذلك في ترجمة حياة "جان لومينجر" الملقب بالمارشال "بوكيكو" اذ كتب أحد المعجبين به منذ عام ١٤٠٩م ترجمته، جمع فيها الحياة العسكرية الشاقة لقائد، ورجل سياسة، إلى جانب صورة للفارس النقي المقتصد.

وتتسم تقوى بوكيكو بمسحة دينية، فإنه يستيقظ مبكراً ويظل مصلياً متعبداً ثلاث ساعات ومهما يبلغ من انشغاله أو استعجاله فإنه يصغى راکعاً إلى قداسين يومياً... ويرتدى السواد يوم الجمعة ويروح يحج أيام الأحاد والأعياد سعياً على قدميه ويتحاور في المسائل المقدسة أو تتلى عليه حياة أحد القديسين أو حكاية عن أحد الأبطال الشجعان

القدماء من الرومان وغيرهم... وهو يعيش عيش الكفاف والاتزان،
ويقل من الكلام وإذا تكلم كان حديثه عن الله والقديسين أو عن الفروسية
والفضيلة.

وبينما هو في جنوة ذات يوم — بوصفه وصياً على ملك
فرنسا — رد بأدب بالغ على سيدتين تحيانه. فقال الياور : مولاي من
هاتين المرأتين اللتين انحتيت لهما هذا الانحناء الشديد؟ فقال : لا أدرى
يا هوجنان!! فقال له عند ذلك : مولاي انهما بغيان. فقال بغيان يا
هوجنان لقد أفضل أن أقدم تحياتي لعشر بغايا من أن اضمن بالتحية
لأمراة محترمة واحدة.(٢٠)

وإذا كانت هذه الروايات تعد بمثابة مرآة تعكس الحياة لطبقة
الفرسان فإنها كذلك توضح لنا القوى المعنوية من تقوى وتشف ووفاء
بالعهد ومساعدة للضعيف... إلى آخر هذه الخصال التي كانت ترسم بها
الصورة المثالية للفراس ولكن يبدو أن الصورة المثالية للفراس شيء،
والحقيقة الواقعية شيء آخر مخالف للصورة. فبوكيكو الحقيقي لم يشابه
هذه الصورة — التي رسمت له — مطلقاً وهو شيء لم يكن ليتوقعه أحد،
فإنه لم يخل من عنف ولا من بخل، وهى عيوب شاعت بين
طبقته.(٢١)

ويبدو لنا هذا التناقض بين الصورة والحقيقة للفروسية الغربية
مرجعها أن هذه القوى المعنوية، أو بالأحرى هذه الصورة المثالية
للفارس، والتي تتشوق بها الروايات الغربية، إنما اضيفت على الفارس
صفات مكتسبة حاولوا أن يتعلموها ويكتسبونها من العرب.

فى حين أن العرب لم يكونوا فى حاجة لمن يلقتهم معنى الفتوة، سواء المادية أو المعنوية، إذ وجدت فيهم بالفطرة والوراثة، وجاء الدين والجهاد فى سبيل الله فمكثها من قلوبهم، وثبتها فى طباعهم. وقد ضرب العرب كل مثل شريف لهؤلاء الفرسان سواء فى الشجاعة أو الكرم، وحسن المعاملة، فى أى مكان حلوا به وفى أى زمان كانوا فيه.

فها هو عبد الرحمن الثالث (ت ٩٦١هـ) يكرم عدوه اللدود (سناس أمير ليون) حين طلب منه أن يأتى إلى قرطبة ليستشير الأطباء العرب، فيؤمنه ويقدم له الهدايا ويزيد فى إكرامه حتى يبرأ من مرضه. فأين هذا مما فعله ملك قشتالة (بيير القاسى) فى سنة ١٣٦٠ م حين دعا أمير غرناطة (أبا سعيد) إلى قصره، فلبى دعوته، ولما رأى بيده خاتماً ثميناً راقه، حسده ثم قتله ليستولى على الخاتم. (٢٢)

مثال آخر يدل على النبل والكرم، وعدم التعرض للضعفاء والنساء بأذى، فقد ذهب الفونس الثامن ملك قشتالة لمحاصرة مدينة (أوريغا) العربية، فرأى أمير قرطبة أن يرسل إلى المدينة المحاصرة مدداً، بيد أن قائد هذا المدد لم يشأ أن يشتبك فى قتال خارج المدينة يكون جيشه فيها الأقل من حيث العدد والعدة، أمام عدد كبير قوى العدة. ورأى أن يحتال لابتعاد جيش العدو عن المدينة بمهاجمة (طليطلة) حيث كانت تقيم ملكة قشتالة، فلعل زوجها إذا سمع بذلك يترك (أوريغا).

وأخذ القائد العربى فى مهاجمة طليطلة وحصارها، ورأت الملكة - وقد عصرها الهم والحزن - ألا ملجأ إلا فى الخلق العربى

النبيل تستمد منه النصر، فارسلت إلى القائد العربى تقول : اننى امرأة،
وليس من شيم الفرسان قتال النساء فإذا اردت قتالا فعليك بزوجى فإنه
ينتظرك على أبواب (أوريغا). فهزت هذه الكلمات مشاعر القائد
العربى، وكلها ثقة بشرف وعده، عالمه أنه لن يمسه الأذى - فحياها
الجيش العربى كله فى الوقت الذى دخل فيه زوجها مدينة أوريغا
العربية واستولى عليها. (٢٣)

فأى مثل فى الكرم والتحية، وحسن المعاملة، والنخوة، واحترام
المرأة ضربه هذا القائد العربى لفرسان الغرب فى عصره، وما بعد
عصره.

ب. أثر الحروب الصليبية

لم يكن تأثير عرب المشرق إبان الحروب الصليبية على أخلاق فرسان أوروبا أقل من عرب الأندلس والمغرب. ففي أى مكان تلاقى فيه العرب مع الغربيين اظهروا تفوقهم الخلقى، وانهم أكثر مدنية واعلى كعبا فى الحضارة من اعدائهم فبهزروهم بهذه المثل العليا، وحاولوا جهدهم أن يقتدوا بهم.

ومما يظهر الفرق بين أخلاق الفرسان الغربيين، والفتيان المسلمين ما تروية كتب التاريخ عن تصرفات الفرسان الصليبيين حين تم لهم فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٩م. فبعد أن سقطت المدينة وقعت المذبحة، إذ ذبح كل المسلمين - رجالا ونساء وأطفال، فيما عدا الحاكم وحرسه اللذين تمكنا من الفداء أنفسهم بالمال، وتم اصطحابهم إلى خارج المدينة. وفى مصيد سليمان وحوله خاضت الجياد فى الدم حتى الركب بل وحتى اللجام، أما بالنسبة ليهود القدس فحين اجتمعوا فى معبدهم الرئيسى اضرمت فيهم النيران وحرقوا جميعا أحياء. (٢٤)

وتقدر المصادر الأوروبية أن حوالى عشرة آلاف مسلم ذبحوا فى اعقاب الإستيلاء الأول على القدس، أما المصادر الاسلامية فتقدر عدد من قتلوا بمائة ألف قتيل. (٢٥)

وأيا كان العدد، فقد تمكن فتيان المسلمين من استعادة القدس سنة ١١٨٧م بقيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي. وشتان بين ما فعله الصليبيون فى عام ١٠٩٩م وبين ما فعله صلاح الدين بعد ذلك التاريخ بثمانية وثمانين عاما إذ سمح للصليبيين بالخروج - من القدس - بعد دفع عشرة دینارات للرجل وخمسة للمرأة ودينار للطفل، واعطيت لهم

مهلة قدرها أربعون يوما للسداد ومن احضر قطيعته بنفسه نجا وإلا وقع اسيرا. كما أنه سمح لأى أسير مسيحي بالبقاء فى المدينة بشرط دفع الجزية.(٢٦)

وجدير بالذكر أن الصليبيين بعد خروجهم من القدس أنقسموا إلى ثلاث مجموعات : مجموعة الداوية وأخرى الاسبتارية، وثالثة باليان دى ايلين وقد أمر صلاح الدين أن يكونوا فى حراسة المسلمين حتى اوصلوهم إلى صور، لكى لا يتعرضوا لهجمات اللصوص وقطاع الطرق الذين يكمنون فى هذا الطريق.(٢٧)

ويظهر أن اخلاق صلاح الدين وحياته وما انطوت عليه من بطولة فائقة وشجاعة نادرة وسماحة لاحد لها مع الأعداء قبل الاصدقاء، هذه الاخلاق التى تعبر تعبيرا صادقا عن الفتوة العربية بأدق معانيها قد احدثت فى اذهان المسيحيين فى عصره تأثيرا سحرىا خاصا، حتى أن نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة اعجابهم به، وانجذابهم إليه ان هجروا دينهم المسيحي وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين.(٢٨)

وكيف لا يعجب هؤلاء الصليبيون بصلاح الدين، وقد كان نبىلا فى كل تصرفاته مع اعدائه، فما هو ذا ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا يصاب فى المعركة أمام صلاح الدين، فيسرع إليه صلاح الدين ويداويه بنفسه، ولم يزل يعنى به حتى شفى من اصابته. وظل صلاح الدين يرسل له ما يحتاجه من الثلج لتبريد اشربته، والفاكهة وخاصة الكمثرى والخوخ حيث كان ريتشارد يفضلهما عن غيرهما من أنواع الفاكهة.(٢٩)

وها هو نور الدين يضرب مثلاً آخر في النبل والشجاعة الفائقة،
ففى سنة ١١٦٣م حين مات (بودوا) لم يشأ أن يستغل وفاته فى مهاجمة
عسقلان، وقال : أنه عمل غير انسانى أن تزعج قوما محزونين على
أميرهم ولن يشرف مجدى الحربى أن اهجم على قوم غير مستعدين
للدفاع. (٣٠)

وقد أشاد كثير من مؤرخى الغرب بهذه الخصال الحميدة التى
تحلى بها فتيان المسلمين فحكى (أوليفروس المدرسى) عن السلطان
الملك الكامل الذى هزم جيشا من جيوش الصليبيين ثم اعطى الناجين
منهم الطعام.

· اشاد أوليفروس بهذا الموقف قائلاً : من يمكن أن يشك فى أن
مثل هذا العمل الطيب والصداقة والارحية من عند الله؟

أن الرجال الذين قتلنا أباءهم وأبناءهم وبناتهم واخوتهم واخواتهم
وقضوا نحبهم يتعذبون، والذين استولينا على اراضيهم، والذين سقناهم
عرايا من بيوتهم اعطونا من طعامهم وابقوا على حياتنا عندما كنا
نتضور جوعا، وغمرونا بعطفهم حتى ونحن تحت رحمتهم. (٣١)

وهناك بعض المسيحيين — مثل أرنولد اف لوبيك — ادركوا أن
الفكرة الاسلامية عن الاخوة أكثر تسامحا من النظرة المسيحية إلى
اليهود والمسلمين بوصفهم اعداء المسيح. وقال ارنولد الكلمات التالية
على لسان أحد المسلمين : "فلئن اختلفت عقائدنا فإن خالقنا واحد، وأبانا
واحد، يجب أن نتأخى، لا بسبب عقيدتنا ولكن لأننا كلنا بشر، فلنتذكر
إن أبانا المشترك ولنطعم اخوتنا". (٣٢)

ويمثل لنا تاريخ الحروب الصليبية الثانية حادثة على جانب عظيم من الأهمية إذ توضح هذه الحادثة البون الشاسع بين اخلاق الفتيان المسلمين وما تحلت به من رحمة ووفاء، وشفقة وعطف على الضعفاء والمحتاجين.

وهذه الحادثة رواها (أودو الدويلي) أحد رهبان القديس دينيس (Denis) وكان في صحبة لويس السابع - خلال هذه الحرب - وكتب في وصفها ما نصه :

بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم برا عن طريق أسيا الصغرى إلى بيت المقدس، منوا بهزيمة منكرة على ايدي الاتراك المسلمين في ممرات (فريجيا) الجبلية سنة ١١٤٨م، ولم يبلغوا مدينة (اتاليا) الساحلية ألا بشق الأنفس، وقد نجح الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة التي كان يفرضها عليهم تجار الاغريق في الابحار إلى انطاكية.

وتخلف المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الاغريق الذين اخذوا مبلغ خمسمائة (مارك) من لويس على شريطة أن يمدوا الحجاج بقوة من الحرس، وان يعتنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يستطيعون الحاق بزملائهم، بيد أن الجيش الصليبي لم يكد يغادر المكان، حتى وشى الاغريق بهؤلاء الحجاج العزل إلى الاتراك، واخذوا يرقبون في صمت ما يعانیه هؤلاء التعسسين من المجاعة والمرض، والجراح الدامية، ولما حاولت جماعة من

* الحرب الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩م) بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكراد الثالث امبراطور المانيا، وقد وجهوا حملتهم هذه على دمشق، فلم ينجحوا في الاستيلاء عليها وانتهت بالفشل التام، وتمكن نور الدين عمود من الاستيلاء على دمشق.

الحجاج أن تلوذ بالفرار حين شاهدوا الاتراك قادمين هجم عليهم الترك ليتابعوا انتصاراتهم، ولكنهم رأوهم فى حالة من الشقاء تذيب القلوب وتستدر العطف، فكفوا عن هجومهم، وطفقوا يواسون المرضى ويغيثون الفقير، ويطعمون الجائع الذى اشرف على الهلاك، وبذلوا لهم جميعا العطايا فى كرم وسخاء.

فكان ألبون شاسعا بين المعاملة الرحيمة التى لقيها الحجاج على ايدى المسلمين وبين ما عانوه من قسوة اخوانهم فى المسيحية من الأغريق الذين فرضوا عليهم السخرة واذاقوهم العذاب ألوانا، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل، حتى ان كثيرا من هؤلاء التعسسين دخلوا فى دين منقذهم بمحض ارادتهم. لقد جفوا اخوانهم فى الدين الذين كانوا قساء عليهم، ووجدوا الأمان بين احضان المسلمين الذين كانوا رحماء بهم. (٣٣)

وإذا لم يكن صلاح الدين عربيا، وإذا لم يكن الاتراك عربا فإنهم جميعا مسلمون قد اهتموا بهدى هذا الدين الحنيف وانت اخلاقهم فى معاملة الأعداء خاصة إذا ما كانوا من المرضى أو الشيوخ والمحتاجين والضعفاء تنفيذًا لتعاليم كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى أتى لى يتم مكارم الاخلاق.

ومما يثير الدهشة أن يكون هذا مسلك فتيان المسلمين مع الأسرى الضعفاء بينما ريتشارد قلب الأسد يذبح أسرى المسلمين الذين وقعوا بين يديه فى موقعة عكا سنة ١١٩١م، على الرغم من المعاهدة التى نص فيها على منحهم الحرية والحياة. (٣٤)

ويخيل إلينا أن هذه الأخلاق الغربية التي اتسمت بالغدر والخيانة لم تنهذب كثيرا إذ ظلت طباعهم الحربية الجافة على ما هي عليه من قسوة وعنف وخيانة... وصدق مثال على ذلك ما فعلوه بعد سقوط دمياط سنة (١٢١٩ / ٦١٦هـ) ، فعندما دخلت القوات الصليبية المدينة عاثوا فسادا وانتشرت السرقات، وكعادتهم هاجموا النساء والأهالي في المدينة على الرغم من استسلامها لهم بل وحولوا مسجدها إلى كنيسة لاتينية. (٣٥)

ابن تلك الاخلاق التي تسول لصاحبها قتل الأسرى الضعفاء ومهاجمة النساء والأطفال الذين لا يملكون حولا ولا قوة، هذه الاخلاق التي اتسمت بنقض العهد والغدر، والخيانة... ابن تلك الاخلاق من الاخلاق النبيلة والمثل العليا التي تعبر عن الفتوة الكاملة والتي يظهرها المسلمون؟

وقد عبر المقرئ عن هذه الأخلاق النبيلة، حينما يصف معاملة سلاطين المماليك لأسرى الصليبيين والمغول قائلا : "... وإذا انتهت الموقعة الحربية ووضعت الحرب أوزارها حصيت الغنائم والأسرى وكل من كان أمير يستولى على غنيمته عدا الأسلحة فإنها كانت كلها تتول إلى السلطان، وليس للجنود أو لقوادهم أن يأخذوا شيئا منها إلا بإذنه، أما الأسرى فكانوا من نصيب السلطان، الذي كان يأخذ منهم ما يشاء لنفسه، ويأمر بتوزيع ما يبقى من النساء والغلمان على الأمراء أما الرجال، فقد كان السلطان لا يتصرف في أمرهم بشيء إلا بعد معرفة أقدارهم ومراتبهم، ومكانتهم بين ذويهم، فمن كان منهم ذا

مقام خاص طلبت منه الفدية وأخلى سبيله، أما من كان منهم من العامة ولا ينتظر منه فدية فكان يرسل إلى امكنة خاصة بالأسرى. (٣٦)

والآن بعد هذه المقارنه بين اخلاق الفتيان المسلمين والفرسان الغربيين نجد سؤالاً يطرح نفسه، هل تعلم الفرسان الصليبيين من احتكاكهم بالعرب في المعاملات وفي ميادين القتال كيف يهذبون من طباعهم الحربية الجافة وكيف يكونوا أوفياء بالوعد والعهود؟

حقيقة الأمر أن الشواهد التاريخية - التي بين أيدينا - تخالف ذلك وخاصة بعد أن تعرفنا على موقف الجيوش الصليبية من المسلمين عند فتح بين المقدس سنة ١٠٩٩م، وموقف ريتشارد قلب الأسد من أسرى عكا سنة ١١٩١م ووجدنا أن موقف لويس التاسع وجيوشه الصليبية بعد سقوط دمياط في أيديهم سنة ١٢١٩م، لم يتغير أو يختلف في كثير أو قليل عن موقف سابقه فهذه المواقف كلها مع ما فيها من غدر وخيانه ومذابح للأسرى والأهالي من الشيوخ والنساء والأطفال، الذين لا يملكون لأنفسهم حولا ولا قوة تجعلنا نجزم أن فرسان الصليبيين لم يتعلموا شيئا من احتكاكهم بفتيان المسلمين - العرب - إذ ظلت طباعهم الحربية الجافة على ما هي عليه من خشونة وقسوة. ولم تعرف شيئا عن العفو والرحمة أو حماية الضعيف ومساعدة المحتاج... أو أى خصلة من تلك الخصال الحميدة التي وجدناها عند فتيان المسلمين.

لقد ظل الفرسان الصليبيين على ما هم عليه من خشونة وقسوة وعنف وعدم التزام بالوعد أو وفاء بالعهد، منذ أن بدأت الحروب الصليبية وحتى نهايتها.

ويحدثنا التاريخ فى هذا الصدد — نقض الوعد وخيانة العهد — عن مراسلات متبادلة بين السلطان الظاهر بيبرس، ومقدم فرسان الاسبتارية لتحديد مسؤولية خرق الهدنة عقدت بينهم سنة ٦٦١هـ — / ١٢٦٣م. إذ حاول فرسان الاسبتارية تحميل المسلمين مسؤولية خرق الهدنة فكتب السلطان بيبرس إليهم : ان شرط الهدنة التى كانت بيننا لا تجدد بناء وقد شرع بين الاسبتارية فى بناء أسواء... وهذا من بعض ما ينقض العهد... (٣٧)

فرد الاسبتارية على السلطان : أنا لم نبـن هذه الأسوار إلا للحماية من الصـعاليك ومن اللتار...

فكان جواب السلطان بيبرس : أما تجديد الأسوار لحفظ المسلمين فالبلاد لا تحفظ بالأسوار، ولا تحفظ الرعية بالخنادق وانما تحفظ بأحد أمرين، أما بالسيوف والعزائم، واما بإحسان الجيرة، وكف الأذى... وأما اللتار، وما جعلنا حصوننا ولا خيولنا، ولا خنادقنا إلا سيوفنا ولا أسوارنا إلا رجالنا. (٣٨)

لقد حدد السلطان بيبرس فى هذا الرد الأمور التى تحفظ بها البلاد وتمثلت هذه الأمور فى الفتوة يشقيها المادى والمعنوى.

فتحفظ البلاد بالفتوة المادية عن طريق السلاح والعزيمة، إلى جانب الفتوة المعنوية المتمثلة فى حسن الجوار وكف الأذى.

حقا لقد اظهرت لنا تلك المعارك الدامية التى دارت قديما بين الغرب المتعصب والاسلام السمح، الفرق الواضح والبون الشاسع بين اخلاق الفتيان المسلمين، واخلاق الفرسان الغربيين.

ولقد صدق (ستانلى لين بول) حينما قال : "لقد اجمع الذين كتبوا
عن الحروب الصليبية أن فضائل المدنية : العظمة والسماحة، والعفو،
والفروسية الحقيقية والتهديب الدمث، كانت كلها فى جانب العرب
المسلمين أبان هذا القتال المرير". (٣٩)

الفروسية الغربية فى الميزان

من كل ما تقدم نستطيع أن نجمل تاريخ الفروسية الغربية فيما يلى :

١ — فروسية عسكرية، نشأت فى ظل العهد الاقطاعى، إذ أدت الحروب المستمرة بين أمراء الاقطاع بعضهم مع بعض إلى وجود نظام عسكرى اقطاعى أو بالأحرى فروسية عسكرية تعتمد على القوة وحدها، وليس فيها من سمو الروح ودمائة الخلق، والخصال الكريمة شيئاً.

٢ — قدر لنظام الفروسية، فى العصور الوسطى — أيام ازدهاره الأول — أن يمتزج بالرهبانية. وتولدت عن هذا الاتحاد، الهيئات العسكرية الدينية لفرسان الهيكل (المعبد) أو الداوية، وفرسان القديس يوحنا أو الاستارية، والفرسان التوتون. وكان لهذه الانظمة دور بارز إبان الحروب الصليبية.

٣ — بعد إنتهاء الحروب الصليبية ظهرت فروسية أخرى تتشدد بالصفات الإنسانية والمثل العليا، وإن جعلت أهم خصائصها الحب، واحترام المرأة والرغبة فى المغامرات، حتى أصبحت الفروسية فى هذه الحقبة مرادفة لأداب المجاملة.

والسؤال الآن : إذا كانت الفروسية الغربية قد برعت بشكل أو بآخر فى الجانب المادى للفتوة، فهل استطاعت أن تتحلى بالجانب المعنوى، الذى يتمثل فى السماحة، والعفو عند المقدرة، والوفاء بالعهد، والمحافظة والإلتزام بالوعد وحماية الضعيف... خاصة بعد احتكاكهم بالعرب فى المعاملات وفى ميادين القتال؟

حقيقة الأمر أن فرسان الغرب لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب في هذا المضمار لأن هذه الصفات كانت طبيعية لدى العرب متأصلة في نفوسهم، وجرت عليها تقاليدهم وورثوها عن آبائهم. (٤٠) وحث عليها دينهم الحنيف، فتضاعفت عوامل عدة على تمكينها في قلوبهم وطباعهم فلا يتكفونها أو يستطيعون الانحراف عنهما وعلى العكس من ذلك الفرسان الغرب فكثيراً ما غلبتهم طباعهم وطفى عليهم تعصبهم.

بالإضافة إلى أن هيئات الفروسية الغربية لم تكن تهدف إلى ارساء القيم الخلقية، والخصال الحميدة، بقدر ما كانت تهدف إلى المناصب السياسية والمصالح الاقتصادية والإقطاعية، حتى ان هيئات الفروسية الدينية كانت هي الأخرى تتصارع من أجل هذا الهدف.

ويؤكد على ذلك قول يوهان هويزنجا : "ومنذ وقت مبكر، اتخذت الهيئات الكبرى الأولى للفرسان الرهبان، وهي هيئات : الهيكل (الداوية) والقديس يوحنا (الاسبتارية) والفرسان التيوتون، وهي التي تولدت عن التداخل المتبادل بين الأفكار الديرية والإقطاعية، طابع النظم السياسية والاقتصادية الكبرى. فلم يعد هدفها وهمها الأول ممارسة الفروسية إذ قللت أهميتهم السياسية والاقتصادية بشكل أو بآخر من ذلك الهدف، كما قللت من تطلعاتهم الروحية". (٤١)

وعلى الرغم من حرص جميع الجهات والهيئات، المحافظة على بقاء التقاليد الفروسية، والتغنى بالمثل العليا التي تتحلى بها الفروسية الغربية — فإن الواقع يكذبها على الدوام، ويضطرها أن تتوارى لاجئة إلى مجالات الأدب والأحاديث. فلم يكن في المستطاع العمل على

تشجيع المثل الأعلى للحياة البطولية الممتازة (الفروسية) إلا داخل حدود طائفة النبلاء فلم تكن عواطف الفروسية دارجة إلا بين اعضاء الطائفة — وحدهم — كما أنها لا توسع لتشمل اشخاصا أدنى منزلة.

وكان البلاط البرجندي* المشيع تماما بالتحزب للفروسية، والذي يأبى التسامح إزاء أهون خرق للقواعد في نزال يبلغ أقصى درجات التطرف بين النبلاء يستمتع تماما بالشراسة الجامعة التي تتجلى في مبارزة قانونية بين أبناء المدينة وليس فيها قانون للشرف ينبغي رعايته. وقد حدث أن جرت مبارزة بين اثنين من أهل المدينة ببلدتيهما (فالانسيين في ١٤٥٥) ورغب الدوق العجوز فيليب في مشاهدة ذلك المشهد النادر مهما كلفه ذلك.

ويصف شاستلان ذلك المشهد قائلا : "ونزل الخصمان إلى الحلبة فدخل أولا جاكوتان بلوفية، المدعى وتبعه ما هو. وقد قصى شعر رأسيهما قصيرا، وخيط على كل منهما من الرأس إلى القدم ثوب من جلد الماعز من قطعة واحدة، وقد شحب وجههما جدا. وبعد أن قدما التحية إلى الدوق... جلسا ينتظران إشارة البدء.... ويبدأ ما هو، وهو رجل قليل الجسم، المنازلة بقذف الرمل بحرف ترسه في وجه جاكوتان وسرعان ما يسقط على الأرض تحت ضربات جاكوتان القوية... إذ يلقي بنفسه عليه، ويملا عينيه وفمه بالرمل، ويدخل ابهامه في حجر عينيه ليحمله على اخلاء أصبع عض عليه ما هوه بأسنانه...

* مقاطعة برجنديا، إحدى المقاطعات الفرنسية، التي أنشأت فيها دولة شبه مستقلة عن المملكة الفرنسية.

* دوق برجنديا، فيليب (الطيب) تولى الحكم في الفترة من ١٤١٩ إلى ١٤٦٧م

ويلوى جاكوتان ذراعى خصمه... ويقفز على ظهره محاولا كسره....
وعبثا ما يصرخ ما هو طالب الرحمة ويطلب الاعتراف.

فيصيح عاليا : مولاي دوق برجنديا، أنى أحسنت البلاء فى
خدمتك فأنفذ حياتى... إلا أن الدوق يأمر أن يسحب الرجل - المحتضر
إلى خارج الحلبة حيث تولى الجلاذ شنقه". (٤٢)

لقد أثرنا سرد هذه الواقعة - كاملة - لأنها أتت من كاتب له
ميل فروسية بحكم ولاءه إلى البلاط البرجندى المتشدد بالفروسية
ومثلها العليا فوجدنا أن روايته للمبارزة خالية من أى عبء خلقية أو
مغزى للحادثة وما هى إلا وصف دقيق لغرائز القسوة والعنف.
كما أن هذه القصة أوضحت - لنا - أن معانى الرحمة والعفو
والتسامح ما هى إلا كلمات لا مدلول لها ولا معنى فى فروسية البلاط
البرجندى.

إذ لم يبد الدق - الملقب بالطيب - أدنى شفقة أو رحمة على
الرجل المحتضر الذى يطلب منه السماح والعفو، مذكرا أياه بطول
خدمته له وحسن بلاءه فى الحروب، إلا أن هذه الأمور جميعها لم تشفع
للرجل وسحب من الحلبة ليتولى الجلاذ شنقه كما تسحب الشاة للذبح.

ويخيل إلينا أن الفروسية الغربية، وما تتغنى به من مثل عليا
ومبادئ إنسانية لم تكن يوما واقعا حقيقيا، إنما هى من نسج خيال الادباء
والشعراء إذ كان الجشع والمصالح الذاتية والقسوة والعنف سمات غالبية
على الحياة فى العصور الوسطى - فى الغرب - وكانت هذه
السمات أكبر كثيرا من الفروسية نفسها.

وعلى الرغم من أن كثيرا من المؤلفين، وكتاب العصور الوسطى - وغيرها يستلهمون مؤلفاتهم بتصريحات طنانة عن انتوائهم تمجيد الشجاعة والفضائل الكريمة التي يتحلى بها الفرسان، وتسجيل المآثر النبيلة والفتوح وأعمال البطولة ومفاخر الحرب والسلاح... فإنهم إذا ما اقدموا فيما بعد اثناء الكتابة نسوا ذلك المثل الأعلى والفضائل الكريمة بدرجات تتفاوت.

ونذكر في هذا الصدد "فرواسار" وهو نفسه مؤلف لمحنة فروسية سوبر رومانتيكية (أى رومانسية متطرفة) Super - Romantic وهى "مليادور" Meliador فإنه يروى مالا يحص من الخيانات والقساوات، دون أن ينتبه إلى ما حدث من تناقضات بين تصوراته ومفاهيمه العامة ومحتويات ما سرد. (٤٣)

ولا يفوتنا أن ننهى هذا الجزء من البحث دون أن نشير إلى ما تنبأه به الفروسية الغربية فى العصور الوسطى، بأنها تميزت بالحب واحترام المرأة إذ تدعى الفروسية الغربية انها استطاعت أن تحول الحب الساذج الخشن إلى احترام عميق للمرأة بعيدا عن المادة.

حتى ان البعض يرى أن الحب فى نظر فرسان العصور الوسطى فضيلة، بل منبع كل الفضائل، ولهذا صار جميع الفرسان فضلاء، لأنهم يحبون أو يتظاهرون بأنهم يحبون، وصار الحب نظاما تعليميا، وعرف الحب بأنه أصل كل نشاط، وكل فضيلة خلقية وكل مجد. (٤٤)

لقد كانت احاديث الحب هى الشغل الشاغل فى حياة النبلاء، حتى ان الإفتاء فى شئون الحب اتخذ حيزا ضخما فى أحاديث القصور مما رفعه إلى مستوى أحد الاشكال الأدبية.

وكان الناس يسلون انفسهم فى بلاط الحكام اثناء تناول الطعام بقص الحكايات وتوجيه الاسئلة المتعلقة بشئون الحب، ويطلب الشعراء — بوجه خاص — بالإسهام فى ذلك كله.

وفى هذا الصدد يذكر يوهان هويزنجا : ان جماعة من السيدات والنبلاء اخذوا يطالبون الشاعر (جيوم ده ماشوه) أن يجيب عن مجموعة من الاسئلة حول تاريخ الحب ومخاطره منها : أيها السيد العاشق، أى الأمرين تفضل : أن تقول الناس قاله السوء عن حبيبك ثم تجدها طيبة قديمة، أم أن تحسن سيرتها على أفواههم ثم ينكشف لك أنها سيئة الطوية؟! سيئة الطوية؟!

فيجب ما شوه : سيدتى، انى افضل أن تحسن سيرتها على أفواههم وان اجدتها سيئة الطوية. (٤٥)

وقد لا نصدم أو نندهش إذا ما أتت هذه الاجابة على لسان شاعر، ولكننا نصدم ونندهش إذا كان صاحب هذه الاجابة — ماشوه — راعيا لأحدى الكنائس والمفروض فيه أن تكون أقواله وأفعاله تتفق مع مكانته الدينية والاجتماعية.

إلا أن الحقيقة كانت خلاف ذلك إذ ان ماشوه كان على علاقة بفتاة صغيرة، وانتهت هذه العلاقة بأن الفتاة لم ترفض له شيئاً طلبه، فهي تمنحه شرفها باسم الحب ولا شئ غير الحب.

من هذا يتضح لنا أن الحديث عن الحب العذرى، البعيد عن المادة والحديث عن احترام المرأة لم يكن إلا مسلاة يتسلل بها مجتمع راق؛ فلم تستطع الفروسية الغربية يوما ما أن تتمسك بالتقوى والفضيلة وسائر الخصال الحميدة التى كانت سائدة فى فتوة العرب المسلمين.

* ذكر ماشوه هذه القصة — تفصيلا — فى كتابه (Voir Dit) وفيه يمزج عنصر الدين والحب مع نوع ساذج من إنعدام الحياء.

فمصدر الفكرة الفروسية انما هو الكبرياء، إذ يكمن مجد الامراء والنبلاء فى كبريائهم وفى قيامهم بالأعمال المحفوفة بعظيم المخاطر وتلتقى جميع القوى الرئيسية فى نقطة صغيرة تسمى الكبرياء. (٤٦)

واخيرا فإننا نرى ان متطلبات الكمال الخلقى كانت ثقيلة الوطأة على الفارس، فإن هذه الفروسية الغربية التى تحظى بأطيب الثناء لم تكن مستطاعة إخفاء ما طلعت عليه من زيف أصيل، مهما كانت وجهة النظر التى ننظر إليها منها.

فإنها كانت مفارقة تاريخية مضحكة، وكانت قطعة من التلغيف المتكلف وجدت فى بلاط الامراء والنبلاء بعد أن فقدت قيمتها فى ميدان الحرب والدين، أوجدها الرواة والشعراء فجاءت القصائد والروايات خالية من أى منفعة إجتماعية أو قيمة أخلاقية بل كل ما فيها كبرياء متعطرس، وغرور باطل، وخطيئة آثمة.

هوامش الفصل الخامس

- (١) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٦٠
- (٢) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٦١
- (٣) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٠١
- (٤) د. حسن عبد الوهاب حسن : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة ص ٥٨ ، ٥٩
- (٥) المرجع السابق : ص ٥٩ ، ٦٠
- (٦) الموسوعة الثقافية مادة ف ص ٢١٧ كتاب الشعب
- (٧) J. Richard, The Latin Kingdom of Jewsaalem P.199.
- (٨) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ج٢ ص ٢٥ ، ٢٦
- (٩) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٦٣
- (١٠) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٢٥ ، ١٢٦
- (١١) كافين رايلى : الغرب والعالم، تاريخ الحضارة من خلال موضوعات القسم الأول ص ١٩٥
- (١٢) Sir Basil Liddell Hart. Why Don't we Learn From History? P.P 73 - 74
- (١٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦٠٥
- (١٤) كافين رايلى : الغرب والعالم ص ١٩٨ ، ١٩٩
- (١٥) المرجع السابق ص ١٩٩
- (١٦) د. عبد العزيز الأهوانى : اللقاء الحضارى فى الأندلس (ضمن بحوث فى تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١١٣

(١٧) على إبراهيم النحراوى وعثمان صالح الدجوى : تاريخ أوروبا والشرق فى القرون الوسطى ص ٦٥.

(١٨) الأمير شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٢

(١٩) الأمير شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٣

(٢٠) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٧٥، ٧٦

(٢١) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٧٦

(٢٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٨٧

(٢٣) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٧٥

(٢٤) كافين رايلى : الغرب والعالم ص ١٩٧، ١٩٨

(٢٥) المرجع السابق : ص ١٩٩

(٢٦) د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص ٧٦، ٧٧

(٢٧) د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص ٧٨

(٢٨) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٧٨

(٢٩) د. عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الاسلامية ص ١٨١

(٣٠) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٧٩

(٣١) كافين رايلى : الغرب والعالم ص ١٩٩، ٢٠٠

(٣٢) المرجع السابق ص ٢٠

(٣٣) Arnold - Sir. T.W. The Preaching of Islam - Ch. 3.

(٣٤) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٨٢

(٣٥) د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ الفرسان التيوتون ص ١٦٨

(٣٦) المقرئى : الخطط ج-٢ ص ٣٠١ وما بعدها.

(٣٧) د. عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الاسلامية ص ١٥٩

(٣٨) المرجع السابق ص ١٥٩ ، ١٦١

(٣٩) Stanly Lane - Pool - Saladin andy the Ball of the Kingdom of Jewsalem.

P.307.

(٤٠) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

(٤١) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٨٧ ، ٨٨

(٤٢) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٠١ ، ١٠٢

(٤٣) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٦٨ ، ٧٠

(٤٤) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٢٨٦

(٤٥) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ١٢١

(٤٦) يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ص ٧١

الخاتمة

والآن بعد أن عرضنا للفتوة في المفهوم الإسلامي، نجد أنه من الضروري نحدد أهم النتائج التي يمكن أن نصل إليها، فنجد أول ما يقابلنا في هذا الصدد أن المجتمع العربي قبل الإسلام كان كثيرا ما يشيد بالفتيان ويرفع من شأنهم ويضعهم في مكان الصدارة والرياسة. إلا أن مفهوم الفتوة في تلك الأونة كان يختلف باختلاف القبائل، بل لا نغالي إذا قلنا أن مفهوم الفتوة قبل الإسلام يختلف باختلاف نظرة كل شخص إلى فتوته.

وإذا نحن خطونا خطوة في التاريخ ، وقاربنا الإسلام وجدنا نوعا من الفتوة الشريفة كان من أهم سماتها إغاثة الملهوف ونجدة المظلوم... ويتضح ذلك فيما عرف "بحلف الفضول" فلما جاء الإسلام وجدنا أن لفظة الفتى التي ذكرت في القرآن الكريم في أكثر من موضع وبأكثر من معنى، كما أتت وصفا لبعض أنبياء الله مثل إبراهيم ويوسف — عليهما السلام — كذلك وصف الحق سبحانه وتعالى أهل الكهف بأنهم فتية، وذلك في قوله تعالى : "نحن نقصى عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى" . "سورة الكهف : الآية ١٣"

وهنا نجد أن الحق تبارك وتعالى جعل الإيمان به سبحانه سمة أساسية من سمات الفتوة.

أما عن موقف الإسلام من سمات الفتوة التي عرفت في المجتمع الجاهلي فنجد أنه جاء منظما لهذه السمات فألغى بعضها ونهى عنها،

وهذب السمات والصفات الحميدة وجعل غايتها مرضاة الله عز وجل. فإذا قلنا — مثلا — ان الشجاعة فى المجتمع الجاهلى كانت تهدف إلى المجد الفردى والقبلى، فجاء الإسلام موجها لها إلى خدمة الأمة جمعاء وإلى الدفاع عن مبدأ شريف ودين كريم، فأصبحت جهادا فى سبيل إعلاء كلمة الحق فى وجه طواغيت الكفر والإلحاد.

وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن سمات الفتوة كما عرفها الإسلام إنما هى مكارم الأخلاق، متمثلة فى الإيمان والكرم والوفاء، والعفة، والأمانة، والرحمة، والعفو، والزهد....

وقد اتضح لنا أن هذه التعاليم السامية قد تجسدت فى شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجتمعت فيه سمات الفتوة بشقيها المادية والمعنوية، فاقتدى به الصحابة الذين كانوا نماذج فذة فى الأخلاق الكريمة بهرت الفرس وزلزلت عروشهم فدانت لهم ديارهم.

ومن خلال التساؤلات التى طرحناها — من قبل — لمعرفة سمات الفتوة عند الصوفية، انتهينا إلى أن مصدر الفتوة عندهم إنما هو كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله الكريم الذى يحدث على مكارم الأخلاق. إضافة إلى ما وجدوه فى حياة الصحابة الذين كانت الدنيا بزينتها وزخرفها أهون على أحدهم من تراب قدميه.

ومن هذا المنطلق وجدنا أن أخص سمات الفتوة عند الصوفية ما عبر عنه الشيخ الأكبر "محي الدين بن عربى" فى قوله: "الفتى هو الواقف عند مراسم سيده". بالإضافة إلى بعض السمات الأخرى التى عرفت عن فتيان الصوفية وأهمها: الإيثار، وكف الأذى، والصفح عن الأخوان، والزهد، والصبر، ومحاسبة النفس ومخالفتها وتأديبها...

وإذا كان هناك من يربط بين الفروسية الغربية والفتوة الإسلامية وجدنا أنه من الضروري أن نقيم دراسة مقارنة بينهما حتى نتجلى الحقيقة، وانتهيتا في هذا الصدد إلى أن الفروسية الغربية وإن كانت قد برعت - بشكل أو بآخر - في الجانب المادى للفتوة المتمثل في المعارك وساحات القتال، فإنها لم تستطع أن تتحلى بالجانب المعنوى للفتوة من السماحة، والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد، والإلتزام بالوعد، وحماية الضعيف....

يشهد بذلك تاريخ الحروب الصليبية سواء عند فتح بيت المقدس، أو موقف ريتشارد قلب الأسد من أسرى عكا.... فقد ظلت طباعهم الحربية الجافة على ما هي عليه من خشونة وقسوة وعنف منذ أن بدأت تلك الحروب وحتى نهايتها، ولم تعرف شيئا من العفو أو الرحمة... أو أى سمة من تلك السمات التى وجدناها عند فتیان المسلمين.

وأخيرا ما أوجنا فى تلك الآونة من التحلى بسمات الفتوة (المادية والمعنوية) حتى نكون أقوياء فى غير عنف ورحماء فى غير ضعف.

من أهم المراجع العربية

١. ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة — تحقيق محمد أبو الفضل ط. مصر ١٩٦٠ — ١٩٦٤
٢. ابن جبير : الرحلة تحقيق د. حسين نصار القاهرة ١٩٥٥
٣. ابن الجوزى : صفة الصفوة حيدر آباد ١٣٥٥هـ
٤. ابن الجوزى : تلبيس ابليس القاهرة ١٣٤٠هـ
٥. ابن خلدون : المقدمة دار التحرير للطباعة والنشر — القاهرة ١٩٦٦
٦. ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين، بين إياك نعبد وإياك نستعين دار الحديث. د.ت.
٧. ابن القيم الجوزية : الفروسية دار التراث العربى — القاهرة — د.ت
٨. ابن عربى : الفتوحات المكية تحقيق د. عثمان يحيى الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة — د.ت
٩. ابن عربى : فصوص الحكم تحقيق د. أبو العلا عفيفى دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨٠
١٠. ابن كثير : البداية والنهاية مطبعة السعادة — القاهرة — د.ت
١١. ابن المعمار : الفتوة تحقيق مصطفى جواد وزملائه بغداد ١٩٦٠
١٢. ابن هشام : السيرة النبوية تحقيق طه عبد الرؤوف سعد مكتبة الكليات الأزهرية — القاهرة — د.ت.
١٣. أبو سعيد الخراز : كتاب الصدق تحقيق د. عبد الحليم محمود دار المعارف — القاهرة — ١٩٨٥

١٤. أبو طالب المكي : قوت القلوب فى معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد — القاهرة — ١٩٣٣
١٥. د. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة القاهرة ١٩٤٥
١٦. د. أبو العلا عفيفى : التصوف الثورة الروحية فى الإسلام دار — القاهرة — ١٩٦٣
١٧. أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة — د.ت
١٨. أحمد أمين : الصلابة والفتوة فى الإسلام دار المعارف — القاهرة ١٩٨٦
١٩. د. أحمد محمد الحوفى : من أخلاق النبى دار نهضة مصر — القاهرة ١٩٧٩
٢٠. د. توفيق الطويل : فى تراثنا العربى والإسلامى عالم الفكر — الكويت العدد ٨٧
٢١. تيشنر فرانز : الفتوة والخليفة الناصر (فصل من كتاب : المنتقى من دراسات المستشرقين) جمع وترجمة وتعليق د. صلاح الدين المنجد القاهرة ١٩٥٥
٢٢. الجرجاني : التعريفات البابى الحلبى — القاهرة ١٩٣٨
٢٣. الجيلانى : الغنية لطالبى طريق الحق البابى الحلبى — القاهرة ١٩٥٦
٢٤. جوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر البابى الحلبى — القاهرة ١٩٦٩

- ٢٥.د. حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ جماعة الفرسان التيونون فى
الأراضى المقدسة. دار المعرفة الجامعية — اسكندرية ١٩٨٩
- ٢٦.د. حسن الشرقاوى : الفاظ الصوفية ومعانيها دار الكتب الجامعية
— اسكندرية ١٩٧٥
- ٢٧.د. حسن الشرقاوى : الشريعة والحقيقة الهيئة المصرية العامة
للكتاب ١٩٧٦
- ٢٨.الحلاج : الطواسين تحقيق ما سينيون باريس ١٩١٣
- ٢٩.خالد محمد خالد : رجال حول الرسول بيروت ١٩٧٤
- ٣٠.دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ترجمة د. عبد الهادى أبو ريدة
القاهرة ١٩٥٤.
- ٣١.د. زكى مبارك : التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ط — .
أولى القاهرة ١٩٣٨
- ٣٢.السلمى : طبقات الصوفية — تحقيق نور الدين شريعة — مكتبة
الخانجى القاهرة ١٩٨٦
- ٣٣.سيف بن عمر الضبى الأسدى : الفتنة ووقعة الجمل — دار
النفائس. بيروت ١٩٧٧
- ٣٤.الشعرانى : الطبقات الكبرى دار الفكر العربى القاهرة بدون تاريخ
- ٣٥.شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ط — القاهرة — بدون
تاريخ
- ٣٦.د. طه حسين : الفتنة الكبرى دار المعارف — القاهرة ١٩٧٦
- ٣٧.د. طه حسين : على وبنوه دار المعارف — القاهرة ١٩٧٦
- ٣٨.د. طه حسن : الشيخان دار المعارف — القاهرة ١٩٧٨

٣٩. الطوسى : اللمع تحقيق د. عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي
سرور — القاهرة ١٩٦٠.
٤٠. عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ط — دار المعارف —
القاهرة — ١٩٦٨
٤١. د. عبد الحليم حنفى : شعر الضعاليك — الهيئة المصرية العامة
الكتاب — القاهرة — ١٩٨٧
٤٢. د. عبد الستار السيد متولى : أدب الزهد فى العصر العباسى —
الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٨٤.
٤٣. د. عبد العزيز الأهوانى : اللقاء الحضارى فى الأندلس (ضمن
بحوث فى تاريخ الحضارة الإسلامية) — مؤسسة شباب الجامعة —
اسكندرية ١٩٨٣
٤٤. د. على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام — دار
المعارف بمصر القاهرة ١٩٧٨
٤٥. عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب — مكتبة نهضة مصر —
القاهرة — ١٩٦٦
٤٦. د. عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الإسلامية — مؤسسة شباب
الجامعة — اسكندرية ١٩٨٦.
٤٧. الغزالى : احياء علوم الدين المكتبة التجارية الكبرى — بدون
تاريخ.
٤٨. القاشانى : اصطلاحات الصوفية — تحقيق د. محمد كمال ابراهيم
جعفر — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٨١
٤٩. القشيري : الرسالة البابى الحلبي — القاهرة ١٩٥٩

٥٠. القشيري : لطائف الإشارات دار الكتاب العربي — القاهرة بدون تاريخ.
٥١. كافين رايلي : الغرب والعالم — ترجمة د. عبد الوهاب محمد المسيري. د. هدى عبد السميع حجازي — عالم المعرفة — الكويت العدد ٩٠
٥٢. د. كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع — دار الأندلس بيروت ١٩٨٢
٥٣. المحاسبى : الرعاية لحقوق الله تحقيق د. عبد الحليم محمود دار المعارف — القاهرة ١٩٨٤
٥٤. المحاسبى : المسائل فى الزهد — تحقيق مصطفى عبد القادر عطا — مكتبة التراث الإسلامى — القاهرة ١٩٨٦
٥٥. د. محمد أحمد عبد المولى : العيارون والسطار، البغاددة فى التاريخ العباسى مؤسسة شباب الجامعة — اسكندرية ١٩٨٧
٥٦. د. محمد جلال أبو الفتوح شرف : دراسات فى التصوف الإسلامى — دار الفكر الجامعى — اسكندرية ١٩٨٦
٥٧. د. محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعياريين فى التراث العربى عالم المعرفة — الكويت العدد ٤٥
٥٨. د. محمد على أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام — دار الجامعات المصرية — اسكندرية ١٩٧٣
٥٩. د. محمد محمد الكومى : المروءة فى الشعر الجاهلى — القاهرة ١٩٨٣

٦٠. مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية —
القاهرة ١٩٤٤
٦١. نيكلسون : فى التصوف الإسلامى — ترجمة د. أبو العلا عفيفى
القاهرة — ١٩٤٧
٦٢. الهجویری : كشف المحجوب — دراسة وترجمة وتعليق د. اسعاد
عبد الهادى قنديل — المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — القاهرة
١٩٧٤.
٦٣. يوهان هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى — ترجمة عبد
العزیز توفیق جاوید — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة —
١٩٧٢
٦٤. يوهان هويزنجا أعلام وأفكار — نظرات فى التاريخ الثقافى —
ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — الهيئة المصرية العامة للكتاب —
القاهرة ١٩٧٢

المراجع الأجنبية

- 1- Arnold - sir - T.W: The Preaching of Islam.
- 2 - Sir. Basi Liddell Hart : why don't we Learn From
History? George Allen and Unwin. London. 1971.
- 3 - Stanley Lane. Poool: Saladin and the Fall of the
Kingdome of Jerusalem.
- 4 - J.Richard : The latin kingdome of Jerusalem Trans from
french by J.Shirly 2 vols. Amstrdam, 1979.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الأول	
الفتوة قبل الإسلام	٩
مفهوم الفتوة قبل الإسلام	٩
القوى المادية للفتوة	١٧
القوى المعنوية للفتوة	٣٣
الفصل الثاني	
الفتوة في الإسلام	٥٥
الفتوة في كتاب الله	٥٥
سيد الفتيان	٦٢
أولاً : القوى المادية للفتوة	٦٥
ثانياً : القوى المعنوية للفتوة	٧٩
الفصل الثالث	
من فتيان المسلمين	١١٣
أبو بكر الصديق	١١٤
عمر بن الخطاب	١١٩
عثمان بن عفان	١٢٤
علي بن أبي طالب	١٢٨
حمزة بن عبد المطلب	١٣٤
خالد بن الوليد	١٣٦
أبو ذر الغفاري	١٣٩

١٤١ سلمان الفارسي

الفصل الرابع

١٥١ الفتوة في المدارس الصوفية

١٥٢ مدرسة البصرة

١٦٧ مدرسة الكوفة

١٧٨ مدرسة الشام

١٨٩ مدرسة خراسان

الفصل الخامس

٢١٥ بين الفتوة الإسلامية والفروسية الغربية

٢١٥ تعريف الفروسية الغربية ونشأتها

٢٢٢ أثر العرب في الفروسية الغربية

٢٤٠ الفروسية الغربية في الميزان

٢٥١ الخاتمة والنتائج

٢٥٥ أهم المراجع

٢٦٣ فهرس الموضوعات

